



جامعة طاهري محمد بشار
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية



كتاب جماعي محكم ذو ترقيم دولي

الجنوب الغربي الجزائري في الأبحاث و الدراسات عبر التاريخ - مقاربات تاريخية إجتماعية -

إشراف وتنسيق :
- أ.د. بلاغ عبد الرحمان
- د. مقصودة محمد

فرقة البحث و التكوين الجامعي PRFU “حوض الساوره ..دراسات في التاريخ و المجتمع”
بالتعاون مع مخبر الدراسات الإنسانية و الاجتماعية بالجزائر





جامعة طاهري محمد - بشار
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية



كتاب جماعي محكم ذو ترقيم دولي
الجنوب الغربي الجزائري في الأبحاث
والدراسات، عبر التاريخ
مقاربات تاريخية – اجتماعية

من إعداد : فرقة البحث (PRFU) حوض الساوره دراسات في
التاريخ والمجتمع
بالتنسيق مع مخبر الدراسات الإنسانية والاجتماعية بالجزائر



رقم : 978-9931-9980-6-8 ISBN:
الطبعة الأولى ديسمبر 2024

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اسم الكتاب: الجنوب الغربي الجزائري في الأبحاث والدراسات، عبر التاريخ
مقاربات تاريخية – اجتماعية

المؤلف: تأليف جماعي

عدد الصفحات: 334 صفحة

قياس الصفحة: 17 × 24 سم

رقم الطبعة: الأولى

تاريخ الطبعة: ديسمبر 2024

الإيداع القانوني: السداسي الأول

ردمك / ISBN: 978-9931-9980-6-8

منشورات مخبر الدراسات الإنسانية والاجتماعية بالجزائر



جميع الحقوق محفوظة

الجنوب الغربي الجزائري في الأبحاث والدراسات، عبر التاريخ مقاربات تاريخية - اجتماعية

رئيس فرقة البحث: أ.د بلاغ عبد الرحمان

رئيس الملتقى: د. مقصودة محمد

مدير المخبر: أ.د علوي مصطفى

إشراف وتنسيق : أ.د بلاغ عبد الرحمان

د. مقصودة محمد

الإخراج التقني : مرزوق العيد

كتاب جماعي محكم ذو
ترقيم دولي

إن الآراء الواردة في الكتاب تلزم أصحابها ولا تعكس بالضرورة آراء وتوجهات
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ببشار، أو مخبر الدراسات الإنسانية
والاجتماعية بالجزائر

الجنوب الغربي الجزائري في الأبحاث والدراسات، عبر التاريخ

مقاربات تاريخية - اجتماعية

كلمة رئيس الملتقى :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أصل هذا الكتاب الجماعي الموسوم بـ "الجنوب الغربي الجزائري في الأبحاث والدراسات عبر التاريخ: مقاربات تاريخية واجتماعية"، ملتقى وطني عقد في طبعتين بجامعة طاهري محمد بشار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. من تنظيم فرقة البحث (PRFU) حوض الساوره دراسات في التاريخ والمجتمع، وبالتعاون مع مخبر الدراسات الإنسانية والاجتماعية بالجزائر بنفس الكلية.

وتثمينا لجهود ثلة من الباحثين والأكاديميين المهتمين بدراسة تاريخ الجنوب الغربي الجزائري المشاركين ضمن فعاليات الملتقى، سعت فرقة البحث إلى إخراج هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه مجموعة من المقالات التي تسلط الضوء على مختلف الجوانب التي ميّزت تاريخ منطقة الجنوب الغربي الجزائري، سواء من الناحية السياسية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو الثقافية، في مقاربات علمية تعتمد على الوثائق التاريخية، والتحليل الأكاديمي العميق .

لقد شكلت الصحراء الجزائرية على مر التاريخ مجال جغرافي فسيح وثري، تشترك فيه الجزائر مع بلدان افريقية ومغاربية وتمارس من خلاله دورها، ومن ثم ظلت تمثل نقطة تماس وتفاعل حضاري عبر مختلف العصور التاريخية، كما باتت محل اهتمام القوى الاستعمارية في القديم والحديث.

كما مثلت مناطق الجنوب الغربي الجزائري(حوض الساوره، الهضاب العليا، بلاد توات) مجالا جغرافيا ومجتمعيًا، وانتاجا معرفيًا، لايزال مصدر إلهام

للباحثين والمؤرخين والكتّاب، حيث عالجت العديد من الدراسات والأطاريح والأعمال، بالدراسة والتحليل كمصطلحات من جهة، ومجال ومكان وحيز للبحث من جهة أخرى، وقد تطرق الكثير من الجغرافيين والرحالة لحواضر الجنوب الغربي الجزائري، منذ الشريف الإدريسي وابن خلدون عبد الرحمن والحسن بن محمد الوزان وابن بطوطة والعياشي والبكري وغيرهم ممن خلفوا لنا كتابات حفظت تراث المنطقة وشكلت موروثا لاماديا ثميناً، فضلاً عن كتابات وتقارير المستكشفين الأوروبيين التي تناولت الجوانب السوسولوجية وأنثربولوجية وغيرها.

ولأن الكثير من هذا التراث، بات مهدداً بالضياع، فقد بات لزاماً على المؤسسات ذات الصلة والمهتمين، العمل بكل جد على جمع وإحصاء المصادر والكتابات بأنواعها المختلفة، وتثمينها من خلال إخضاعها للدراسة، واستثمارها في التنمية المستدامة.

بناءً على ما تقدم وفي ظل النقص الملاحظ بخصوص إحصاء الدراسات والكتابات حول الجنوب الغربي الجزائري وتثمينها، يسعى الكتاب لمعالجة ومناقشة إشكالية تتعلق بمسارات التطور التاريخي لمنطقة الجنوب الغربي الجزائري، ومختلف العوامل والقوى الفاعلة والمتدخلة في تحديد وتوجيه تلك المسارات.

يضم هذا الكتاب بين دفتيه مجموعة من الدراسات التي تعالج محاور متعددة، بدءًا من البُعد التاريخي الذي يوثق للأحداث الكبرى التي عرفت المنطقة، مرورًا بالتحوّلات الاجتماعية التي شهدتها عبر العصور، وصولًا إلى التأثيرات الثقافية التي ساهمت في تشكيل هوية سكانها. وقد حرصنا على أن تكون هذه الدراسات مبنية على منهجيات علمية رصينة، تستند إلى المصادر الأولية والشهادات التاريخية، مع مراعاة التعدد في زوايا الطرح، لتقديم صورة متكاملة عن الجنوب الغربي الجزائري.

نأمل أن يكون هذا العمل إضافة نوعية للمكتبة الأكاديمية الجزائرية، ومرجعًا للباحثين المهتمين بتاريخ وجغرافية هذه المنطقة، وأن يفتح آفاقًا جديدة للدراسات المستقبلية التي تعنى بتاريخ الجنوب الغربي الجزائري ومجتمعاته.

ختامًا، لا يسعني إلا أن أتوجه بجزيل الشكر إلى جميع الباحثين المشاركين في هذا العمل، لما بذلوه من جهد وعناية في إعداد دراساتهم، كما أشكر كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب إلى النور، راجيًا من الكريم المتعال أن يوفقنا جميعًا لخدمة البحث العلمي والتاريخي. والله الموفق

رئيس الملتقى

د. مقصودة محمد

الجنوب الغربي الجزائري في الأبحاث والدراسات، عبر التاريخ

مقاربات تاريخية - اجتماعية

كلمة رئيس مشروع البحث والتكوين الجامعي (PRFU)

"حوض الساورة-دراسات في التاريخ والمجتمع"

يعتبر التاريخ المحلي، إحدى المجالات المهمة في الكتابة التاريخية المقطعية، لأنه يعطينا توصيفا تاريخيا ومقطعيا لـ"مجال عمراني" بالمفهوم الخلدوني. كما تتضح من خلاله الصورة التاريخية بمختلف تفصيلاتها لإقليم أو جهة، مما يساعد على إعطاء مقاربات تاريخية ومجتمعية لمختلف الأحداث والظواهر، لتكوّن لبنة في سياق الكتابة التاريخية الشمولية.

يشكل حوض الساورة (واد بشار، واد زوزفانة، واد قير وواد الساورة) الممتد من مدينة بشار والقنادسة شمالا، إلى مشارف أدرار جنوبا في اتجاه طولي، مجالا لتجمعات بشرية مهمة، توضع على جنبات مجاري الحوض، منذ فترة ما قبل لتاريخ وتبرز اليوم في مدن وقصور.

يلاحظ الباحث في التاريخ، نقصا في الدراسات الاكاديمية حول حوض الساورة، سيما في العصر الوسيط، بسبب ضالة المادة المصدرية، في حين بدأ حوض الساورة يسجل حضوره التاريخي في نهاية العصر الوسيط وبداية الفترة الحديثة، انطلاقا مما ورد في مظان المؤلفات المخطوطة والمنشورة، وبرز أكثر في الفترة الحديثة كمجال للتجاذبات السياسية والعسكرية للقوى المغاربية؛ فضلا عن سعي التحالفات القبلية لأن تتبوأ مكانة لها.

في خضم تلك التجاذبات، برزت الملامح الثقافية والفكرية والمجتمعية لحوض الساورة، في حين عرف التاريخ المعاصر لحوض الساورة التفاتة من طرف

كتاب جماعي محكم ذو ترقيم دولي

الباحثين خاصة خلال الفترة الاستعمارية، لكن هناك الكثير من زوايا الأحداث بحاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث، سيما في الجانب الاجتماعي.

هذا المؤلف الجماعي يمثل جزء من نشاط فرقة البحث والتكوين الجامعي "PRFU" أردنا من خلاله إضاءة بعض زوايا التاريخ والمجتمع في حوض الساور، ويبقى الاشتغال على تاريخ ومجتمع حوض الساور مشروعا مفتوحا لكل المهتمين والمختصين، رغم الصعوبات المنهجية والعوائق الميدانية التي يطرحها.

نتقدم بتشكراتنا لكل المساهمين، سواء ممن وردت أعمالهم في هذا الكتاب، أو للذين شاركوا بورقات علمية في الملتقيات العلمية الوطنية أو الندوات المحلية، المنظمة من طرف فرقة PRFU خلال فترة (2021-2024).

أ.د عبد الرحمان بلّاغ

اللجنة العلمية للكتاب :

رئيس اللجنة العلمية: أ.د عبد الرحمان بلّاغ

أعضاء اللجنة العلمية

- | | |
|-------------------------------|------------------------|
| 1- أ.د برشان محمد | جامعة طاهري محمد بشار |
| 2- أ.د فريقي محمد الكبير | جامعة طاهري محمد بشار |
| 3- أ.د بن واز مصطفى | المركز الجامعي النعامة |
| 4- أ.د علوي مصطفى | جامعة طاهري محمد بشار |
| 5- أ.د سياب خيرة | جامعة طاهري محمد بشار |
| 6- أ.د شرفاوي الحاج عبو | جامعة طاهري محمد بشار |
| 7- أ.د باعثمان عبد الرحمان | جامعة أدرار |
| 8- أ.د. سباعي سيدي عبد القادر | جامعة طاهري محمد بشار |
| 9- أ.د. سلاماني عبد القادر | جامعة طاهري محمد بشار |
| 10- د. سالي زينب | جامعة طاهري محمد بشار |
| 11- د. بوعنيني سهام | جامعة طاهري محمد بشار |
| 12- أ.د. علاوي العيد | المركز الجامعي البيض |
| 13- أ.د. رفاف شهرزاد | جامعة طاهري محمد بشار |
| 14- د. حماد محمد | جامعة طاهري محمد بشار |
| 15- أ.د. بابا عبد الله | جامعة أدرار |
| 16- د. موساوي مجدوب | جامعة سعيدة |
| 17- د. رمضاوي سليمان | جامعة طاهري محمد بشار |
| 18- خلادي محمد الأمين | جامعة أدرار |

لجنة التدقيق اللغوي :

- | | |
|-----------------------|---|
| أ.د علاوي العيد | المركز الجامعي البيض |
| أ.د خلادي محمد الأمين | جامعة أدرار |
| أ.د مغناجي محمد | المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار قسنطينة |

كتاب جماعي محكم ذو
ترقيم دولي

الجنوب الغربي الجزائري في الأبحاث والدراسات، عبر التاريخ

مقاربات تاريخية - اجتماعية

فهرس المحتويات :

الرقم	عنوان المقال	المؤلف	الصفحات
01	الصحراء من خلال المصادر الفرنسية – دراسة ببليومترية-	د. عبد الغني الرميثة أ.د. مصطفى بن واز المركز الجامعي النعامة	34-19
02	إقليم توات من خلال الموروث النوازي في العصر الوسيط من القرن (6 هـ إلى 9 هـ).	عبد الكريم بصديق جامعة الحاج لخضر باتنة	51-35
03	التراث الصوفي في الصحراء... مخطوط "جواب الفقيه الصوفي ابن أبي محلي على سؤال قاضي قورارة" نموذجاً	أ.د عبد الرحمان بلاغ د. مقصودة محمد جامعة طاهري محمد -بشار	73-52
04	العمارة الطينية في منطقة قورارة وسبل المحافظة عليها كجزء من التراث المادي	د. بن عطيا الله عبد الرحمان جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي	89-74
05	التراث الساورى في الخطاب السردي لجميلة طلباوي –دراسة نماذج-	أ.د محمد الأمين خلادي جامعة أحمد دراية -أدرار أ.د العيد علاوي المركز الجامعي نور البشير -البيض	113-90
06	الدور التاريخي للطريقة الشيعية في بعث وبناء الدولة الجزائرية الحديثة	د. صديقي عبد الجبار المركز الجامعي نور البشير -البيض	129-114
07	تاريخ الأبحاث والدراسات الأثرية لفترة ما قبل التاريخ بمنطقة الجنوب الغربي وإقليم الساور "دراسة حالة محطات الفن الصخري"	د. نوال بن صغير جامعة زيان عاشور -الجلفة	150-130
08	صورة الجنوب الغربي الجزائري من خلال الموروث الشعبي	د. مقصودة محمد جامعة طاهري محمد -بشار	175-151

كتاب جماعي محكم ذو
ترقيم دولي

186-177	أ.د. العيد علاوي المركز الجامعي نور البشير - البيض	جهود الأستاذ الدكتور محمد برشان في خدمة تاريخ منطقة بشار من خلال كتابه " الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في منطقة بشار (1903-1962)"	09
206-187	ط.د. العراقي نجاة جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	مساهمة أبي عبد الله محمد الإدريسي في التأريخ للجنوب الغربي الجزائري من خلال كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق	10
232-207	ط.د. دحوان رشيد جامعة طاهري محمد - بشار	الموروث الثقافي بنوعيه من خلال الكتابات عن الجنوب الغربي وإشكالية التعدي عليه في التشريع الجزائري	11
267-233	ط.د. خلف الله عبد القادر جامعة طاهري محمد - بشار	دور الزاوية الزبانية القندوسية في نشر العلم	12
279-268	د. بكارة بن عامر جامعة تمنغاست	"قصور الجنوب الغربي من خلال الكتابات والتقارير الفرنسية (قصر بوسمغون أنموذجا"	13
290-280	د. حنان جعيرن المدرسة العليا للأساتذة طالب عبد الرحمن - الأغواط	القصص والروايات من الشعر الشعبي في الجنوب الغربي الجزائري	14
314-291	ط.د. وليد زدام المركز الجامعي سي الحواس - بركة-	الجنوب الغربي الجزائري في كتابات الرحالة والجغرافيين ما بين القرنين (10-12هـ/16-18م) "الأوضاع الإقتصادية والاجتماعية أنموذجا"	15
326-315	زويني زهراء/ جامعة أحمد دراية . أدرار بلغازي سعاد/ جامعة طاهري محمد - بشار	الموروث الثقافي بحاضرة تندوف - خزانة أهل العبد أنموذجا -	16

الصحراء من خلال المصادر الفرنسية – دراسة ببليومترية-

The desert through French sources - a bibliometric study-

د. عبد الغني رميثة: المركز الجامعي صالحي أحمد- النعامة (الجزائر)، remita@cuniv-naama.dz

أ.د مصطفى بن واز: المركز الجامعي صالحي أحمد- النعامة (الجزائر)، mostapha.benouaz@cuniv-naama.dz

ملخص: من خلال اطلاعنا على أطروحة دكتوراه والموسومة بـ "السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19"، من تقديم الطالب مرجاني عبد القادر وإشراف الأستاذ الدكتور مجاود محمد بجامعة سيدي بلعباس، خلال السنة الجامعية 2019 – 2020، لفت انتباهنا الزخم الذي ميز ببليوغرافيا الأطروحة خاصة ما تعلق بالمصادر الفرنسية، فارتأينا التعامل مع هذه المصادر من خلال ترجمة عناوينها والوقوف على دراسة إحصائية تسهل علينا تصنيف هذه المصادر وطبيعتها، وحتى طبيعة مؤلفيها. ويعرض البحث أبرز الإحصائيات المتعلقة بطبيعة المصادر ومؤلفيها، والتي من خلالها توصلنا إلى نتائج تظهر أهمية الدراسة الببليومترية في توضيح معالم الدراسات الأكاديمية التي تسهل على الباحث معرفة القيمة العلمية للأطروحة الجامعية.

كلمات مفتاحية: ببليومترية، الاستعمار، الصحراء، المصادر، الإحصاء.

Abstract: By reading a doctoral thesis tagged with: “The French policy and the role of the explorers In penetrating into southern Algeria in the nineteenth century”, presented by the student Merdjani Abdelkader and under the supervision of doctor Medjawed Mohamed from sidi belabes university during the university year 2019-2020, the momentum which distinguished the bibliography of this thesis caught my attention, especially with regard to the French sources. So I figured I’d deal with these sources by translating their titles and doing a statistical study which makes it easy for us to classify, and their nature and even the nature of their authors. The research presents the most prominent statistics related to the nature of the documents used and their authors, through which we reached results that show the importance of the bibliometric study in clarifying the features of academic studies that make it easier for the researcher to know the scientific value of the university thesis.

Keywords: the Bibliometric; the Colonialism; the desert, the sources, the statistics

1. مقدمة:

تعد المصادر العلمية ثروة معرفية هامة في إنجاز البحوث الجامعية بمختلف درجاتها، كثيرا ما يغفل عنها الباحثون، ولأجل نفوذ الغبار عن هذا الكنز العلمي، ارتأينا أن نبحت في مختلف أطاريح الدكتوراه والمجستير لاستقصاء هذه المصادر ومحاولة سبر أغوارها ومعرفة حقائقها حتى تكون في متناول الباحثين بشتى رتبهم.

يبدو أن الكثير من الباحثين يغفلون عن هذه الثروة العلمية التي تزخر بها مختلف أطاريح الدكتوراه والمجستير ، وتتمثل هذه الثروة في المصادر المعتمدة لإنجاز البحوث العلمية، ولذا نود تنبيه الباحثين بمختلف رتبهم إلى ضرورة الاهتمام بهذا الجانب باعتباره يهتم بمواضع شتى في مجال التاريخ السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي والثقافي...

لقد راودتنا فكرة الاهتمام بالمصادر من خلال تجربة بسيطة تمثلت في دراسة إحصائية لأهم المصادر لأطروحة دكتوراه موسومة بـ "الطب في الجزائر خلال فترة الاحتلال (1830 - 1962)"، إذ اعتمدت الباحثة على أكثر من 200 مصدر فرنسي، وقد قمت بدراسة بيبليومترية (إحصائية) استطعت من خلالها إحصاء الأمراض والأوبئة وعلاجاتها خلال هذه الفترة في الجزائر.

إن هذه التجربة البسيطة دفعتني لمعاودة الكرة من خلال أطروحة دكتوراه موسومة بـ "السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19"، حيث سعت لاختيار 48 مصدرا من مجموع 104 في محاولة لسبر أغوار هذه الدراسة وطبيعة مؤلفيها في دراسة إحصائية أحاول من خلالها استكشاف الصحراء وأهميتها الإستراتيجية في الحفاظ على أمن البلاد.

إن المقال يطرح إشكالية دراسة إحصائية نستطيع من خلالها تشخيص طبيعة الصحراء الجزائرية، ومن حاول استكشافها من العناصر الفرنسية ذات المنطلقات المختلفة،

وبالتالي نطرح التساؤلات التالية: ما هي أهمية الصحراء الجزائرية من خلال المستكشفين الفرنسيين؟ وما الأهداف التي كان يتوخاها هؤلاء.

ومن الفرضيات التي تفرض نفسها، إبراز أهمية الصحراء في بعدها الاقتصادي، الأمن والاجتماعي، وكذا إدراك قيمة الدراسة الببليومترية التي قلما نتحدث عنها نظرا لأهميتها في قياس مدى استجابة البحث للمصادر المستعملة.

نشير في الأخير أن المقال لا يحتوي على ببليوغرافيا، باعتبار أن المصدر الرئيسي له هو ببليوغرافيا الأطروحة المذكورة سالفًا.

2. الدراسة الببليومترية:

1.2. مفهوم الببليومترية

الدراسة الببليومترية هي علم يبحث في الإنتاج الفكري العام أو المتخصص، الذي يتناول موضوعا بعينه. تطبق فيه غالبا المناهج الرياضية والإحصائية.

فالببليومترية تستخدم الطرق الإحصائية والأساليب الرياضية في تحليل البيانات المتعلقة بالوثائق لمعرفة خصائص عمليات تداول المعلومات، ومن أهدافها التعرف على مظاهر القصور والإتقان في الخدمات الببليوغرافيا، وبالتالي قياسه، وعلى هذا الأساس نستطيع القول أن استخدام هذا العلم في الأطروحات الجامعية مثلا سيعطينا صورة دقيقة في معرفة إلى أي مدى أحسن الباحث في توظيف الببليوغرافيا في موضوع معين، فمثلا إذا كان الموضوع يتحدث عن الصحراء، وكانت نسبة المصادر المعتمدة في الموضوع لا تتعدى 30%، فنستطيع أن نقول أن الموضوع لم يحقق مبتغاه من خلال الموضوع المقترح، ليس هذا فقط بل نجد كذلك أن الدراسة الببليومترية تحدد طبيعة المصادر واختصاصات أصحابها ومجالات الدراسات فيها، مما يسهل على الباحث التعامل معها قصد الاستفادة منها.

إن ما لفت انتباهي الزخم الذي ميز بيبليوغرافيا الأطروحة خاصة ما تعلق بالمصادر الفرنسية، فارتأيت التعامل مع هذه المصادر من خلال ترجمة عناوينها والوقوف على دراسة إحصائية تسهل علينا تصنيف هذه المصادر وطبيعتها.

3. تصنيف المصادر:

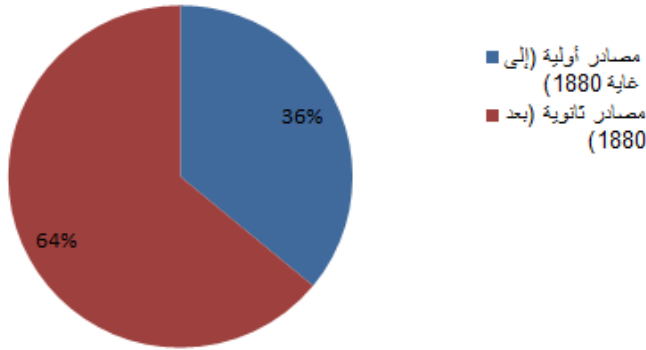
1.3. أولية وثانوية:

حيث نعتبر كل المصادر التي كتبت إلى غاية 1880 مصادر أولية. 18 مصدر. أما المصادر التي اعتمدت بعد 1880 مصادر ثانوية 31 مصدر.

الجدول 1: يوضح نموذج من المصادر الفرنسية حول الصحراء الجزائرية

المصادر	مصادر أولية (إلى غاية 1880)	مصادر ثانوية (بعد 1880)
النسب	36%	64%

الشكل 1: دوائر نسبية تمثل نموذج من المصادر الفرنسية حول الصحراء الجزائرية



2.3. الجوانب التي تناولتها المصادر:

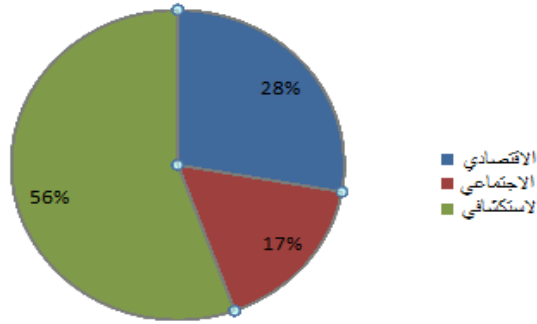
أ. المجالات التي ركزت عليها المصادر الأولية:

- المجال الاقتصادي: 5 مصادر.
- المجال الاجتماعي: 3 مصادر.
- المجال الاستكشافي: 10 مصادر.

الجدول 2: جدول يوضح تصنيف المصادر الأولية

المجالات	الاقتصادي	الاجتماعي	الاستكشافي
النسب	27,78%	16,67%	55,55%

شكل 2: دوائر نسبية تمثل تصنيف المصادر الأولية



من خلال الرسم البياني رقم 2 نلاحظ ما يلي: احتلال فرنسا للجزائر كان استيطاني بآتم معنى الكلمة، سيطرة على الأرض وطرد السكان ومحاولة احتوائهم ثقافيا قصد قطع الصلة بمقوماتهم الدينية واللغوية.

إن المتمعن لهذه النسب يلاحظ أن النسبة الكبرى تتجه إلى الجانب الاستكشافي لأن فرنسا كان همها الأول استكشاف الأرض وما عليها من نبات وحيوان وطبيعة المناخ وكذا معرفة طبيعة السكان اثنيا مع العادات والأعراف السائدة قصد دراستها حتى يتمكن الفرنسيون من السيطرة على البلاد.

إن القاسم المشترك لهذه المصادر هو إرادة فرنسا الواضحة في السيطرة التامة على البلاد تحت عنوان استكشاف البلاد ودراسة الجوانب العلمية بغطاء سياسي واضح.

ب. المجالات التي ركزت عليها المصادر الثانوية:

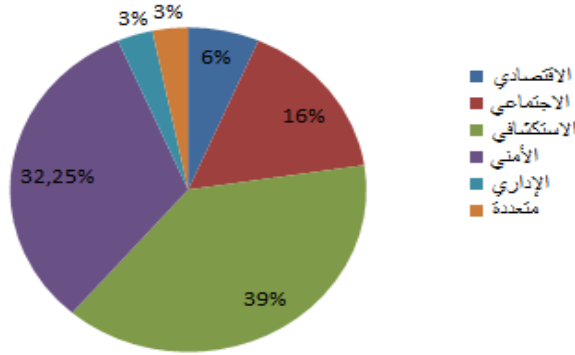
- المجال الاقتصادي: مصدران

- المجال الاجتماعي: 5 مصادر.
- المجال الاستكشافي: 12 مصدر.
- المجال الأمني: 10 مصادر.
- المجال الإداري: مصدر.
- مجالات متعددة: مصدر.

الجدول 3: يوضح تصنيف المصادر الثانوية

المجالات	الاقتصادي	الاجتماعي	الاستكشافي	الامني	الاداري	متعددة
النسب	% 06,45	% 16,13	% 38,71	% 32,25	% 03,23	% 03,23

الشكل 3: دوائر نسبية تمثل تصنيف المصادر الثانوية



يلاحظ من خلال الرسم البياني رقم 3: استمرار السيطرة السياسية خاصة في المجال الاستكشافي والاقتصادي وبداية ظهور معطيات أخرى جديدة حول الجانبين الأمني والاجتماعي، خاصة ما تعلق بالجانب النسائي وارتباط ذلك كله بالأسرة، مما يعطي دلالة قطعية على التطور في مسار الاحتلال، حيث أن الفترة التي عقت 1880 اتضحت فيها النية الحقيقية للاستعمار الفرنسي.

3.3. من حيث الجهات:

أ. المصادر التي تتحدث عن الصحراء بصفة عامة

1. أدولف دييونسال، السكة الحديدية العابرة للصحراء ربط استيطاني بين الجزائر والسودان، دراسات أولية لمشروع وتقرير مهمة مع خرائط عامة وجيولوجيا...، باريس، 1878.
2. برنارد. أ، ولاكروا. ن، الاحتلال الصحراوي 1830-1906، الجزائر، 1906.
3. بيسوال. ه، الصحراء الفرنسية، الجزائر، 1891.
4. كات. أ، من خلال الصحراء (الأبجديات والحروف حسب قاستون)، باريس، 1892.
5. ش ليتوم، وضعية عامة لأقاليم جنوب الجزائر خلال سنة 1915، ط 1916.
6. دوماس أوجان، دوك دو دالماسي (بإذن)، الصحراء الجزائرية، 1845.
7. ديكلوس. م، أقاليم جنوب الجزائر، الحكومة العامة للجزائر، الجزائر، 1929.
8. دوماس. أ، الصحراء الجزائرية (دراسات جغرافية، إحصائية وتاريخية حول جهة الجنوب للمؤسسات الفرنسية)، باريس، 1845.
9. أوجان فرومنتان، صيف في الصحراء، باريس، 1981.
10. فيليكس جاكو، بعثة الجنرال كافينياك في الصحراء الجزائرية أفريل وماي 1847، باريس، 1849.
11. جورج رولان، عبور الصحراء بعد عام، باريس، 1876.
12. غود فروي. ب، برنامج السكة الحديدية لمناطق الجنوب، الجزائر، 1916.
13. هانري دو لاكروا، مسائل صحراوية وعابرة للصحراء، باريس، 1902.
14. لولونج. م، ه، الصحراء بمئة وجه، باريس، 1945.
15. لونارد. روجي، مناطق الجنوب الجزائري (تقرير خدمة منجزة 1947 - 1952)، الجزائر، 1945.

16. فيلو. ب، استكشاف الصحراء دراسة تاريخية وجغرافية، باريس، 1895.

17. زاكون. س ب، تجارة الجنوب، 1876.

18. تريملي. س، الفرنسيون في الصحراء، باريس، 1855.

19. أوجان دوماس، الصحراء الكبرى أو مسار قافلة، باريس، 1848.

20. أوجان فرومانتان، صيف في الصحراء، باريس، 1877.

21. بيليسي. ج، يومية سير ال.....، 1852.

ب. المصادر التي تتحدث عن الجنوب الشرقي

1. جويس، واحات واد ريخ في 1856 و1879، متابعات ملخص أعمال الحفر منفذة من

طرف دائرة قسنطينة، باريس، 1879.

2. شارل فيرو، بنو جلاب، سلاطين تقرت، المجلة الإفريقية، 1879.

3. ليون. ل، محتل الواحات، العقيد تيودور بين، باريس، 1935.

4. مارتن، أ ج ب، الواحات الصحراوية، الجزائر، 1908.

5. شارل فيرو، ملاحظات تاريخية حول جهة قسنطينة، بنو جلاب وسلاطين تقرت،

المجلة الإفريقية، 1887.

6. فيليب أنتوني، مهمات الآباء البيض في تونس، الجزائر، القبائل والصحراء، باريس،

1930.

ج. المصادر التي تتحدث عن الصحراء الوسطى

1. بوديشون، مشروع استكشاف سياسي، تجاري وعلمي من الجزائر إلى تمبكتو عبر

الصحراء، 1849.

2. فيرنو فورو، رحلتي التاسعة للصحراء وإلى بلاد الطوارق، مارس - جوان 1897،

باريس، 1898.

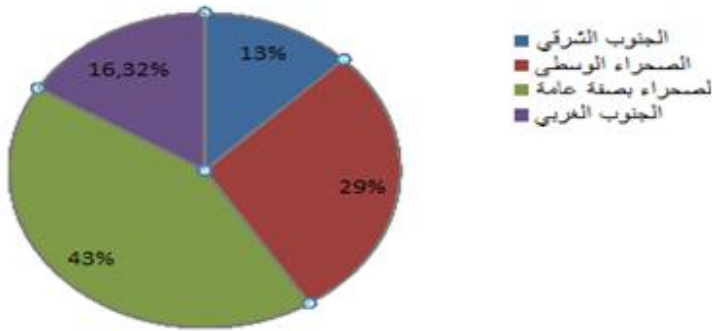
3. فيرنو فورو، تقرير حول مهمتي في الصحراء وعند الطوارق أكتوبر 1893 - مارس 1894، باريس، 1894.
4. جونفيري كابوري، الماء والأرض في المنيع، مجلة أشغال معهد البحوث الصحراوية، الجزائر، 1958.
5. جيون. م، السفر الجزائري إلى ميزاب، 1847، الجزائر.
6. مانجا. أ، نقاط حول تاريخ الأغواط، الجزائر، 1895.
7. ميتوا، انتفاضة طوارق الشمال 1900 - 1904، باريس، 1995.
8. بول صولي، رحلة بول صولي من الجزائر العاصمة إلى واحة عين صالح، الجزائر، 1875.
9. بول صولي، استكشاف الصحراء الوسطى (مستقبل فرنسا في إفريقيا)، باريس، 1876.
10. كوين، بلاد مزاب، الجزائر، 1879.
11. معلومات حول تاريخ الأغواط، المجلة الإفريقية، 1894.
12. مارسي مارسال، الحياة النسوية في المزاب، المجلة الإفريقية، 1928.
13. ليون ليرو، التنظيم الاقليمي للجنوب الجزائري، المجلة الإفريقية، 1937.
14. معلومات حول تاريخ الأغواط، المجلة الإفريقية، 1894.
- د. المصادر التي تتحدث عن الجنوب الغربي:
 1. بول صولي، إفريقيا الغربية (الجزائر، مزاب، تيدكلت)، 1877.
 2. تيليون. أ، ماري. ج، روجي. أ، احتلال واحات صحراوية في تيديكلت، قوراري، توات، زوزفانة وفي الساورة في 1900 - 1901، باريس.
 3. جاكوب أولاي، يهود كلومب بشار وقرى الساورة 1903 - 1962، باريس، 2003.

4. فوانو. ل، الوضعية على الحدود الجزائرية المغربية للتل أثناء ثورة أولاد سيد الشيخ بالجنوب الوهراني (1864-1870)، المجلة الإفريقية، 1919.
5. شارل دوفوكو، شارل دوفوكو ناسك في الصحراء، المجلة الإفريقية، 1931.
6. فوانوت. ل، تيديكلت، وهران، 1909.
7. جورج قوري، الصداقات الصحراوية للأب ديفوكو، باريس، 1946.
8. ماري. أندري، الأب دوفوكو صاحب مهمة، باريس، 1937.
- من خلال الدراسة الاحصائية وصلت إلى النتائج التالية:
- الصحراء بصفة عام: 21 مصدرا.
 - الجنوب الشرقي: 6 مصادر.
 - الصحراء الوسطى: 14 مصدرا.
 - الجنوب الغربي: 8 مصادر.

الجدول 4: يوضح أقسام الصحراء من خلال المصادر الأولية والثانوية

الجهات	الجنوب الشرقي	الوسط	عام	الجنوب الغربي
النسب	%12,61	% 28,57	%42,86	%16,32

الشكل 4: دوائر نسبية تمثل أقسام الصحراء من خلال المصادر الأولية والثانوية



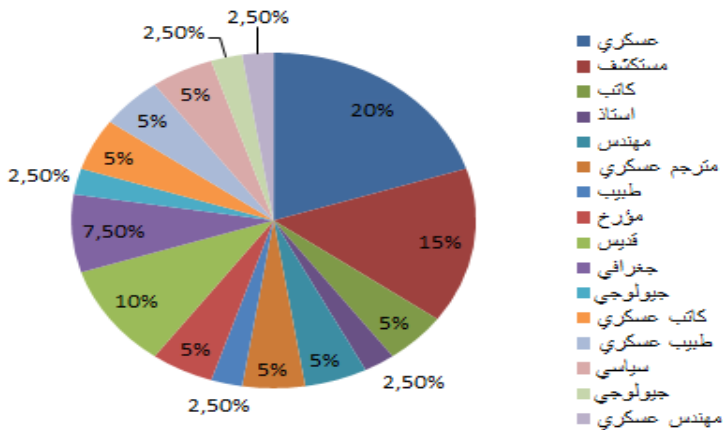
4.3. من حيث طبيعة مهن الكتاب:

الجدول 5: يوضح طبيعة مهن كتاب المصادر الفرنسية

المهن	عسكري	مستكشف	كاتب	استاذ	مهندس	مترجم عسكري	طبيب
النسب	20%	15%	5%	2,5%	5%	5%	2,5%

المهن	مؤرخ	قديس	جغرافي	جيولوجي	كاتب عسكري	طبيب عسكري	سياسي	جيولوجي
النسب	5%	10%	7,5%	2,5%	5%	5%	5%	2,5%

الشكل 5: دوائر نسبية تمثل طبيعة مهن كتاب المصادر الفرنسية



من خلال الرسم البياني رقم 5 نلاحظ ما يلي:

- تنوع الكتاب باختلاف مهنتهم.
- المستوى العلمي والمهني والاحتلافية في نقل التقارير ميزتهم.
- كل هؤلاء كانوا أصحاب مهام وإن اختلف مهنتهم ومشاريتهم.
- إن الغالب من هذه الصورة البيانية هم العسكريون، نظرا للأهمية الخطيرة المنوطة بهم.
- دور الأمنيين ورجال الكنيسة في تثبيت التواجد الاستعماري نظرا لخطورة هاتين الفئتين لسهولة اختراقهما وتوغلتهما داخل لمجتمع.

4. خاتمة:

من هذا العمل نستخلص ما يلي:

- كانت الصحراء دوما هدفا مرسوما للاستكشافات الأوربية عامة والفرنسية خاصة في مختلف المجالات.
- خصص المستكشفون والكتاب دراساتهم لمختلف المظاهر في المجتمع وفي ثقافته، وبل كذلك الاهتمام بالأرض في مناخها ومياهها وما شابه ذلك.
- إن هؤلاء الكتاب لم يكون أناسا عاديين، فهمم العسكريون والأمنيون والأطباء والجغرافيون...
- إن هذه الدراسات كانت تروم ليس فقط الأهداف المعلنة بل أهدافا أمنية لم يكشف عن حقيقته إلا بعد حين.
- إن الصحراء الجزائرية تزخر بموارد طبيعية فوق الأرض وتحتها، بل هناك ما يسمى بالترية النادرة، ويعني ذلك كثيرا في المجال الاقتصادي.

- لقد لعب القساوسة دورا كبيرا في الصحراء على شاكلة الأب دوفوكو وأعماله الإجرامية غير المعلنة والتي انتهت باغتياله.

- ضرورة الاهتمام بهذه الدراسات حسناتها وسيئاتها ملدن جميع الباحثين لما تكتنزه من ثروات علمية وفكرية يستنير بها البحث بغض النظر عن رتبته.

إن الصحراء الجزائرية امتداد استراتيجي وأمني وطاقوي اليوم وغدا، والاهتمام بها ماديا ومعنويا هو ردة لمخاطر يجب صدها من البداية، ما الهجرة غير الشرعية وانتشار الإرهاب في منطقة الساحل وكثرة الانقلابات إلا عنوان على خطورة على هذا النطاق الجغرافي الذي سعت فرنسا للحفاظ عليه بكل ما أوتيت من قوة، لكنها بدأت تفتقده.

إن الصحراء الجزائرية كذلك ليست مجرد جغرافية أو موارد طبيعة بل مجموعة سكانية يجب الالتفات إليها حفاظا على النسيج الداخلي للمجتمع الذي تسعى القوى الكبرى تمزيقه بكل ما أوتيت من قوة تحقيقا لأهدافها.

5. قائمة المراجع:

أ. قائمة المصادر:

1. Adolphe Duponchel, Le chemin de fer Trans-saharien, Jonction Colonial entre l'Algérie et le Soudan, études Préliminaires du Projet et Rapport de mission avec cartes générale et géologique, Topographie et Lithographier de Boehm, Paris, 1878.
2. Bernard. A et Lacroix. N, la pénétration saharienne 1830-1906, Alger, 1906.
3. Bissuel. H, Le Sahara Français, Imprimerie Librairie Adolphe Jourdan, Alger, 1891.
4. Boudichon, Projet d'une exploration politique, commerciale et scientifique d'Alger à Tambouctou par le sahara, 1849.
5. Cat. E, A Travers le Désert, Typographie Gaston, Paris, 1892.
6. CH Lutaud. M, Situation générale des territoires du sud d'Algérie pendant l'année 1915, Imprimerie libraire, ed Jordan, 1916.
7. Daumas, Duc De Dalmatie, Le Sahara Algérien, Langlois Et Leclercq, Fortin Masson Et Cie, Paris, 1845.

8. Duclos. M, Les territoires du sud de l'Algérie, gouvernement général de l'Algérie, Alger, 1929.
9. Eugène Daumas, Le Sahara Algérien "études Géographique, Statistique, et Historique sur la région au sud des établissements Français, Langlois Leclercq, Paris, 1845.
- 10.Eugène Fromentin, " Un Eté dans le Sahara" Présentation et Notes par Anne Marie Christine, Editions Le Sycomore(Appendice) .Paris. 1981.
- 11.Félix Jacquot, Expédition du Générale Cavaignac dans le Sahara Algérien en Avril et Mai 1847, Gide et J.Baudry, Libraires editeur, Paris, 1849.
- 12.Fernand Foureau, Mon Neuvième voyage au Sahara et au pays Touareg Mars-Juin 1897, Librairie Maritime Coloniale, Paris, 1898.
- 13.Fernand Foureau, Rapport sur ma Mission au Sahara et chez les Touareg Azdjer Octobre 1893- Mars 1894, Librairie Coloniale, Paris, 1894.
- 14.Geneviève Capot-Rey, L'Eau et le sol a El-Goléa, Revue Travaux de de l'institut de Recherches Sahariennes, université d'Alger, Tome XVII, 1er.2me semestre, 1958.
- 15.George Rolland, Le transahararien un an après, Alfred mame et fils éditeur, Paris, 1876.
- 16.Godefroy. P, Programme des chemines de fer Dans les Territoires du Sud, Imprimeur-Libraire-éditeur, Place du gouvernement, Alger, 1916.
- 17.Gyon. M, Voyage d'Alger aux Ziban l'ancienne Zèbe en 1847, impr du gouvernement, Alger.
- 18.Henry de la Croix Castres, Questions Saharienne et Transsahariennes, Librairie Africaine colonial, Paris, 1902.
- 19.Jacob Oleil, Les Juifs de colomb-bechar et des villages de la Saoura 19031962, Orléans, Paris, 2003.
- 20.Jues, Les Oasis de l'Oued Rir en 1856 et 1879, suivies du Résumé de travaux de sondages executes dans le département de Constantine de 1878 à 1879, imprimerie de Lmarle, Paris,1879.
- 21.Lelong M.H, Le Sahara Aux Cent Visage, Editions Alsatia, Paris, 1945.
- 22.Léon Lehuraux, Le Conquérant des Oasis, Colonel Théodore Pein, Typographie Plon, Paris, 1935.
- 23.leonard Roger, Les territoire du sud d'Algérie (compte rendu de l'œuvre accomplie de 1947-1952), Imprimerie officielle, Alger, 1945
- 24.Mangin. E, Note Sur L'Histoire de Laghouat, Adolphe Jourdan, Libraire Editeur Alger, 1895.
- 25.Marie André, le Père de Foucoudl missionnaire, Toulouse, Paris, 1937.
- 26.Metois, La Soumission des Touareg du Nord 1900-1904, Editions Jacques Gandini, Paris, 1995.

27. Paul Soleillet, Voyage de Paul Soleillet d'alger a l'oasis d'In Salah, Rapport de Chambre commerce d'Alger, Alger, 1875.
28. Philippe Antony, Missions des pères blancs en Tunisie, Algérie, Kabylie et Sahara, T1, Ed Dilen, Paris, 1930.
29. Pual Soleillet, Exploration du sahara Centrale «Avenir De La France En Afrique, Challamel Ainé, Librairé éditeur, Paris, 1876.
30. Voinot. L, Le Tidikelt, Ed imprimerie Typographique et Lithographique , Oran, 1909.
31. Vuillot. P, l'exploration du sahara, etude historique et géographique, Augustin Chalamel edition, edition librairie cloniale, Paris, 1895.
32. Zaccane C.P., Le Commerce du sud, 2 ème Edition, Constantine, Imp de l.Marle, 1876.
33. Eugène Dumas, Le grand désert ou itinéraire d'une caravane, imprimerie et librairie centrales de napoléon chaix, paris, 1848.
34. Eugène Fromentin, Un été dans le Sahara, 3ème édition, Librairie Plon, Paris, 1877.
35. Georges Gorée, Les Amitiés Sahariennes du Père de Foucauld, B.Arthaud, Paris, T 1, 1946.
36. Journal des marches de la colonne expéditionnaire du sud, G. Péliissier (siège et prise de Laghouat) A.M.G décembre 1852.
37. Koyne, Le Mzab, Adolphe Jourdan librairie éditeur, Alger, 1879.
38. Martin AGP, Les Oasis Saharienne, édition de l'imprimerie Algérienne, Alger, 1908.
39. Paul Soleillet, L'Afrique Occidentale «Algarie, Mzab, Tidikelt », Avignon, Imprimerie De F Seguin Ainé, 1877
40. Tillion André, marie joseph, Roger Alfred, Conquête Des Oasis sahariennes au Tidikelt, au Gourara au touât, dans la zouzfana et dans la Saoura en 1900 et 1901, Henri Charles – lavauzlle Édition militaire, paris.
41. Trumlet C, Les Français dans le désert, 2 eme édition, Paris, 1885.

ب. المقالات

42. Charle Féraud, Notes historiques sur la province de constantine, les beni djeleb, sultans de Touggourt, R A, N° 31, 1887.
43. Charles de Foucoud, Le Charles de Foucoud ermite au Sahara, en l'Ami du chargé Paroissial Supplément à Ami du chargé, N° 35, Langens, 1931.
44. Léon Lehuraux, Le Statut Territorial Des Territoires Du Sud De l'Algérie, R A, N° 81, 1937.
45. Charles Feraud, Les Ben-Djellab Sultans de Touggourt, R A, N°23, 1879, Alger.
46. Mangin. E, Notes sur L'histoire de Lagouat, R.A, Alger, N°38, 1894.
47. Mercier Marcel, La vie féminine au M'Zab, R .A, N°69, Opu, Alger, 1928.

48.Voinot. L, La situation sur la Frontière Algérie-Marocaine du tell lors de l'insurrection des Oulads Sidi Cheikh dans le sud-Oranais 1864-1870, Extrait de la R A, N 300, Alger, 1919.

6. الملاحق:

ملحق 01: غلاف الأطروحة. (الأمانة العلمية)



إقليم توات من خلال الموروث النوازلي في العصر الوسيط

من القرن (6 هـ إلى 9 هـ)

The Tawat region through the Nawazli heritage in the Middle Ages From the century (6 AH to 9 AH)

د. عبد الكريم بصدیق: جامعة باتنة 1 (الجزائر)، abdelkarim.bessedik@univ-batna.dz

ملخص:

تعد منطقة توات من بين المناطق التي عرفت بكثرة علماءها وفقهاءها كما كانت مركزاً من مراكز العلم والفتوى في الصحراء في العصر الوسيط فقد شاع في بلاد المغرب الإسلامي تعبير النوازل الفقهية التي تختص بالحدوث والوقوع، فهي أضبط في التعبير من الفتوى التي تشمل سؤال الناس عن الأحكام الشرعية، سواء حدثت أم لم تحدث، وقد انتشرت النوازل الفقهية أئماً انتشار في توات، وأصبح الإقليم موسوماً بها، وبلغ حد شيوخها أن توجه الناس بأسئلتهم إلى العلماء العابرين توات مع ركب الحجيج، فضلاً عن العلماء المستقرين النوازليين.

تلك الحواضر العلمية التي سجلت حضورها في هذا الفقه، تلك الـمجهودات الفقهية الممتدة في عمق تاريخ إقليم توات، فحفظ لنا الحظ من التاريخ المكتوب أسماء لمعت في سماء الإفتاء، وراج ذكرها في نوادي العلم وحقول المعرفة داخل الإقليم وخارجه، من أمثال الإمام المغيلي في القرن 9 هـ ومن أوائل العلماء الذين أثروا الساحة التواتية بعلمهم وفقهم واجتهادهم النوازلية: القاضي أبو يحيى بن محمد المنباري (ت 840 هـ - 1436 م)، وقاضي الجماعة في تمنطيط يحيى بن يدير التدلسي (ت 877 هـ - 1472 م)، والشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني الذي ذاع صيته إثر السجال الحاد بينه وبين الشيخ المغيلي (ت 909 هـ - 1503 م) حول نازلة اليهود وهدم بيعة في توات؛ ومن أشهر النوازل التواتية خلال تلك الفترة: نوازل الغنية - غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل.

كلمات مفتاحية: توات، النوازل الفقهية، الحياة الاجتماعية، المغيلي، المخطوطات، العصر الوسيط

Abstract:

The Tawat region is among the regions that were known for the abundance of its scholars and jurists, as it was a center of knowledge and fatwa in the desert in the middle ages. Whether it happened or not, the jurisprudential calamities spread widely in Tawat, and the region became marked by it, and it reached the extent of its prevalence that people directed their questions to the passing scholars of Tawat with the pilgrims, as well as the settled scholars of the Nawazil.

Those scientific cities whose presence was recorded in this art, the efforts of Nawazli present jurisprudence from the land of Algeria, extended in the depth of the history of the province of Touat, so luck preserved for us from the written history names that shone in the skies of fatwas, and they were mentioned in science clubs and fields of knowledge inside and outside the region

Keywords: Tawat; jurisprudence emergencies; social life, al-Mughili; manuscripts; the medieval era.

. مقدمة:

لا يبدو أن المصادر الإخبارية التي ظلت عمدة الدراسات التاريخية قادرة للإجابة على العديد من الإشكالات التي يثيرها المؤرخ في هذا العصر، ولا سيما عندما يحاول الحفر في البنى الاجتماعية والحياة الاقتصادية، والحركة الفكرية والثقافية ومؤسساتها، ولأنها مرتبطة أكثر بحياة الحكام، وتنقلاتهم، وحروبهم، وصراعاتهم، فإنها نادراً ما تمدنا بمعلومات عن علاقة تلك التنقلات والصراعات بالحياة العامة للمجتمع التواتي، بما في ذلك أنماط العيش وأساليب التفكير ومظاهر الحياة اليومية، كيف كان الناس ينظمون شؤونهم اليومية؟ وما هي طبيعة الصراعات التي كانت تنتاب علاقاتهم؟ ما هي مساهمة الفقهاء في الحفاظ على التوازنات الاجتماعية؟ ما هي حدود تفاعل الأحكام الشرعية مع الأعراف والتقاليد المحلية في منطقة الجنوب الغربي؟ ثم ما العلاقة بين "المسؤولية الجماعية" التي ولدتها الفروض الكفائية وبين "المسؤولية الفردية" التي تضمنتها الفروض العينية، وكيف تجلت هذه العلاقة في الممارسات الاجتماعية؟ وما حصيلتها من منظور الكدح الإنساني والترقي الحضاري؟ وأسئلة أخرى متعلقة بالحياة الاقتصادية من زراعة ومسائل الأرض والمياه والأنظمة الزراعية، وعن الحياة الصناعية وما يرتبط بها من الحرف وتنظيماتها، ومسائل التجارة وما يتفرع عنها من شؤون الأسواق والقائمين عليها، وأصول المعاملات والبيوع والعيوب في المادة المباعة، وتوثيق البيوع في النطاق التواتي؟ وتسؤلات تخص الحياة الثقافية والعلمية ومعرفة ما يتعلق بها من وسائل التربية والتعليم، وعن حياة العلماء وطلبة العلم، والدور الذي اضطلعت به الأوقاف في

تنشيط الحركة الثقافية وعن طبيعة المناقشات العلمية والمطارات الفكرية وعن أشكال التواصل العلمي بين مختلف حواضر المغرب الإسلامي... هي إذن سلسلة من التساؤلات يطرحها المؤرخ على المصادر الإخبارية، لكن تبقى المسافة شاسعة بين تلك الأسئلة وهذه النصوص، وتزداد هذه المسافة شساعة، ويزداد معها صمت النصوص تفاقماً كلما ابتعدنا عن مجال التاريخ السياسي.

وأمام هذا النقص الحاصل في الرصيد الوثائقي والإخباري في تاريخ إقليم توات، وهذا الهم المنهجي، اتجه اهتمام الباحثين إلى مجموعة أخرى من المصادر يحويها التراث الإسلامي لاستكمال المعلومات التي تضيء جوانب عدة من بحوثهم، ويتطلب هذا المسلك الحفر في التراث المخطوط والمطبوع بصبر وأناة والتنقيب بدقة عن النصوص النائية بين أمهات الكتب ولم شتاتها من مظانها الأصلية ثم وضعها في سياقها التاريخي العام، بغية إعطاء التاريخ الاجتماعي والاقتصادي صورته الحقيقية ونفض الغبار عن مناحيه المنسية.

وتتعدد هذه المصادر وتختلف باختلاف طبيعة البحوث المطلوبة، فمنها ما يتعلق بكتب الجغرافية، والأنساب، والتراجم والأدب، والمناقب والتصوّف، ومنها ما يتعلق بالكتب الفقهية، لا سيما كتب النوازل التي اشتهرت في المغرب الإسلامي، واعتماداً على هذه المصادر أمكن إنجاز أبحاث تاريخية ذات قيمة علمية كبيرة، وذلك بعد إعطاء مضامينها أبعاداً تاريخية.

ورغم أن هذا النوع الأخير من المصادر (أي المصادر النوازلية) لا ينتهي من ناحية تصنيف العلوم إلى الحقل التاريخي، إلا أنه يتضمن نصوصاً تاريخية وإيماءات غنية وشذرات قيمة، ناهيك عما يتناثر فيها من وثائق هامة تُعزّز في الحوليات التاريخية التقليدية، ولذلك أصبح الاهتمام بها ضرورياً، فهي تساعد الباحث على النفاذ إلى أعماق الواقع المعيش لسد الثغرات الحاصلة في المصادر الإخبارية، وبالتالي كشف النقاب عن العديد من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية، وربما يعزى ذلك إلى مواكبة كتب النوازل لكل المستجدات

وانشغالها بكل قضية تطفو على سطح الحياة الإسلامية، كل هذا أدى إلى كثرة وتنوع المصنفات النوازية إلى درجة جعلها في بعض الأحيان عبارة عن موسوعات فقهية .

1. خصائص النوازل التواتية :

نحاول الإجابة وتبسيط الأضواء على أمور عدة ، تتمحور حول أثر علم فقه النوازل لدى علماء حاضرة توات من حيث المفهوم والبدائية ورصد المظاهر ، وقبل ذلك بيان مدى اهتمامهم بالدرس الفقهي المالكي، كما يجيب على إشكالية نوعية خواص تلك النوازل في الواقع التواتي ومدى استجابتها لمرتكزات أصول الاستنباط التي يسلكها المفتي في تخریج المسائل وطريقة التكييف الفقهي لديه، انطلاقا من نوازل وتناوى السابقين داخل الحاضرة الفقهية التواتية وخارجها مما خلفه الأعلام في مدرسة الغرب الإسلامي، وهم أهل الرحلة في طلب العلم ، والتواصل بينهم وبين الحواضر العلمية المختلفة بارز للعيان من أمثال بلاد قام وتلمسان والجزائر العاصمة ، ومصر وبلاد التكرور ... الخ ثم إلى أي مدى استعانوا بتلك النصوص والإجابات المشابهة النظرية، وهل اعتبروها مصادر أساسية بنوا عليها إجاباتهم أم مصادر تقوية تنوية فقط؟ خصوصا وقد عرفوا بمسائل ومفردات فقهية خاصة، ثم إلى مستوى ارتبطوا بأصول الفقه عامة، وأصول المذهب المالكي خاصة.

وقد بدت معالم هذا الفن – أصول الاستنباط - بارزة للعيان في رفوف خزائهم من أمثال مصنف الورقات وشرحه للحطاب ، وقواعد المذهب للمنجور... الخ ، فهل يعكس هذا المظهر مجرد الدراسة النظرية لتلك المصنفات مما هو من مقررات تلك المدارس والفعالس العلمية التي تصبوا في كل جهة من جهات إقليم توات منذ القرن السادس الهجري وما قبله تركت آثارها خارج الإقليم من بلاد السودان الغربي وغيره في روح تحاكت إلى التقليد والمحاكاة، أم أن ذلك الأثر تعدى إلى الاستفادة من تلك المؤسسات - التي تعد أساسية للمفتي – الإجابة على دواهي وملامات حركة بمجتمعهم احتاجت لبيان الحكم الشرعي، من قضايا مياه الفقارات

ونضاءاتها والأحباس والزواج.. الخ مما استجد في واقع الفرد الجزائري التواتي في بيئة ذات الخواص الفكرية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يعكسها ما عرف محليا آنذاك بنظام أو حكم الجماعة .

1.1. جرد لاهم مؤلفات فقه النوازل بتوات في العصر الوسيط :

شاع في بلاد المغرب الإسلامي تعبير النوازل في مقابل التعبير الشائع في بلاد المشرق الإسلامي وهو لفتاوى أو المسائل، غير أن النوازل تختص بالحدوث والوقوع، فهي أضبط في التعبير من الفتوى التي تشمل سؤال الناس عن الأحكام الشرعية، سواء حدثت أم لم تحدث، وقد انتشرت النوازل الفقهية أيما انتشار في توات، وأصبح الإقليم موسوماً بها، وبلغ حد شيوعها أن توجه الناس بأسئلتهم إلى العلماء العابرين توات مع ركب الحجيج، فضلاً عن العلماء المستقرين النوازلين، ومن أوائل العلماء الذين أثروا الساحة التواتية بعلمهم وفقهم واجتهادهم النوازلية: القاضي أبو يحيى بن محمد المنياري (ت 840 هـ - 1436 م)، وقاضي الجماعة في تمنطيط يحيى بن يدير التدلسي (ت 877 هـ - 1472 م)، والشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني الذي ذاع صيته إثر السجال الحاد بينه وبين الشيخ المغيلي (ت 909 هـ - 1503 م) حول نازلة اليهود وهدم بيعة في توات (بلعالم، 1988: 45).

إن الحديث على النوازل كفقه تطبيقي عملي - في نظرنا - لا يتم إلا بعد الحديث على الفقه النظري عموماً أعنى الفروع الفقهية لما بينهما من علاقة العموم والخصوص فيجتمعان في معرفة أحكام الوقائع الفرعية العملية ويختلفان من حيث أن الفقه يشمل الأحكام العملية الفرعية واقعة أو مفترضة مقدرة جديدة الحدوث أو قديمته وأحكامه نظرية، بينما فقه النوازل يخص الأحكام الفرعية المستجدة عملية أم لا، فكما يختص بالأمور الفرعية العملية، يشمل غير العملية من بيان نوازل العقلية والأمور الفكرية وحتى اللغوية والأدبية أحياناً إضافة إلى كون معالجاته تطبيقية واقعة بالفعل، وفي كل ذلك يبقى الفقه مقدمة لفقه

النوازل وأساسه ، فالتمكن منه مؤهل من مؤهلات الإفتاء مما يسمى معرفة الفروع الفقهية للسابقين ، التي تعد من مواصفات المفتي ، وهذا ما جعلنا نخصه أولا بالبيان ، وذلك في ما يأتي (جعفري: 2009: 41).

1.2. أهمية النوازل بتوات :

الفقه وحركته في إقليم توات بما يشمل الفقه النظري المتمثل في الاهتمام بمصادر الفقه المذهبي والنوازل أيضا .

- الفقه التطبيقي - لا يمكن الحديث عن بدايته ورصد مظاهره ونشاط علمائه قبل الحديث ولو باختصار على المصدر والأساس وهو الإسلام ، نمتى وفي أي مرحلة من التاريخ دخل الإسلام هذا الإقليم البعيد المترامي الأطراف ؟.

إن المصادر لا تسعف الباحث في تحديد تاريخ دقيق لبداية ظهور الإسلام بالإقليم ، نتيجة الاختلافات الواردة حول بداية عمارة هذه البقعة من العالم ، إضافة إلى حقيقة ما تثبته بعض الروايات مفادها اعتناق أهله للإسلام ثم التراجع عنه في بعض الفترات ، لكن القدر الواضح من تلك المعلومات التي لا غبار عليها ، أن ظهور الإسلام في هذه البقاع من المغرب مما يشمل الإقليم ، بدأ يفتح عقبة بن نافع الفهري رضى الله عنه بلاد المغرب (البكري، 2007: 80). يقول العالم التواتي بن المبروك : إن أول من غزا بلاد المغرب أبو المهاجر ، وبلغ تلمسان ودوخ قبائل البربر إلى أن أسلموا وأسلم أميرهم كسيلة ، ورجع عقبة إلى درعه وسجلماسة وتوات وأسلم أهل تلك الأقاليم كلها .

ومعنى هذا النص ومستفاده ، أن تاريخ ظهور الإسلام بإقليم توات هو تاريخ ظهوره بهذه الأقاليم المغربية سواء ارتبط الأمر بدرعة وسجلماسة بالمغرب الأقصى ، أو تلمسان وبلاد الأوراس بالمغرب الأوسط حيث نزول أبو المهاجر ، ومعناه حسب هذه الرواية أن معرفته بالإسلام لا تتجاوز سنة تولية عقبة بن نافع رضى الله عنه شؤون المغرب في المرة الأولى سنة "

46 هـ/666م. ومن المصادر من تشير إلى رجوع أهله عن الإسلام إلى النصرانية التي عرفها إبان حكم جريجوريوس حاكم إفريقية آنذاك، ولكنهم عادوا بعد هزيمة الكاهنة على يد الفاتح حسان بن النعمان رضى الله عنه واستقروا على الإسلام (الجيلالي، 1979: 169).

ويحتمل أن يكون الإقليم فتح في رجوع عقبة بن نافع للمغرب ثانية فقد دخل رضى الله عنه إفريقية في المرة الثانية سنة 62 هـ، ووجد الردة قد انتشرت في ربوع القبائل الزحف إليهم إلى أن وصل إلى البحر المحيط. خصوصا وإفريقية عموما عرفت الاضطرابات وشاعت الردة فيها، ما جعل بعثات الفاتحين متعددة في تاريخ إفريقيا، ولم يثبت أمرها في هذا الشأن إلى أن بسط بنو أمية نفوذهم في المغرب وإفريقية " (ابن خلدون، 1986: 170).

كما أن تأريخ ظهور المذهب المالكي في إقليم توات، قد لا تعثر على نص يحدد بشكل قطعي واضح تأريخ دخول المذهب المالكي لإقليم توات، ومن خلال ما اتضح في الفرع السابق حول تأريخ دخول المذهب للمغرب، ينسحب على الإقليم التواتي، ما يعني أن الأثر للمذهب المالكي في إقليم توات قديم متقدم (عياض، 2001: 15).

وتوات قديمة في الحراك العلمي، وعليه نما شمل مناطق الحواضر الأخرى من القيروان والقرويين وبجاية وتلمسان والجزائر الخ يشملها في اختيار مذهب مالك وفي تاريخ ارتباطها به، وفي هذا السياق يأتي نص القاض عياض المشير إلى غلبة المذهب المالكي على مذهب الكونيين في القيروان على عهد الدولة العبيدية التي بلى فيها أهله البلاء الحسن قائلا: " وسائر بلاد المغرب مطبقة على هذا المذهب مجمعة عليه لا يعرف لغيره قائم ومن ثم عرف حركة نشر للإسلام والمذهب المالكي الذي لم يعرف غيره، تم هذا النشاط من قبل القبائل الوافدة إلى الإقليم منذ الفتح الإسلامي للمغرب العربي إلى نهاية القرن 13 هـ، بفضل ما أنشئ من مساجد وزوايا بهدف القيام بالوظائف المتعددة، من تعليم للقرآن، ونشر للعلوم الشرعية وإصلاح ذات البين بين الناس (حوتية، 2007: 38).

ويذكر الباحثون أن أقدم مسجد وعته المصادر، مسجد شيد بقصر تيلوت بتمنظيط، البلاد التي لا يستغنى عنها آنذاك عالم ولا زاهد " يحمل محرابه تأريخ سنة 106 هـ.

كما ظهرت بالإقليم المدارس القرآنية وحلقات الدرس الشرعي : خلال جهود علمائه في تأسيس الزوايا . الخاصة عامة والفقهي، من وحسب ما وعته المصادر التاريخية أن الشيخ مولاي سليمان بن علي، معد مؤسس أول زاوية بالإقليم للتعليم والإطعام في القرن 06 هـ (585 هـ). وكان تاريخ نزوله سنة 580 هـ * 1184 م ، فكانت هذه النواة - زاوية مولاي سليمان بن علي رحمه الله - بهذا النوع من التعليم من الزوايا التي جمعت بين الإيواء والإطعام والتعليم في مستوياته الدنيا والمتوسطة والعالية، ولعل ما دعاه لذلك، ما وجد عليه السكان من إدراك لأهمية طلب العلم المتأصلة فيهم، فتراهم يحرسون على توجيه أبناءهم لهذه المدارس، يدخلونهم الكتاتيب منذ نعومة أظافرهم، ليتعلموا الوحي القرآني، وليتدرب معهم المعلم في العلوم كما هو الشأن في طريقة التعليم ببلاد المغرب عامة (ابن خلدون، 1986: 552).

فكانت هذه الزاوية بحق مركز علم للطلبة ، وملجأ خيارى السائلين مما نزل بهم من القضايا والدواهي، ولم تشر المصادر المتاحة بين أيدينا إلى أسماء علماء فقهاء معينين لتلك الفترات التي سبقت تأسيس أول زاوية، أو الكشف عن مستواهم العلمي ومؤلفاتهم الفقهية، سوى الإشارة العامة إلى ، فضلا عن وجود مكتبة حوت تأليف متعددة العناوين والاختصاصات " . فترات قريبة من القرن العاشر الهجري ، كالثامن والتاسع مما يدخا اسم زاوية الغريب ، وزاوية عيسى ، وزاوية سيدي الحاج بأدغاغ (الصدیق، 2003: 55).

ويمكن اعتبار نماذج أعلام من منطقة تيميمون بداية متقدمة لما عرفه الإقليم في القرن العاشر الهجري الآتي الحديث عنه (التنتالي، مخطوط: 23).

نسجل من المصادر اسم سيدي عبد الرحمان العبدلاوي المنتمي للمركز العلمي بأولاد اسعيد ، والعالم سيدي موسى بن المسعود في القرن الثامن الهجري 14 م.

كما أن هذه المصادر أيضا تقرر أن العلماء في هذه المراحل الأولى منذ الفتح الإسلامي أثروا المكتبة العلمية في مجالات الفقه والتفسير واللغة. وإن كانت المصادر التي تتحدث عن النشاط الفعلي القوي والبارز للحركة الفقهية خاصة والعلمية عامة تبدأ التأريخ لتلك الحركة من القرن التاسع الهجري فترة دخول أئمة أعلام لإقليم توات، ممن أسهموا في تنشيط الدرس الفقهي ممن وند قبل من شيوخ المغيلي كالتدلسي" وغيره الوافد على الإقليم سنة 845 هـ 1441 م، ومن جاء بعدهم كالشيخ الفقيه المغيلي صاحب التصانيف الفقهية المفيدة والنوازل الجريئة، المستوطن والمستقر بداية بقرية الشيخ عبد الكريم البليالي، بقرية بني تامرت.

2. مكانة التراث النوازي في المعرفة التاريخية بتوات :

تظهر لنا أهمية الموروث النوازي من خلال الشيخ الفقيه عبد الله بن أبي بكر العصنوني، مناقش ومثري باكورة النوازل في العصر الوسيط من خلال ما أبداه من خلاف حول نازلة يهود توات ومن هؤلاء العلماء الفقهاء الوافدين، الشيخ ميمون بن عمرو الفاسي حل بالإقليم في القرن التاسع الهجري، المشتهر بأول من أدخل مصنف مختصر الشيخ خليل الفقهي"، الذي عول عليه من قبل فقهاء الإقليم، فكان مصدر تدريس وإنشاء، وكتب النوازل التوائية عيال على أقواله في الاستدلال والتوجيه النوازي.

ورغم أن المصادر لا تسعف يمكن القول : إن الحركة الفقهية قديمة بهذا الإقليم في هذه الفترة التي تسبق القرن 09 هـ" وذلك للأدلة التالية:

- إن المصادر التي تتحدث عن النشاط التعليمي والفكري بالإقليم، تقرر أن توات منذ تاريخها الإسلامي المبكر، كانت منارة علم.

ومن الأدلة على ذلك مساهمتها في مد السودان الغربي بالثقافة والحضارة العربية الإسلامية من قبل العلماء والفقهاء منذ القرن الرابع الهجري.

- الدور البارز للزوايا التي أنشأت في القرن 06 هـ ، كزاوية مولاي سليمان بن علي ، والتي اضطلعت برسالة التعليم الشرعي عامة والفقهية خاصة والإجابة على النوازل المطروحة من واقع المجتمع ، كما أشارنا إلى ذلك سلفا - واستمر أمر التأسيس لتلك الزوايا بعد القرن السادس الهجري ، فأنشأت زاوية سيدي الحاج لحسن الشريف بقصر تنتور بتيميمون من قبل الشيخ المذكور في القرن الثامن الهجري ، تلتها زوايا في أحمد الغريب القرن التاسع الهجري ، كزاوية سيدي أعمر بتينكرام ، بشروين ، من قبل الشيخ سيدي أ ، وزاوية سيدي عباد بسيدي عيسى ، بشروين المؤسسة من قبل الشيخ سيدي عباد ، وزاوية سيدي موسى والمسعود يتسفاوت ، بأولاد عيسى ، تيميمون ، من قبل الشيخ المذكور إلى غير ذلك ، استمرارا إلى الزمن المعاصر (ابن بابا حيدة، 1977:14).

وكلامه رحمه الله قد يصدق عليه الإشادة بالمستوى العلمي الممتد إلى قرون علمية مضت ، كما يصدق عليه سياق الإشادة بمستوى من وجده واستفاد منه ممن سبقه ، كشيخه سيدي يحيى بن يدير التدلّسي، والشيخ ميمون (ت 890 هـ - 1484 م) الوافد إلى الإقليم سنة " 809 هـ 1407 م " وغيرهم .

ومن خلال ما سبق ، يجزم أن الحركة الفقهية قديمة في الإقليم ، تمتد إلى ما قبل القرن الرابع الهجري ، خصوصا وقد أشرنا إلى أن المغرب عرف المذهب المالكي منذ القرن الثاني الهجري بفضل تلامذة مالك رحمه الله المؤسسين ومعناه أن ارتباطه به ، يأتي متقدما قد يكون في القرن الثاني الهجري - والله أعلم - وما أثر الشيخ مولاي سليمان بن علي في القرن " 06 هـ " مؤسس أول زاوية ، إلا صورة من ذلك التواصل العلمي لقرون علمية مضت

وإن كانت المعلومة المتاحة بين أيدينا الآن شحيحة من حيث صورة هذه الحركة في مرحلة ما قبل القرن 06 هـ وما بعده إلى القرن 09 هـ ، مما يستدعي السؤال ، عن واقعها قبل

ذلك ؟ ما مستواها في الميزان الفقهي ؟ ما أهم أعلامها ؟ أسئلة قد تجيب عنها إن شاء الله :
مجهودات البحوث المستمرة في تاريخ منتوج علماء توات عامة وتاريخ المذهب المالكي خاصة .

3. إقليم توات وبوادر الحركة الفقهية من القرن 09 إلى القرن 13 هـ:

لقد عرف الفقه وبالحصر الفقه المالكي ازدهارا في الإقليم ، إذ لم تعرف المنطقة غير مذهب مالك من حيث المادة الأساسية في التدريس والتفقيه في المدارس العلمية والإفتاء ، وفي مجال تنظيم شؤون المعاملات المختلفة عن طريق حركة القضاء ، الذي كان يشترط في القاضي إلى جانب قوة علمه وحسن سيرته ومعرفته بأعراف المجتمع تمذهبه بمذهب مالك رحمه الله (نياني، 1988: 971).

وعليه ، فمجهوداتهم المختلفة التدريسية والتأليفية الفقهية، حسب ما يظهر من مؤلفاتهم لم تعرف غير هذا المذهب المالكي، مع اطلاعهم واستفادتهم أحيانا من المذاهب السنية الأخرى .

ثم إن المصادر تكشف لنا عن مستوى حراك فقهي كبير لإقليم توات بداية من القرن التاسع الهجري ، وإن شهد بعض التراجع خلال القرن العاشر الهجري ، تراجعا يبدو غير غريب لأن الإقليم تأثر بالضعف الحاصل آنذاك في العالم الإسلامي ؛ لاقتصار الناس على المختصرات ، وركونهم إلى التقليد " ، إضافة إلى الأوضاع السياسية المرتدية التي تركت الأثر على الحياة الثقافية عامة .

هذا التراجع وسيبه أكده مؤرخو الإقليم ، كصاحب درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام أن تحدث على شخصية تعد من خواتم فقهاء القرن التاسع الهجري ، الشيخ ميمون (ت 890 هـ 1484 م) . ، قائلا: واعلم إن آخر هذه المائة التاسعة تبدلت الأمور وظهرت الشرور ، وانطوى كثيرا من محاسن العمران ، وانسحب على جل الناس جلباب الذل والهوان ، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعاليم ، وفي صدر المائة العاشرة، ظهرت أمور عظام ، منها

ظهور أجناس الإفرنج بالديار المغربية واستلام على ثغورها بما لم يعهد مثله قبله (البوعبدلي، 1986: 84).

ومع هذا لا تعدم أنشطة لفقهاء في هذه الفترة من القرن العاشر الهجري ، وما إن دخل القرن 11 هـ حتى رجع العهد إلى سالفه وبلغت الحركة الفقهية النوازلية توما في القرون 12 و13 هـ إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري .ق 20 م (سعد الله، 1988: 32).

هذا المستوى من النشاط العلمي عامة والفقهي على وجه الخصوص، يمكن تحديد مظاهره ومستواه في ما يلي :

4.مسألة نازلة يهود توات :

وحول الوضعية الدينية لليهود تشير النصوص النوازلية في «المعيار» إلى وجود بيع يهودية في بلاد المغرب ومنها بيعة في مدينة توات (الوزان: 151، 2002)، وكان اليهود يؤدون شعائهم الدينية من دون مضايقة من المسلمين، خاصة وأن هذه «البيع» وجدت من عهود قديمة، بالإضافة إلى أن الفقهاء المغاربة أفتوا بأن الوفاء لأهل الذمة واجب وأباحوا لكل طائفة منهم بناء بيعة واحدة لإقامة شريعتهم، ولكنهم منعوهم من دق النواقيس (الونشريسي، 1986: 215).

لكن اليهود كانوا -غالبا- يستغلون تسامح المجتمع الإسلامي معهم، فيفرضون صولتهم حينما يحسون بضعف السلطة السياسية داخليا وخارجيا، فيتواطئون مع بعض الأمراء على مدهم بالمال والرعاية لهم بل وتوليمهم، مقابل تغاضي أو سماح هؤلاء الأمراء لهم ببناء «البيع»، وفتح المتاجر وتأسيس الشركات والاستيلاء على الطرق التجارية (سعد الله، 1998: 54). وبذلك نكثوا بما التزموا به من عهود ومواثيق.

وأصل المشكلة هو أن بعض المسلمين من «توات»، قد انتبهوا إلى ما وصل إليه حال اليهود القاطنين في المنطقة من التعالي والطغيان فأنكروا عليهم سلوكهم، ومخالفتهم للقوانين، وللترايب التي حددها لهم الفقهاء المسلمون، على مر العصور، وتفاقت الأزمة بعد أن شيد أولئك السكان من اليهود، دور جديدة لهم للعبادة في «تمنطيط»، وقد أثار هذا الخبر ثائرة عدد من الفقهاء، الذين اعتبروا تشييد معبد جديد، مخالفة صريحة للشريعة التي تسمح للذمين بإصلاح معابدهم القديمة فقط، وتحظر عليهم بناء معابد جديدة، غير أن بعض العلماء المحليين، وعلى رأسهم قاضي توات «أبو محمد عبد الله بن أبي بكر العصنوني»، خالفوا أولئك الفقهاء وقالوا: إن اليهود ذميون، لهم ما لأهل الذمة من الحقوق المنصوص عليها في كتب الفقه، وقد احتج كل فريق بأحاديث نبوية، وبأقوال السلف من الأئمة والفقهاء، غير أن كلا الفريقين لم يقو على فرض آرائه، وعلى استمالة عامة الناس إليه، وكان في مقدمة الناقمين على اليهود، الفقيه «محمد بن عبد الكريم المغيلي» (ابن خلدون، 1986: 118)، الذي اشتهر هذا الفقيه بنشاطه، ومواقفه في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفي نشر تعاليم الإسلام ببلاد الزنوج (ابن مريم، 2007: 254)، فأصدر فتوى في حق اليهود (المغيلي، 2005: 11). القاطنين في مدينة «توات» وفي بعض مدن الشمال الإفريقي، أكد من خلالها أن سيطرة اليهود على عموم نواحي الحياة في تلك الديار، وبخاصة النواحي الاقتصادية (بونار، 1975: 211)، يتنافى مع مبدأ الذلة والصغار التي اشترطها الإسلام مقابل حمايتهم وعيشهم بين ظهرائي المسلمين، وعليه فإن هذا التفوق لليهود وإمساكهم بزمام السلطة من خلال سيطرتهم على التجارة، وأرجع «المغيلي» هذا الدور إلى تساهل المسلمين معهم، حيث كانوا يقربونهم من النفس والعقل ويستعملونهم في الأعمال، وبذلك -في رأي المغيلي- فإن اليهود تجاوزوا الأحكام الشرعية بشراء ذمم الحكام يستوجب -في نظر هذا الفقيه- محاربتهم وهدم بيعةهم وكسر

شوكتهم ليعودوا إلى الذل والصغار(المغيلي، 2005: 79)، وقد أثارت هذه الفتوى، من قبل «الإمام المغيلي»، ردود فعل كثيرة في أوساط معاصريه من العلماء بين مؤيد ومعارض، بل وصلت أصداء هذا الجدل إلى المشرق الإسلامي(المغيلي، 2005: 28).

ولما اشتد الخلاف بين الفريق المناصر «للإمام المغيلي»، والفريق المعارض له، راسل كلا الفريقين كبار فقهاء العصر في تلمسان، وفي فاس، وفي تونس، يستفتيائهم في القضية، وكان كل فريق يأمل تأييد موقفه ضد موقف الفريق الآخر، المتهم بمخالفة تعاليم الشريعة.

وقد ساهم «الونشريسي» صاحب المعيار المعرب في هذا النقاش الفقهي وكان من الداعين إلى وجوب هدم كنائس اليهود بتوات، واعتبر بعد إيراد مختلف النصوص واجتهادات الفقهاء «أن ما أحدثه ملاعين اليهود من الكنائس بالقصور التواتية وغيرها من بلاد الجريد المسامنة لتلول للمغرب الأوسط لا تقر بل تهدم»(الونشريسي، 1986: 235). كما أنه جمع في «المعيار» مختلف الفتاوى التي تلقاها الفريقان، وقد انقسم أصحاب الأجوبة من الفقهاء إلى مؤيدين «للمغيلي»، وإلى مخالفين لموقفه، غير أن أغلبية الفقهاء الذين قصدهم الفريقان أفتوا بتأييد موقف الإمام «المغيلي» بوجوب هدم بيع اليهود في توات، ومن الذين انتصروا له الفقيه «محمد بن يوسف السنوسي» و«محمد التنسي» و«أحمد بن زكري» (مفتي تلمسان) بالإضافة إلى مفتي فاس "أبو مهدي عيسى الماواسي" وغيرهم من الفقهاء.

ويتضح أن «المغيلي» لم يتخذ هذا الموقف إلا بعد أن رأى ما عليه اليهود «من التعدي والطغيان والتمرد على الأحكام الشرعية، بتولية أرباب الشوكة أو خدمة السلطان»(المغيلي، 2005: 27).

فالمسألة إذن ليست دينية كما فهمها من أراد المس بالدين الإسلامي وبأهله لرميهم بالتعصب وضيق الأفق، ولكنها مسألة سياسية بالدرجة الأولى، ذلك أن اليهود (وأهل الذمة

عامة) اغتنموا فرصة الضعف السياسي والاقتصادي للسلطة في المغرب الإسلامي وراحوا يستعملون حيلهم ونفوذهم في شؤون المسلمين وفي صميم الحكم نفسه، لذلك ألف المغيلي رسالة في الموضوع، تناول فيها ما يجب على المسلمين في تعاملهم مع الكفار وما يلزم أهل الذمة، وعن الخطر الذي يشكله اليهود في عصر المؤلف (سعد الله، 1998: 53).

كما أن اليهود على وجه العموم نكثوا بما التزموا به من عدم تقليد المسلمين في زيهم وزينتهم، فصاحب «تحفة الناظر» القاضي «العقباني» في إحدى فتاويه يذكر أن « ما يفعله اليهود اليوم في الأسفار من ركوب الخيل والسروج الثمينة ولبس فاخر اللباس والتحلي بحلية المسلمين... والتعميم بالعمائم، فمحظور شنيع، ومنكر فظيع، يتقدم في إزالته بما أمكن، وربما يجعلون لذلك محلا زعمهم أنهم يخافون على أنفسهم وأموالهم إن ظهر عليهم زيهم الذي يعرفون به، وهم في ذلك كذابون، لما شاهدنا من حصول الأمن القوي لهم عند العرب والحضوة الكبيرة لما يرجون من حصول النفع منهم» (الونشريسي، 1986: 248).

خاتمة :

- استقلال مشايخ وفقهاء توات في الفقه النوازي وابتعادهم عن التقليد في كل شيء أثناء الإجابة على فروع فقهية واقعية جعلهم يخالفون مشهور المذهب أحيانا، واتضح ذلك في فروع عدة كالإفتاء ب.... إلى غير ذلك انطلاقا من مدارك استنباط ثوية ظاهرة ترتبط بالمصلحة والعرف... الخ من الأصول، وإن وافقوا فيها أحيانا ما تم الأخذ به في حواضر علمية كالأندلس وناس وإفريقية، موافقة راجعة للتشابه بين هذه المجتمعات التي يجمعها إقليم واحد المتشابه في التركيبة الجغرافية والأعراف والعوائد الاجتماعية مما قد يجعل المبررات متشائمة لا تبعا لغيرهم فيها. الخامسة عشرة: فقه النوازل لدى حاضرة توات إجاباته لها دواع واقعية ومستنداته مدارك خاصة، فهم لم يحاكموا غيرهم ولم يقلدوا وإنما مارسوا الفتوى عن جدارة واستحقاق.

-أصل ما جرى به العمل استفاد منه نوازيو توات وكيفوا قضايهم ! وفقا لمقتضياته ، خصوصا والمرونة مواكبة لهذا الأصل . السابعة عشرة : قدرة الشيخ البلبالي على مواكبة المستجدات من خلال ما اعتمده من أصول للاستنباط في تكييف وقائع زمانه ومن خلال مناقشة أقوال وآراء السابقين من متقدمين ومتأخرين.

وهو ينزل الوقائع ، تجعله في درجة من درجات المجتهدين داخل المذهب المالكي الخاصة مستوى مشايخ توات واضح من حيث القدرة على الاختيار لبعض المسائل ولو جاء ذلك على خلاف المشهور في المذهب انطلاقا من مدارك رماها ، كمسألة تأخير الزكاة عن وقت الوجوب ، وإخراج بعض الأنواع من الزكاة عن غيرها مراعاة لحال فقراء توات ، ومثل ذلك القول بتعدد المطالع وتكذيب القول بثبوت الشهر عن طريق الدبش ، ومنه القول بوجوب الزكاة في الأوراق النقدية التي ظهرت على عصره ، .. الخ مما كشف عن استحضاره لقاعدة مراعاة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال.

قائمة المراجع:

- 1) ابن بابا حيدة(1979)، القول البسيط في اخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج ، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- 2) ابن خلدون، عبد الرحمن ،العبر وديوان المبتدا والخبر ،(1986) ،ج7: دار الكتاب اللبناني.
- 3) ابن مريم التلمساني (1927)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر: المطبعة الثعلبية.
- 4) أنظر أبو القاسم سعد الله (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، 1500 1380 مد 1 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي
- 5) البكري، عبد الحميد،(2007)النبة في تاريخ توات واعلامها من القرن التاسع الهجري الى القرن الرابع عشر الهجري، ط2،، الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع
- 6) بلعالم، محمد باي(1988)، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات الجزائرية وحضارتها، من أعمال المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ منطقة أدرار، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
- 7) البوعبدلي المهدي(1986،)،أضواء على تاريخ مدينة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية اليهود، مجلة الثقافة، سنة16، العدد94،جويلية أوت.
- 8) التتلاني عمري عبد القادر المهداوي، الذرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، محفوظ بخزانة الوليد بن الوليد، بابعيد الله، أدرار، ورقة رقم.23
- 9) جعفري، أحمد أبا الصافي(2009)، من تاريخ توات أبحاث في التراث، ط1، ، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- 10) الجيلالي، عبد الرحمن(1979) بتاريخ الجزائر العام، ،بيروت/لبنان،ج1: دار الثقافة
- 11) حوتية محمد(2007)، توات والأزواد، ج1، ط1، ، الجزائر: دار الكتاب العربي
- 12) رابح بونار،(1968) "مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، ، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

- إقليم توات من خلال الموروث النوازي في العصر الوسيط من القرن (6 هـ إلى 9 هـ) د. عبد الكريم بصدیق
-
- 13) زبادیه، عبد القادر (1975) التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي، بعض آثاره وأبحاثه في الجنوب الجزائري وبلاد السودان، مجلة الأصالة، العدد: 26، جويلية/ أوت .
- 14) الصديق الحاج أحمد (2003)، التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11 الى القرن 14هـ/ 17م الى 20م، ط1، أدرار،: مديرية الثقافية لولاية أدرار
- 15) القاضي عياض، (2001) ترتيب المتدارك وتقريب المسالك، ج 1 : دار الكلمة للنشر والتوزيع
- 16) نياني ج-ت وآخرون، تاريخ إفريقيا العام، مج4 إفريقيا من ق12 إلى 16م) اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1988،
- 17) الونشريسي ابو العباس احمد (1986)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، المملكة المغربية، منشورات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف .

التراث الصوفي في الصحراء

مخطوط "جواب الفقيه الصوفي ابن أبي محلي على سؤال قاضي قورارة" نموذجاً

Sufi heritage in the desert

The manuscript "Answer to the Sufi jurist Ibn Abi Mahali to the question of Qadi of Gourara" as a model

أد. عبد الرحمان بلّاغ: جامعة طاهري محمد- بشار (الجزائر)، bellagh.abderahmane@univ-bechar.dz

د. مقصودة محمد: جامعة طاهري محمد- بشار (الجزائر)، mohammed.maksouda@univ-bechar.dz

ملخص:

يهدف البحث إلى دراسة شكل من أشكال التواصل بين علماء توات والساورة، في مطلع الفترة الحديثة، ممثلة في رسائل الأسئلة والردود عليها، سيما في المجال المعرفة الصوفية، مما يبرز طبيعة العلاقة بين توات والساورة، ورغبة المريد في معرفة ما شكل عليه من القضايا بسؤال الشيخ. تبين من خلال الرسالة والجواب، مدى التقدير الذي يحظى به الطرفان، سيما مكانة ابن أبي محلي في بلاد القبلة، سواء من حيث إنتاجاته الأدبية، ومكانته العرفانية أو نشاطه السياسي؛ كما يفصح السؤال عن رغبة "علماء توات" الانخراط في سلك التصوف وفك رموزه العرفانية؛ فضلا عن انتشار مصنفات المتصوفة في توات منها مؤلفات الشيخ زروق. وتمثل المصطلحات العرفانية التي يحملها السؤال وإجابات ابن أبي محلي عن مدى عمق هذه المعرفة والثقافة الصوفية في المنطقة. كلمات مفتاحية: التصوف؛ العرفان؛ توات؛ قورارة؛ الساورة؛

Abstract:

The research aims to study a form of communication between the scholars of Touat and Es-Saoura at the beginning of the modern period, represented by letters of questions and answers to them, especially in the field of Sufi knowledge. This highlights the nature of the relationship between the two parties and the disciple's desire to understand complex issues by consulting the sheikh.

The letter and the answer reveal the extent of the esteem in which both parties were held, especially the status of Ibn Abi Mahali in the country of the Qibla, whether in terms of his literary productions, his secular status, or his political activity; the question also reveals the desire of the 'scholars of Touat' to engage in Sufism and decipher its secular codes, as well as the spread of the works of Sufis in Touat, including the works of Sheikh Zarrouk. The terminology of the question and Ibn Abi Mahali's answers represent the depth of Sufi knowledge and culture in the region.

Keywords: Sufism; Irfan; Touat; Gourara; Es- saoura.

1. مقدمة:

يمثل التراث المخطوط قاعدة أولية للإنتاجات المعرفية التاريخية، ولذلك يُعد الاشتغال عليه تدوينا وفهرسة وصيانة وتحقيقا وقراءة إضافة علمية قيّمة، وعليه سعينا إلى تقديم مخطوط "جواب الفقيه الصوفي ابن أبي محلي على سؤال قاضي جورارة" المكونة من سبعة عشرة لوحة، وهو جواب عن سؤال طرفاه مختلفان مكانيا، لكنهما عاشا نفس الفترة التي عرفت اهتماما كبيرا بالتصوف ومصنفاته، وهي مطلع القرن الحادي عشر للهجرة (17م).

جواب ابن أبي محلي نافذة نقرأ من خلالها الوضعية الثقافية والعلمية والأدبية لتلك المرحلة، ونتبين من مفرداته طبيعة العلاقة القائمة بين تجوارين كحاضرة من حواضر توات، وسجلماصة من حواضر المغرب السعدي، فرغم البعد الجغرافي وصعوبة المسالك بين الحاضرتين إلا أن الفعل التواصلي ظل قائما في أشكال عدة منها التراسل.

سنحاول في هذه الورقة تقديم المخطوط من خلال معالجة مضمون المخطوط، ونتبين إلى أي مدى وفق ابن أبي محلي في الإجابة على سؤال قاضي قورارة؟

أولا: تقديم المخطوط

تسمية المخطوط: المخطوط الذي نحن بصدد تقديم قراءة له، من مخطوطات خزانة سيدي أحمد ديدي البكرية بتمنطيط، ولاية أدرار، الجزائر، المخطوط لا يحمل عنوانا صريحا، فقد أضيف له ورقة مرقونة تعريفية من تحرير صاحب الخزانة في أعلاها نجد العنوان التالي: "جواب ابن أبي محلي على سؤال في المعرفة بالله سألّه إياه قاضي تجرارين" محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الوطاسي المريني نسبا الجراي دارا، جاء فيه: (الفقيه النبیه السيد الوجیه قاضي الجماعة وشيخ الجماعة أبي عبد الله سيدي محمد عبد الله بن عبد الكريم بن أحمد الوطاسي ثم الجراوي... قد انتهى إلينا مكتوبكم الأثير يوم الخميس غرة ربيع الأول المنير سنة خمس وعشر مائة وافية الحمد لله العلي الكبير) (ابن أبي محلي، مخطوط: 2).

المخطوط كما هو واضح، جواب الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله بن القاضي بن أبي محلي السجلماسي العباسي (ت 1022هـ / 1612م) عن سؤال وصله في الفاتح ربيع الأول عام 1005هـ / 1596م، وهو في صحبة شيخه الزعري، لصاحبه قاضي الجماعة بتمنطيط محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الوطاسي الميرني نسبا الجراري، والنسخة التي بين أيدينا تعود لتاريخ 02 شوال 1024هـ / 1615م، من خط أحمد بن محمد. لكن السؤال المطروح هل الجواب دونه ابن أبي محلي في فترة قريبة من تاريخ وصول رسالة السؤال، أم أنه تأخر في الرد؟ تفيدنا عبارة وردت في نص الجواب، أن المستفتي منه تأخر في الجواب، بدليل أن القاضي راسله كم من مرة حول نفس الموضوع، إذ يقول: (لقد حملتني برسالتك المتكررة على الجواب حملا ثقيلا، لم أجد بدا من مساعدتك) (ابن أبي محلي، مخطوط: 6)، لكن المخطوط لم يحمل لنا إشارة عن تاريخ إرساله للجواب.

صورة المخطوط: الخط الذي كتب به مغاربي، عدد الأوراق "لوحاته" 17 لوحة، على وجهين، بدليل أن الوجه الزوجي يحمل كلمة الوجه الفردي، عدد الأسطر في الوجه الواحد 16 سطرا، أما اللوحة الأولى فعدد أسطرها 14 سطرا، عدد الكلمات في كل سطر، ما بين 6 و 9 كلمات، صفحاته غير مرقمة وغير ناقصة.

المخطوط غير مفهرس، تم نسخه من طرف أحمد بن محمد بتاريخ 02 شوال عام 1024م الموافق لـ 25 أكتوبر 1615م، من نسخة مقابلة للأصل المكتوب بخط ابن أبي محلي، مؤرخة يوم الجمعة 02 ربيع الأول عام 1005هـ الموافق لـ 24 أكتوبر 1596م

ثانيا: لماذا هذا المخطوط:

لأنه يمثل نوعاً من التواصل العرفاني بين فقيه بالصحراء الجزائرية (تجورارين "يتنميون") وفقه متصوف بجنوب المغرب الأقصى

لأن المخطوط هو لشخصية بارزة مؤثرة صوفية عرفانيا وسياسيا في المغربين الأوسط والأقصى،

يطرح المخطوط موضوعاً صوفياً عرفانياً مهماً، كما يبرز تأثير السائل والمجيب بشيوخ التصوف واطلاعهما على الكثير من مؤلفاتهم، وهو من بين المخطوطات التي تحصلت عليها وأنا بصدد إعداد أطروحة الدكتوراه.

ثالثاً: صاحب المخطوط:

صاحب المخطوط هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد أبي محلي¹ العباسي، أما والدته فهي المولات بنت علي بن أحمد بن أبي القاسم البزوزي من أولاد رحو (قدوري، 1991: 39)، ولد بتافيلالت عام 967هـ/1559م وفيها تلقى تعلمه الأول، انتقل في سن الثالثة عشر بمعية أخيه الأكبر محمد بن عبد الله إلى فاس حاضرة العلم في المغرب السعدي، مكث بها حوالي خمس سنوات وهو يومئذ (بالغ لا همة لي إلا العلم ولا شغل لي إلا بالحفظ والفهم) (الوفрани، 1888: 201)، حيث درس على يد أبي القاسم القاضي الفاسي وأبي العباس أحمد القدومي ومحمد عبد الله المزياتي والشريف التلمساني والشيخ المنجور (واحيي، 2009: 19)، إلى أن أخرجته منها ظروف معركة وادي المخازن عام 986هـ/1578م و وفاة أخيه الأكبر.

لقد كانت الفترة الممتدة من 988هـ/1578م إلى 1008هـ/1600م، حاسمة في تشكيل البنية الفكرية والسياسية لابن أبي محلي، إذ نجده خلال هذه الفترة انخرط في التصوف، وإن ظل لفترة يحذر منه بسبب الممارسات غير الشرعية التي ارتبطت به (الوفрани، 1888: 202)، ذلك ما يؤكد أبو العباس التواتي، في رسالته المسماة "مقام التجلي والتخلي من صحبة الشيخ

أبي محلي"، أن أبا العباس أحمد بن أبي محلي، في أول أمره كان فقيها صرفا ثم بعد ذلك اتخذ طريق التصوف (الوفрани، 1888: 203).

عرفت زاوية الشيخ محمد بن مبارك الزعري التستاوتي (ت. 1006هـ/1597م) بداية تحول ابن أبي محلي من الشريعة إلى الحقيقة، إذ لولاه كما يذكر (لهلكت، ولولا هدايته بإذن الله لضللت، وكيف لا وهو الذي أنقذني الله به، من بحر هواي المضل، ودلني به عليه برحمته في أصحاب الصراط السوي) (الوفрани، 1888: 202).

تركت وفاة الشيخ الزعري فراغا في نفسية ابن أبي محلي، حيث قضى (ثلاث سنين عاطلا) عن زاد التربية الروحية رغم التحاقه بالشيخ أحمد بابا التنبكتي (ت 1036هـ/1627م) بمراكش، ثم الشيخ أبي بكر بن محمد بن سعيد الدلاء مؤسس الزاوية الدلائية (ت 1021هـ/1612م) بالجنوب الغربي للأطلس المتوسط حوالي 974هـ/1566م، ولم يتحقق مراده إلا بعد أن استقر به الحال بفجيج عند شيخه أبي القاسم الفجيحي (ت 1021هـ/1612م)، الذي لازمه وأجازه في جميع ما قرأه ورواه عن شيوخه في ذي القعدة من عام 1008هـ/1600م (واحيي، 2009: 19-20)²، واستقر به المقام ببلده سجلماصة تحقيقا لنصيحه شيخه الزعري الذي قال له: (إن صلاحهم فيك، ثم ناولني عصاه وبرنسه ونعله، من غير طلب من شيء من ذلك، وجعل في رأسي قلنسوة كالخرقة بيده اليماني عند الوداع) (واحيي، 2009: 202)، إن هذه التزكية لابن أبي محلي، يبطن ملامح الولاية والإمامة الواردة إليه من شيخه الزعري، كالاقرار له بالصلاح، وأن أحوال سجلماصة ستبدل على يديه.

تعمّق ابن أبي محلي في الفقه واللغة خلال رحلتيه الحجيتين (الأولى: 1001هـ والثانية: 1013هـ)، حيث كان يجتمع بالعديد من الفقهاء والعلماء بالحرمين وبالأقطار التي زارها سيما الأزهر، الذي أقام به قرابة السنة، دارسا ومناظرا وناسخا للكتب، وأخذ هناك عن إمام المالكية الشيخ سالم السنهوري (ت 1015هـ/1606م)، وفي النحو عن أبي بكر الشنواطي، واللقاني، وعن حسن الطناشي أحد كبار الأئمة الشافعية، وأحمد الكلبي المالكي في الفقه،

وزين العابدين البكري في علم الأصول (واحيي، 2009، 180/1)، كما لقي في حجته الأولى علماء بالجزائر وبسكرة وإفريقية. كما مر في رحلته الحجية الثانية بتوات.

رابعاً: علاقة ابن أبي محلي ببلاد القبلة:

كانت علاقة ابن أبي محلي ببلاد القبلة "الساورة وتوات" ذات أبعاد اجتماعية وسياسية وصوفية-عرفانية؛ فمن الجانب الاجتماعي نجده قد انخرط في علاقات مصاهرة مع كبريات البيوتات بالمنطقة حيث أسس بيتاً ببني قومي "تاغيت حالياً"³، ونزل ببني عباس⁴ من قرى الساورة عام (1000هـ/1561م)، وتزوج منها بابنة شيخ البلد، عبد الله بن محمد بن شمس الدين العباسي (ابن أبي محلي، مخطوط: 35)، وباستقراره هناك أضحت بني عباس حاضرة علمية، لما حصل له من الوجاهة والنفوذ، بسبب ناموسه الصوفي ومكانة صهره العباسي؛ فقصدها العلماء والطلاب من المشرق والمغرب الأوسط والأقصى والصحراء. كما كان يكتبها العلماء من مكة والقاهرة وفاس وتوات.

تدل المصاهرات⁵ التي قام بها ابن أبي محلي من العائلات الظاهرة بالصحراء، على رغبته في كسب القبائل الصحراوية إلى صفة، وفرض ناموسه الصوفي على المنطقة. وما تتلمذ طلبة من توات على يديه مثل عبد الكريم بن محمد البكري (994-1042هـ/1585-1633م) الذي سيلقب بـ"عالم توات"، والتقاءه للمرة الثانية⁶ مع محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الوطاسي الجراري (ت 1035هـ/1625م)، في تيكورارين إلا دليلاً على ذلك⁷.

قام ابن أبي محلي بحكم مكانته، بأدوار سياسية في بلاد القبلة⁸، ومن جملة ما ورد في هذا السياق هو قيامه بإصلاح ذات البين بين القبائل كما روى في المنجنيق (فما زالت كذلك حتى سعيها مع من شاء الله من أعيان تيجرايين ومرابطيها وفقهائها بإشارة منهم في الصلح بين قبائلها لشر طويل كان بينهم أظلمت منه البلد وما حولها؛ فنهضنا من الزاوية لذلك عامدين شيخ دغاغ الشيخ علي بن موسى ببلده ليعقد الصلح عنده؛ فانعقد معه ومع شيوخ أهل حيحا، ومن تبعهم من الفريقين فتم ذلك بحمد الله) (قدوري، 1991، 202-203).

تشير الرواية التي أوردها "عالم توات" عبد الكريم بن محمد البكري في فهرسته، إلى مكانة الفقيه ابن أبي محلي في الإقليم التواتي، حيث يعد من (الأشياخ الذين لهم الحال الباهر الجامعين بين علمي الباطن والظاهر، جامع شتات الفضائل، لسان العصر في البلاغة والبراعة)(البكري، ب ت، 1/57).

الواضح أن ابن أبي محلي ارتبط ببلاد القبلة التي أصبحت مستقره وحضن عياله، وكسب فيها ثقة القبائل، نظير علمه وناموسه الصوفي ومصاهراته، إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا بالاحاح، لماذا ابن أبي محلي لم يصاهر بيوتات تواتية؟ ولماذا لم يستقر هناك؟ وإذا كان ابن أبي محلي يبحث عن السند القبلي، فتوات تمثل وعاءً ديمغرافيا كثيفا، تمثله قصورها الكثيرة مقارنة بقصور الساوره مثلا.

لم يدخر ابن أبي محلي جهدا في مجموع مؤلفاته وتقييداته، الحديث عن المهدي المنتظر، وأوصافه التي تكاد تنطبق على شخصه، سيما مخطوطيه "المهراس" و"الإصليت"، حيث قال: (أما إمارته -خلافة المهدي- فرحمة للمؤمنين وعذاب على الكافرين ... حكمه من القرآن والسنة والإجماع وما يلتحق بذلك على الترتيب)(ابن أبي محلي، مخطوط، 25)، ونظرا لانتشار مقولاته ببلاد القبلة وتوات، فقد طرح نقاشا واسعا عن المهدوية، وردّ على ذلك الانشغال بقوله: (إن قيل كلامك يحوم كله على مقام المهدي المشهور عند العامة بالفاطمي.. فإن كنت حقا فأصدع بما تؤمر، وبشرنا تؤجر وتشكر وتؤزر. الجواب: فيما أني شاك الآن في نفسي أو ظان، فلا يجوز ادعاء ذلك، فيجب الحذر والوجل، وإن كنت متيقنا فيمنعني الإذن الخاص، كيف شاء ربنا وإن كنت أنا هو بل إياه، والله أعلم وليس إلا عليه الاعتماد، وبالجمله الأمر محتمل جدا)(قدوري، 1991، 62).

دعا ابن أبي محلي إلى نفسه بأنه صاحب الوقت "المهدي"، وردت عليه رسائل من أعيان وعلماء الصحراء حسب الوفرائي، مثل الرسالة التي وردت إليه على لسان أعيان الساوره وتوات: (أردنا سيدي الانضمام في عندكم والانخراط في سلككم، فلا تمنعونا... سيدي، ابعثوا

لنا تسبيحة من أيديكم أو غير ذلك، كشاشية من فوق رأسك لتكون عندي البركة)(الوفрани، 1888، 202).

كما رغب بعض علماء توات اكتشاف الرجل والوقوف على أحواله "القطبانية"، مثل القاضي محمد بن عبد الكريم البكري الذي مدحه بقصيده من أربعة عشر بيتاً منها:

سبيل إلى القاء فسحة العمر	ألا يا أبا العباس أحمد هل لنا
نسر به اليوم والغد والحشر	فنحظى به بالصلحات وكل ما
سيحشر أحبابه بعدما النشر	روينا بأن المرء يوم جزائنا
إمام حيكّم عالم سامي القدر	هنيئاً لأهل المغرب إذ حل أفقهم
له شأن أهل الزهد والفضل والذكر	تسمى بأحمد بن عبد الله هنا

نجد من الشيوخ من نقم عليه، مثل الشيخ أبا العباس أحمد التواتي، الذي زاره وجلس عنده مدة وهو يختبر مقالاته؛ فوجده يشير إلى نفسه بأنه المهدي المعلوم المبشر به في صحيح الأحاديث، فتركته وراءه ونبذه بالعراء، وكتب في ذلك رسالة، سماها: "مقام التجلي والتخلي من صحبة الشيخ أبي محلي"، اطلع عليها الإفрани بخط مؤلفها، وأشار إليها في كتابه "نزهة الحادي"، لكن لم يورد لنا النص الكامل لها، وهي رسالة طويلة، جاء فيها (كان الفقيه أبو العباس في أول أمره فقيراً صرفاً، ثم انه انتحى طريق التصوف مدة، حتى وقع على بعض الأحوال الربانية ولاحت عليه مخائيل الولاية الرحمانية، فانحشر الناس لزيارته أفواجا وقصدوه فرادى وأزواجا وبعد في البلاد صيته وكثرت أتباعه)(الإفрани، 1888، 203)، كما هجاه زميله في الدراسة الفقيه أبي زكريا يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي (ت 1035هـ/1626م) في بعض قصائده ومحدراً منه، وكان رد ابن أبي محلي قوياً، فقال: (الإفрани، 1888، 299):

قصورا شعارا للفحول الأوائل	يحي الخسيس النذل مالك تدعي
وأنت دنئ من أخس القبائل	كدعواك من بيت النبوة نسبة

ووجهك وجه القرد أقبح ما يرى رأسك رأس الديك بين المزابل
وشدك تعميما كراس عجوز من الروم أقعدت لغسل المنازل

خامسا: وفاته:

توفي ابن أبي محلي في أعقاب تملكه للسلطة في مراكش عام 1020هـ، على إثر إزاحته للسلطان السعدي زيدان الذي سرعان ما أخذ زمام المبادرة، والتقى الطرفان في معركة فاصلة قرب جبل إيجليز في رمضان 1022هـ / 1612م، قتل فيها ابن أبي محلي وتفرق شمله، وعاد السلطان زيدان لعرشه في مراكش.

سادسا: مؤلفاته:

ساهمت الساوره في إخراج المعرفة الفقهية والصوفية لابن أبي محلي، إلى إطار التدوين والمقروئية، حيث ألف أغلب مؤلفاته بقرى بني عباس والتي ناهزت عشرة مؤلفات، إن القارئ لمؤلفات ابن أبي محلي يلمس أنه خطها الفكري واحد، يعكس مزاجه الحاد، ويعبر بصدق وحماس عما يختلج في صدره ويشغل فكره، كفقيه ومتصوف عايش العنف والفوضى والفتن (واحيي، 2009، 32). منها "تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة"، "الوسيلة إلى الله بالقرآن"، "جواب الخروبي"، "الهودج"، وصية لابنه سماها "حذراء القصائد وعذراء الولائد"، "القسطاس المستقيم في معرفة الصحيح من المستقيم"، "الوضاح لكل متمشدا فضا"، "إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج إلى سادة مصر وقادة العصر"، "الحكاية الأدبية والرسالة الطلبية مع الإشارة الشجرية"، "السيف البارق والسهم الراشق"، "منجنيق الصخور لهدم بناء شيخ الغرور"، "سلسبيل الحقيقة والحق في سبيل الشريعة للخلق" و "سم ساعة في تقطيع أمعاء مفارق الجماعة" و "تهييح الأسود"، "رسالة إلى رؤساء القبائل".

سابعا: الشخصيات الواردة في النص:

1- أبوعبد الله محمد عبد الله بن عبد الكريم بن أحمد الوطاسي ثم الجوراري (ت 1035هـ/1625م) صاحب السؤال: تقلد أبو عبد الله خطة قضاء الجماعة بناحية تيجراين بعد وفاة والده القاضي، وذلك بتزكية فقهاء الإقليم، رغم أنه كان زاهداً فيها كما ورد في إحدى رسائله لشيخه عبد القادر السماحي (وها أنا إن شاء الله في هذا الربيع عازم على زيارة سيدي الشيخ، ثم بعده على زيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومن بعدها إن شاء الله ملازمة الخلوة حتى ألقاه، وهذا مرادي)، ومن أشعاره في هذا السياق:

لعمرك ما القضاء إلا بلية	وهمُّ وغوص في بحار القطيعة
شغفت بحب الشيخ عبد القادر	فأذهلني عن القضا في الخصومة
يشير إليّ بالقضا غير مرة	ويأمرني بالفصل بين الخليقة
خليلي هل بالربع نفس كئيبة	تساعدني للحزن يومي وليلي

يبدو أن القضاء لم يشغل أبو عبد الله عن مطالعة مصنفات التصوف والاهتمام بأعلامه مثل الشيخ زروق، لذلك نجده يرسل متصوفة عصره كابن أبي محلي العباسي مؤرخاً سؤاله بيوم الجمعة الفاتح من ربيع الأول 1005هـ/ 24 أكتوبر 1596م وهو أنداك لا زال في صحبة شيخه الزعري، لحل بعض رموز الشيخ زروق في المعرفة بالله.

ومما جاء في ثناء ابن أبي محلي على قاضي تجورارين بقوله: (العالم العامل الحاكم العادل العارف بنفسه فلا يضره العجب الراغب في أنسه فلا يسره غير القرب الفقيه النبیه السيد الوجیه قاضي الجماعة وسخي المجامعة أبي عبد الله سيدي محمد عبد الله بن عبد الكريم بن أحمد الوطاسي ثم الجراوي، وطأ الله له المسالك وحرر لمقصده المدارك أفاض الله علينا من نوره) (ابن أبي محلي، مخطوط: 2).

يتضح مما سبق أن العلاقة بين ابن أبي محلي وقاضي تيجورارين خلال العشرية الأولى من القرن الحادي عشر كانت حسنة، رغم عداء البعض لابن أبي محلي، حيث قال: (الحمد لله الذي عفاكم مما ابتلى به كثير من أهل الحسد والكبر والعناد) (ابن أبي محلي، مخطوط: 3)

(، بعدما داعت الخصومة بين ابن أبي محلي والزاوية السماحية، حيث سعى لكسب قاضي الجماعة إلى جانبه لعلمه ومكانته ولما تربطهما من علاقة مصاهرة مع الشيخ السماحي، إلا أن القاضي عدل عن ذلك خاصة بعد ادعاء ابن أبي محلي المهدوية، وقد دفع هذا بالمهدي إلى أن يدعو على القاضي في رسالته "المهراس" (فض الله فاه، إذ غر الأمة بالشفاه). ثم قال أيضاً في نفس السياق: (جب الله ناصيته، وحلق لحيته، في مدح المذموم، وحمد المشتوم، إذ ناقض الأصول، وصاول الفحول، بتزكية المجروح، وتولية المفضوح، وعدول الأمة شهود، وفحول الأمة قعود، والهيات يكذبهم، والحق تعالى لا يزال بالبينات يؤيدهم، ونص مقوله المهجور، في ثنائه على الشيطان المدحور).

توفي قاضي الجماعة في 25 من ذي الحجة عام: 1035هـ/1625م، وخلفه على خطة القضاء على إقليم تيجورارين ابنه القاضي محمد.

2- عبد الحكم الجراوي: هو محمد بن عبد الحكم بن عبد الكريم الجراوي (ت 1021هـ) زكاه تلميذه عبد الكريم بن امحمد بن أبي محمد التمنيطي "عالم توات" (ت 1042) بأنه: (الحافظ والبحر اللافظ لسان العصر ونخبة الدهر أعجوبة الزمان ونادرة الأوان)، ومدحه ابن أبي محلي وهو يقرئه السلام: (وعلى التحرير الفائق السמידع الرائق الأريب الحلالح الأديب المواصل الحبيب النسيب النجيب الحبيب أخيكم الأبر وولينا الأنحر سيدي عبد الحكم الحكيم وعلى كل من يسركم، عليه منا التسليم) (ابن أبي محلي، مخطوط: 3). وعندما أعلن ابن أبي محلي ثورته على السلطان زيدان السعدي ناصره ومدح مسعاه بهذه الأبيات (بلاغ، ع 5 جوان 2017، ص 70)

شمس الهدى وبغرينا ألبها
وجه الهاء كما صبت للباها
لما أضمحل لؤاها

بزغت بحمد الله من نور النبي
لمتوع وجه فتى عنا لبائه
فتباشرت آفاقها وتباهجت

3- أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الملقب بزُرُوق: ولد عام 846هـ/1442م، تربى على يد جدته الفقيهة الصالحة أم البنين، درس بفاس أول أمره على يد الشيخين علي السطّي وعبد الله الفخار، والقرآن على يد جماعة منهم القوري والزرهوني، ثم رحل للمشرق لإتمام دراسته، وأخذ عن أبي العباس أحمد بن العجل وأبي العباس أحمد بن سعيد المكناسي وغيرهم. مدحه ابن أبي محلي بقوله: (ما صدر عن صدر الصدور وبحر البحور الجامع المانع الساطع الواسع المحيط مقامه الأسماء في سر الهمم ونكت الأسماء سيدنا أبي العباس غير العباس زروق) (ابن أبي محلي، مخطوط: 6).

توفي الشيخ زروق في شهر صفر (899هـ/1493م)، وعمره 54 سنة ودفن بمصراتة "ليبيا"، تتلمذ على يديه عدد ممن أصبحوا علماء مثل أحمد المنجور (ت 955هـ)، وعبد الوهاب الزقاق (ت 961هـ)، وشمس الدين اللقاني (ت 935هـ) وغيرهم.

ترك الشيخ زروق مكتبة عامرة، تزيد عن 31 مصنف أغلبها في التصوف، منها: النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، تنبيه ذوي الهمم على معاني ألفاظ الحكم، الفتح والتمكين، أصول الطريقة، عدة المريد، وقواعد التصوف.

ثامنا: السمات العامة لجواب ابن أبي محلي:

إذا تفحصنا جواب ابن أبي محلي على سؤال القاضي نجده يحمل السمات التالية:
أسلوب ابن أبي محلي يتميز بكثرة المرادفات والعبارات المجازية والإطراء، مما جعله يطنب في الجواب (17 ورقة)، ويغيب في بعض الفقرات عن مقصوده، مما يجعل القارئ يعيد قراءة فقرات النص لجمع معانيه،

يحاول ابن أبي محلي أن يُقعد لإجابته بطرقه لقواعد التصوف (وقد علمتم أن لكل أهل فن قواعد مبنية عليها الفصول، وقوانين تحي في قوالها الأصول، وفن التصوف أرقى العلوم، وأدق الفنون) (ابن أبي محلي، جواب، مخطوط: 7).

النص يتضمن مصطلحات عرفانية مثل: الوجد والفقد، الطريقة، التحلي والتجلي،
الولاية، التصوف، العارف، السكر والفناء.

استدلالاته من القرآن والسنة قليلة، حيث ذكر آية واحدة في جوابه (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي
اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)(القرآن الكريم، إبراهيم 10)، وحديث واحد والمتمثل في
قوله صلى الله عليه وسلم (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)

السؤال الذي أجاب عنه وصله يوم الخميس غرة ربيع الأول، وأنهى تحرير الإجابة يوم
الجمعة 2 ربيع الأول (وقد كتبنا لكم غير هذا سؤالاً آخر يصلحكم إن شاء الله على يد صاحبكم
سي الحاج، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين) (ابن أبي محلي، جواب: 5
).

يبيد ابن أبي محلي صعوبة في فك مضامين ما طلب منه، خاصة أن أصل العبارة غير
حاضر لديه (نفسه: 16)، كما أن مقامه في التصوف أدنى من صاحب القول، مما يجعل
تأويلاته تعدياً على فهم صاحبة، إذ يقول: (ومن لي بمرامك الأعلى أيها الهمام، وباعي أقصر عن
ذلك المقام، وكيف على فض ما ختموه، وفك ما أبهموه تعدياً على ما فهمومه، ولو شاءوا ما
كتموه) (نفسه: 6) ويبرر ذلك في تعدد فهومات النص، فإذا كان القرآن قطعي المتن ظني
الدلالة، فالأحرى هذه المقالة وغيرها.

تاسعاً: مضمون الجواب:

الجواب الذي بين أيدينا يحمل من الناحية الشكلية مواصفات الرسالة، فابن أبي
محلي لم يكتف بالجواب مباشرة، بل حمل الجواب مضامين متعددة تتجاوز حدود مطلوب
السائل، وهذا أسلوب لم يفرد به صاحب الجواب هنا، بل نجده في العديد من نصوص
الأجوبة، خلافاً للأجوبة التي تكون في المجالس. مثل ما نجده في كتب الفتاوى والأجوبة والأحكام.

مقدمة الجواب تفصح عن توجه المجيب، وتنطق بالمعاني العرفانية التي يعتقدها، في ألفاظ وعبارات لا يجيد توظيفها إلا المتصوف العرفاني، وهو في ذلك يمارس التخليّة والتحلية؛ فإذا كانت القلوب يغشاها دنس الجحد ودرن الكفر، فقد طهر وحلى سبحانه قلوب أوليائه منها، وزكى أخلاق أصفياؤه من بعض المثالب أدناها البخل وأعلاها الطغيان، بعد ذلك يسهب في ما اختص به الله أحبائه وأصفياؤه، فقد حلى سبحانه ممارساتهم التعبدية بمعرفة حقيقة العبادة، ومتع أرواحهم بأعلى درجات الإيمان ودقائق الإحسان، وجعل أورادهم تنزيها وحجابا لهم عن كل ما قد يشوب عقائدهم من زيغ وانحراف. بعد هذا الحمد على الصفاء والتزكية والتحلية والتنزيه، يشكر الله ويوحده ويصلي ويسلم على سيدنا محمد.

من مقتضيات الجواب أن يذكر اسم السائل وسؤاله في متن الجواب، وغالبا ما يشار إلى تاريخه، مما يتيح للدراس وضع الجواب في إطاره الزماني والمكاني؛ فضلا عن المضمون الذي سيتيح معرفة العلوم والمعارف المتداولة في تلك الفترة، أحاط ابن أبي محلي سائله أبي عبد الله سيدي محمد عبد الله بن عبد الكريم بن أحمد الوطاسي الجراري، بعبارات التزكية فقال هو (العالم العامل، الحاكم العادل العارف بنفسه فلا يضره عجب ... قاضي الجماعة وشيخ الجماعة) (نفسه: 2)، والدعاء له بدوام التحلي والتجلي في التحلي، ولا عجب في ذلك، لأن المطلّع على كتابات ابن أبي محلي يقر أنه رجل مفوه بليغ، يطنب ويسبك عبارات المدح والقدح على حد سواء.

السؤال الوارد لا يتعلق بقضية فقهية أو نازلة، وإنما بحل رمز من رموز الشيخ زروق (846هـ-899هـ)، حيث قال السائل: (كي يفتح الله علينا بسببكم في حل رمزه ... وهو قول سميكم الزروق حيث قال طويل طويل قصير قصير قصير شيء شيء شيء ما شيء ما شيء هو هو هو ما هو ما هو) (نفسه: 5)، وأن يفيد بما عنده في معنى اللاهوت والناسوت.

يرى ابن أبي محلي أن أول واجب على الفقير السالك إلى الله، معرفة أن التصوف لا مجال فيه للتخمين إلا بعد الطمأنينة التي هي راحة القلب وسكونه (ولا تكون إلا لعبد رجع عقله وقوي إيمانه ورسخ علمه وصفا ذكره وثبتت حقيقته) (الطوسي، 1960: 98)، وهي على ثلاث مستويات الطمأنينة بالإيمان وهي للعمامة، والثانية طمأنينة بالرضا وهي للخاصة، والثالثة لخاصة الخاصة فأصحابها يعلمون أن قلوبهم لا تقدر أن تطمئن إلى الله هيبة وتعظيماً له.

ذكر ابن أبي محلي بعض قواعد التصوف، منها ترك الدعاوى الكاذبة وكنم المعاني الصادقة التي تنشأ عن صدق التوجه إلى الله لتكون بينك وبين الله، لأن إيداعها بين الناس يفسدها إما بالتأويل أو دخول حظ النفس فيها، وهذا مرتبط بقاعدة أخرى يشير إليها ابن أبي محلي، في أن الكلام من حيث هو صفة لقائله، سواء في حالة الدعوى الكاذبة أو البوح بالمعاني الصادقة، ولكل مقام مقال لائق بمسائله.

كذلك من قواعد التصوف التي سجلها، أن الإنسان ابن وقته، وذلك ما جاء في الرسالة للقشيري (ت 465هـ) (يريدون بذلك أنه مشغول بما هو أولى به في الحال قائم بما هو مطالب به في الحين وقيل الفقير لا يهتم ماضي وقته وآيته، بل يهتم وقته الذي هو فيه) (القشيري، 1989: 101/1)، وهم في ذلك متأسيين بالرسول (ص) الذي قال فيه تعالى للية الإسرء والمعراج (ما زاع البصر وما طغى) (القرآن الكريم، النجم: 17)، والصوفي لا بد له من الورد، وحفظ الحواس ومراعات الأنفاس، وأن يكون القلب مجرد مما سوى الحق "الله"، لأنه محل نظر الحق سبحانه (نفسه: 7)، وهذه القواعد الثلاث كلها تجعل العبد في معية الله؛ فأوراد المتصوف هي لتخلية قلبه من الأغيار وتحليته بالواحد القهار، واللسان ترجمان وعنوان المكنون في التصوف بالتمحيص، والمتصوف له حالان إما الوجد أو الفقد، والذي لا يميز بين هذين الحالين يلتبس عليه خطاب المتصوفة، ويخفي عليه إدراك المعنى الحقيقي لما يقولونه (وربما نطقوا اليوم في الوجود بخلاف ما حققوا بالأمس في العقود) (نفسه: 8).

بعد أن ذكّر بتلك القواعد، سعى ابن أبي محلي إلى تأطير جوابه ب (هذا مما لا سبيل للترغم عليه ولا للوهم سبب إليه) (نفسه: 7)، وهنا أشير إلى أن اللغة الرمزية أو الإشارية عند المتصوفة صعبة التأويل، لأنها تعبر عن حال المتصوف الناطق بها، بينما حال السامع أو القارئ يختلف، لذلك فتفسيراته تكون مختلفة ومن اتسعت رؤيته ضاقت عبارته، لذلك يرى أحمد زروق أن اللغة بكل مكوناتها، والتعبير بكل أدواته عاجزان عن الوصول إلى الحقيقة؛ فالتغزل والندب والإشارة دليل عنده على البعد عن المشاهدة، لذلك نجد المحققين من الصوفية قل شعرهم كالجنيد والشاذلي (رزوق، 2005 : 103-106).

يضع ابن أبي محلي مقولة الشيخ زروق الواردة في النص في سياقين، إما أن يكون قاصداً بذلك ستر جوهر مقولته، وبذلك فمقولته من جملة الألغاز والرموز؛ فهذا له وجه من المعرفة عند الأئمة، وإما أن يكون اختياراً عن (قصد صحيح بلسان فصيح وعقل صريح) (نفسه: 9)، وهو الراجح عند ابن أبي محلي بسبب بُعد الشيخ زروق عن تعاطي ما يشوش القلوب (نفسه: 9)، وعليه هي صادرة عن خاص بوقت خاص، لها معنى لطيف ومبنى كثيف (نفسه 10)

الراجح عند صاحب الجواب في معنى مقالة الشيخ زروق: طويل ثلاثاً، فهذا عند ابن أبي محلي من (الاستواء على عرش الطور يوم ودّع اللاهوت الناسوت) (نفسه: 10) ... قصير ثلاثاً أيضاً إني جامع محيط بالموارد والمصادر ، أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً، تذهب فيه العقول حتى تحار من طوله وفضله، وتقتصر عنه حتى تكاد تياس من نيله) (نفسه: 11) ولا ندري لماذا ربط ابن أبي محلي "طويل" بالاستواء على العرش؟ لما خلق الله تعالى السماوات والأرض استوى على العرش (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (القرآن الكريم: طه 5)، وقوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) (القرآن الكريم: الأعراف: 54)، ثم أول "طويل" بإحاطته تبارك وتعالى بكل شيء بشكل لا تدركه عقول البشر ، مما يجعلها قاصرة عن إدراك ذات المولى جل وعلا وكل صفاته.

أما عن "شيء" ثلاثاً و"ما شيء" ثلاثاً هنا يرى الإثبات والإنكار أو النفي، كما يتساءل المجيب بصيغة استنكارية، كيف أن الله هو أعرف المعارف يشار إليه بلفظ "الشيء"؟ (أنكر النكرات كأنه ما عرفه قط لما لاح له من الفتح ... ثم قال ما شيء ثلاثاً وكأنه من إنكار، والإنكار وهو غير الإثبات وبه انتهى ريب الأول)(نفسه: 11) ... المثبت مبناه المنفي معناه، فإنه تعالى أعرف المعارف ... فكيف يشار إليه بلفظ هو أنكر النكرات ... والخلاف مشهور في توجيه الشيئية إليه سبحانه، لكن هنا منفية قطعاً بهذا الاستفهام الإنكاري، كما قال تعالى: "أفي الله شك؟"؛ فقوله ما شيء أي ما وجه التناول الشيء لمن هو أجلى وأعرف وأتم والطف من أن يشار إليه بالعموم أو يتقيد بالرسوم) (نفسه: 12)، ثم لاح للشيخ زروق نور آخر وسر من أسرار الصفات حسب ابن أبي محلي، فأنكر المعروف من الصفات وأثبت الموصوف بقوله: (ما هو ثلاثاً فكأنه أبين من إدراكه حتى بالكناية ... هذا بعض ما تيسر اختصاراً في المعنى)(نفسه: 14).

تثمر التجربة الصوفية وللتصوف أحكاماً وأداباً، ومعان ذوقية لذلك قال: (التصوف كله ذوق) نتيجة القرب والمحبة الإلهية، وتخلية الباطن من حظوظ النفس والمجاهدة، وغالباً هذه الأذواق تتجلى للآخر في عبارات ورموز، قد يكون ظاهرها مألوفاً وباطنها موحش، يستدل بكلمة واحدة على الكثير من المعاني لذلك قال: (المحل الضيق لا يقبل الاتساع، وإنما تفتح باباً الإشارة بأوضح العبارة)(نفسه: 14).

أول ابن أبي محلي تكرار الشيخ زروق تكرار الكلمات ثلاث مرات، بأنها تعبير عن الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان كما جاء في الحديث الشريف، والذات والصفات والأسماء، وأسماء الله منها أسماء الجلال والجمال والكمال، وما يتعلق بالمسلم من تقوى وصحبة ومعرفة والصوفي من علم وحال وأدب، والأزمة التي يحيها الإنسان، الدنيا والآخرة والبرزخ.

يطرح ابن أبي محلي قضية أثارت جدلاً كثيراً بين المتصوفة الفلاسفة وغيرهم، في إجابته على اللاهوت والناسوت، وهي قضية "الحلول" التي يتبناهo النصارى في قولهم: أن

اللاهوت "كلمة الرب" قد حلت في شخصية اليسوع الذي يمثل الناسوت "الطبيعة البشرية"، وبذلك يدل المصطلحين على الطبيعتين الإلهية والبشرية في شخص السيد المسيح "عليه السلام"، أما عند ابن عربي في كتابه "فصوص الحكمة" يقرر أن الروح ما خالطت شيء إلا سرت فيه الحياة، وذلك القدر من الحياة يسمى لاهوتا، والناسوت هو المحل الذي سرت فيه الروح (ابن عربي، ب ت: 138/1).

لكن (الصوفية الكرام قلبوا غير تلك العبارة؛ فصيروها أخص إشارة كانت قبل ذلك خمرًا حرامًا هجروها ... وأخرى حللوها فانقلبت عينها هناك إن النصارى مجسمة مشركون، والصوفية موحدون مخلصون، والحلول باطل لما يلزم عليه من الإحاطة) (نفسه: 14)، هذا الاتحاد كما جاء في جواب ابن أبي محلي ممنوع عند الأصوليين إذ حقيقتان (الخالق والمخلوق) يستحيل كونهما حقيقة واحدة، كما أن نفي واجب الوجود محال، لأن حقيقة الوجود والإيجاد ثابتة لله تعالى، وحكم الفناء (نفسه: 15)، ربطه بالآية (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) مما يعنى فناء الأبدان وبقاء ذاته سبحانه، ونستبعد معنى "البقاء" و"الفناء" الذي خاض فيه المتصوفة.

خاتمة:

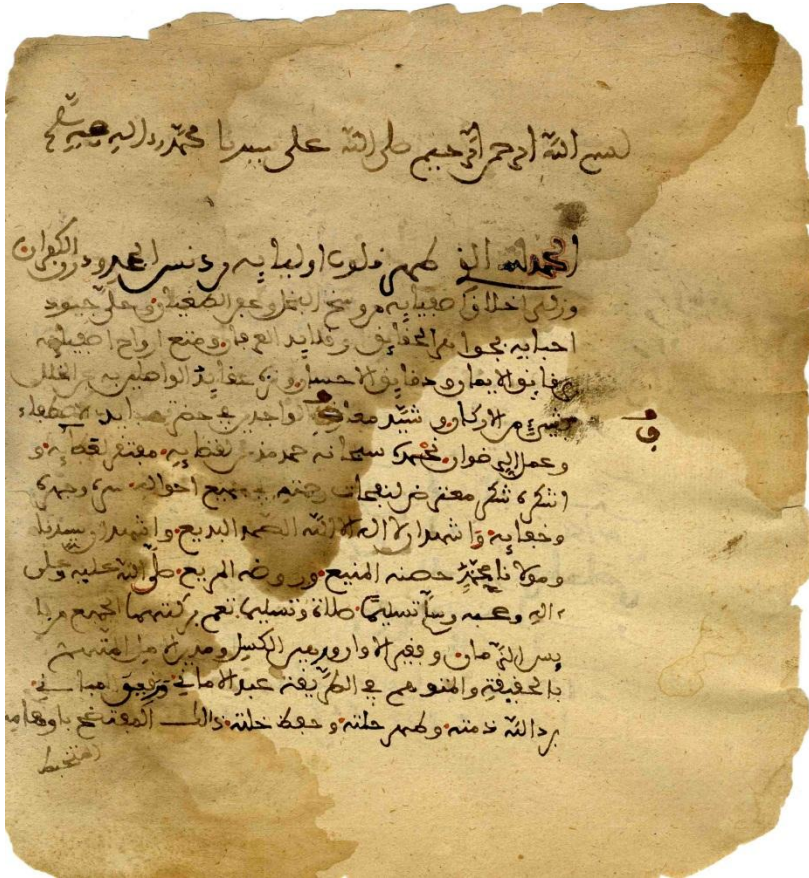
بعد عرضنا لجواب ابن أبي محلي على سؤال أبي عبد الله محمد نقف عند الاستنتاجات التالية:

- رغم صعوبة المسالك بين توات وسجلماصة إلا أن التواصل ظل مستمرا بين علماء توات وسجلماصة
- تنوع أشكال التواصل بين حواضر الصحراء، من وفود الطلاب وانتقال العلماء إلى التراسل وهو شكل من أشكال التواصل
- شكل ابن أبي محلي طفرة في تاريخ بلاد القبلة خلال مطلع القرن الحادي عشر، سواء من حيث الإنتاج الأدبي أو النشاط السياسي والديني.

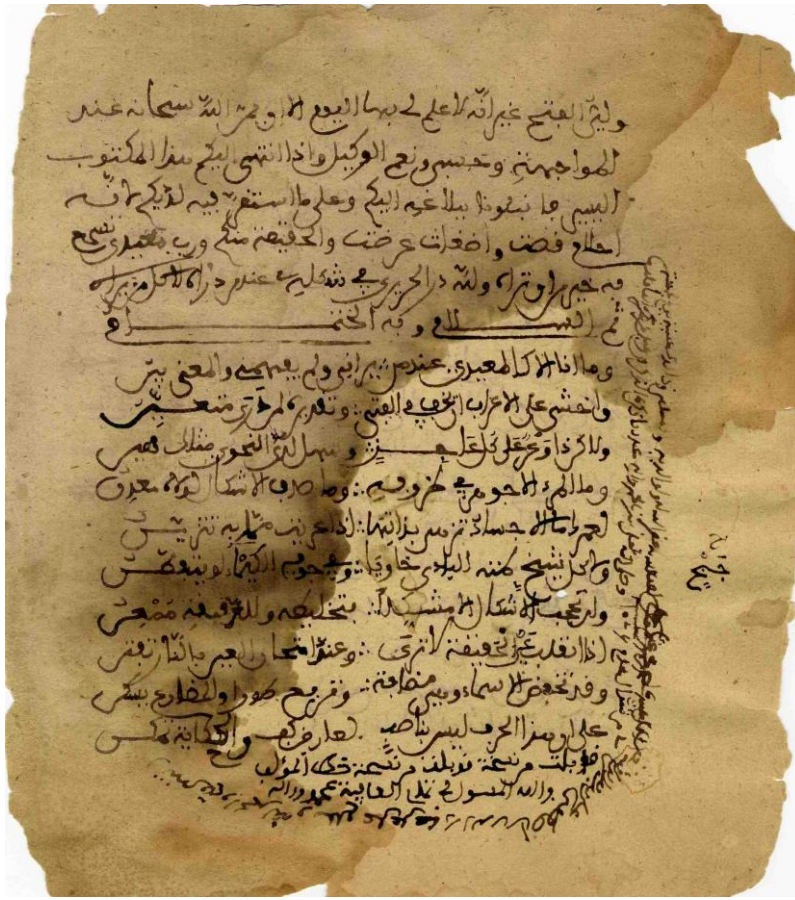
- مضمون السؤال يبين رغبة علماء توات الانخراط في سلك التصوف وفك رموزه العرفانية، فضلاً عن انتشار مصنفات المتصوفة في توات منها مؤلفات الشيخ زروق.
- المكانة المميزة لعائلة محمد عبد الله بن عبد الكريم بن أحمد الجوراري عند ابن أبي

محلي

الملاحق:



الورقة الأولى من المخطوط



الورقة الأخيرة من المخطوط

الإحالات

- 1- جاء على لسان ابن أبي محلي، أن أستاذه أبا بالعباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي التادلي (قد طالع مختصر الذيل لابن السمعاني عام واحد وثمانين... قال وأما جدنا الأشهر المكني بأبي محلي... لا علم لي بسبب تكتيته بذلك ولا بتفاصيل أحواله)، الوفرائي، مصدر سابق، ص 201.
- 2- يظهر أن هناك خلط في السنوات، ففي الوقت الذي يورد فيه الباحث المذكور، إجازة أبي القاسم لابن أبي محلي، في ذي القعدة من عام 1008 هـ، نجد الباحث محمد حجي يشير على أنه قام في هذه السنة برحلته الحجية الأولى، فكيف يكون قد أجيز بفجيج في ذي القعدة وهو في نفس الشهر في موسم الحج؟ محمد حجي، الحركة الفكرية في عهد الدولة السعدية، ج 1، ص 180.

3 - تبعد عن مدينة بشار حوالي 90 كلم. وتتكون من الزاوية الفرقانية، الزاوية التحتانية، بري، كان لابن أبي محلي عائلة ثانية من قبيلة بني كومي، وثالثة من بنات الشيخ عبد القادر بن محمد السماحي الفجيجي شيخ الطريقة الشيعية

4 - من قرى واد الساورة، جاء ذكرها في رحلة العياشي تتكون من ثلاث قرى متصلة، تبعد اليوم عن مدينة بشار بحوالي 200 كلم جنوبا، ينظر الرحلة العياشية، ج 1، ص 76.

5- بما فيها مصاهرة الشيخ عبد القادر بن محمد السماحي.

6 - المرة الأولى كانت ببني عباس عام 1011هـ/ 1602م

7 - يشير عبد الكريم بن محمد البكري، أنه قدم بين عاس عام 1017هـ/ 1608م، وفي هذه الفترة احتضنت المنطقة العالم سعيد قدورة وابن أبي محلي، وكانت لهما عام 1015هـ/ 1606م دروسا مشتركة على غرار ما كان يقع في القرويين، لكن ما هو منشور من فهرسة "عالم توات" لم يرد فيها جلوسه لابن أبي محلي ببني عباس. وإن ورد فيها تتلمذه على يديه في قرية إصرت وهو في طريقه إلى المشرق في حجته الأولى.

8 - نجد الباحث حجي يشير أن ابن أبي محلي كان مستشارا للسلطان السعدي أحمد المنصور(ت1012هـ/ 1603م)، وهو الذي أمره بالصلح بين القبائل، لكن ما أورده ابن أبي محلي في مؤلفه يشير صراحة أن قبائل المنطقة هم الذين طلبوا منه ذلك(حجي، ب ت، 2/ 625-626).

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. الحديث الشريف
3. أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد أبي محلي السجلماسي العباسي، جواب ابن أبي محلي على سؤال قاضي قورارة، مخطوط بخزانة سيدي أحمد ديدوي البكرية بتمنطيط، ولاية أدرار، الجزائر.
4. البكري عبد الحميد، سلسلة علماء توات (ب. ت) و (ب. ط).
5. الوفرائي (محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله)، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية السيد: هوداس، مطبعة مدينة انجي، 1888م
6. قدوري (عبد المجيد)، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليّة الخريت، منشورات عكاظ، الرباط، 1991م.
7. سعيد واحيحي، مهدوية ابن أبي محلي الفيلاي ومخطوطه "تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة"، مطبعة Rabat Net Maroc، ط1، 2009.
8. حجي (محمد)، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ (2)، (ب. ت).
9. العياشي (أبو سالم عبد الله بن محمد)، الرحلة العياشية 1661-1663م، حققها وقدم لها: د. سعيد الفاضلي، د. سليمان القرشي، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 2006م.
10. ابن أبي محلي، الإصليّة الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت، مخطوط رقم 431 أدب، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، و 359. المخطوط بحوزتنا.

- II. عبد الرحمان بلّاغ، العلم والعلماء في رحلة عبد الكريم بن محمد البكري التمنيطي (ت 1042هـ/1632م) مقال بمجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية. العدد 5 جوان 2017.
- I2. أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى 1990.
- I3. - أبو نصر سراج الدين الطوسي، اللمع، تح: د. عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، 1960.
- I4. - عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف دار المعارف القاهرة.

العمارة الطينية في منطقة قورارة وسبل المحافظة عليها كجزء من التراث المادي

The Earthen Architecture of the Gourara Region and Ways to Preserve It as Tangible Heritage

د. بن عطيا الله عبد الرحمان: جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي (الجزائر)، abderrahman.Benatallah@univ-tebessa.dz

ملخص:

تمثل العمارة الطينية جزء من البنايات الأساسية في الصحراء الجزائرية نظرا لتوفرها بالمنطقة وملائمتها للظروف المناخية السائدة ويمكن اعتماد نموذج البناء الطيني في منطقة قورارة تيميمون كإحدى النماذج العريقة وعلى هذا الأساس تم تأسيس مركز وطني مهمته الحفاظ على التراث المادي الطيني.

الهدف من المداخلة هو التحسيس بضرورة الاهتمام بالتراث الطيني والحفاظ عليه من الاندثار خصوصا مع تطور العصر وتعويض البناء الطيني بالبناء الاسمنتي ومن النتائج المتوصل إليها هو نجاح مؤسسات الدولة وهيئات وزارة الثقافة في الحفاظ على العمارة الطينية. كلمات مفتاحية: قورارة، العمارة، الطين، التراث المادي، تيميمون.

Abstract:

Earthen architecture represents part of the basic constructions in the Algerian desert because of its availability in the region and its suitability for the prevailing climatic conditions.

The earthen construction model can be adopted in the Guourara Timimoune region as the one of the older models. On this basis, a national center was created whose mission is to preserve the material heritage of mud.

Keywords: Guourara; architecture; mud; material heritage; Timimoune.

1. مقدمة:

كان البناء الطيني أحد أساسيات العمارة في الحضارات القديمة خصوصا الحضارات الشرقية منها كحضارة بلاد ما بين النهرين والحضارة الفرعونية والحضارة الفارسية وحضارات شبه الجزيرة العربية وكذلك الأمر بالنسبة لحضارات شمال إفريقيا حيث نجد أنه في هذه الأخيرة الكثير من البنايات الطينة التي لا تزال محافظة على الكثير من خصائصها في مناطق كثيرة.

كما أن الحضارة الإسلامية استخدمت الطين في معظم بناياتها كالمنازل والمساجد ويرجع ذلك إلى توفر مادة الطين وسهولة استخدامه وتقنياته المعروفة منذ أقدم العصور وملائمة العمارة الطينية للظروف المناخية القاسية، فالمعروف أن البناء الطيني يحمي الإنسان من درجات الحرارة المرتفعة ولا يمتصها عكس الاسمنت أما في الشتاء ومع انخفاض درجات الحرارة الشديد فإن مادة الطين تساعد على تدفئة الأجواء بالمنازل والبنايات الأخرى.

وتمثل الجزائر أحد المناطق الغنية بالبناءات الطينية وخصوصا في المناطق الصحراوية حيث نجد مختلف البناءات القديمة والحديثة والتي تمثل تراث جدير بالدراسة رغم أنه في السنوات الأخيرة نجد أن البناء الاسمنتي بدأ يحتل مكانة البناء الطيني، لكن وجود جزء كبير من البناءات الطينية في حالة هجران بعد أن تولى عنها ساكنتها بانتقالهم إلى بنايات اسمنتية جعل من الضرورة صيانة تلك البنايات الطينية والحفاظ عليها كجزء من الموروث الثقافي للإنسان.

إن وزارة الثقافة الجزائرية وللحفاظ على العمارات الطينية وتصنيفها أسست مركز وطني باسم المركز الوطني للتراث الثقافي المبني بالطين ومركزه بمدينة قورارة تيميمون حاليا وهي مقاطعة تقع في غرب الصحراء الجزائرية ومن هنا نناقش في هذه المقالة وضعية العمارة الطينية في منطقة قورارة وكيف يمكن تصنيفها كجزء من الهوية الثقافية وهي لا تخص الجزائر فقط بل هي تراث انساني مشترك بين شعوب عديدة وأيضا ما هي سبل المحافظة عليها؟.

استخدمنا المنهج التحليلي الوصفي وذلك من خلال الملاحظة الميدانية ومعرفة المنطقة جيدا ومعايشتي للبناء الطيني لفترة طويلة وكذلك وجود بعض الدراسات المختلفة حول البناءات الطينية.

2. التعريف بالعمارة الطينية

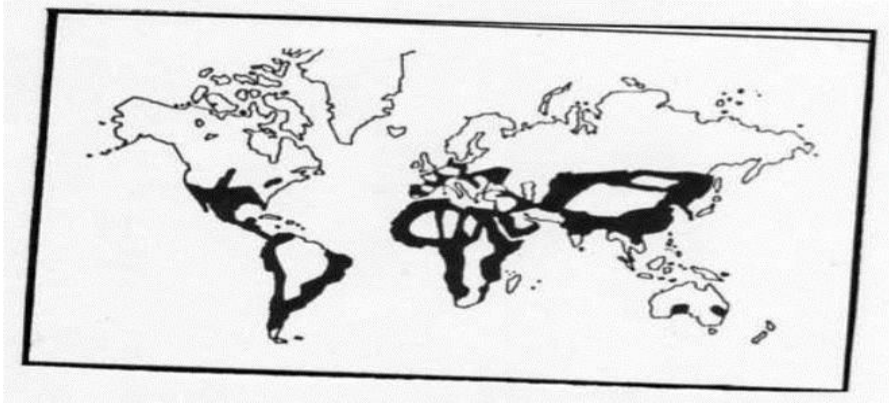
تنتج مادة الطين بعد تحلل طبقات صخور الأرض الأساسية وكذلك بسبب عوامل التفكيك المختلفة كتحرك طبقات الأرض الطبيعي والمجري المائية والرياح وتمدد الأرض بفعل التفاوت في درجات الحرارة إضافة إلى التفاعلات الكيميائية الناتجة عن تحلل النبات وتأثير المياه والأوكسجين على تلك الصخور. (الكبسي، 2010: 5).

ومادة الطين هي مادة موجودة في الطبيعة في معظم بلدان العالم وتتركز بالخصوص على ضفاف الأنهار والمجري المائية وبطون الأودية ووسط الواحات وغيرها وقد استخدم الانسان منذ القدم الطين كمادة أساسية لبناء المساكن بهدف حماية نفسه من الظروف الطبيعية ومن الحيوانات المفترسة وانتشر البناء الطيني على نطاق واسع في مختلف الحضارات كبلاد ما بين النهرين ومصر الفرعونية وحضارات الصين واستخدم كذلك في أوروبا وأمريكا اللاتينية وفي افريقيا ويوجد إلى يومنا هذا شعوب معتبرة من العالم تستمر في استخدام البناء الطيني. (الجديد، 2004: 108، 109)

ويبدو أن اعتماد كثير من الشعوب على البناء الطيني يرجع إلى سهولة استخدام الطين فالليونة التي تتميز بها هذه المادة تجعلها سهلة التشكيل والاستعمال كما أن الطين بعد تجفيفه بواسطة الشمس وإضافة القش أحيانا أخرى يصبح مادة صلبة ومتماسكة يمكنها أن تقاوم الظروف الطبيعية لفترات طويلة (محمد حسن: 4953)

كما أن سهولة استخدام الطين وتنوع مجالات استخدامه جعلت منه ميزة استفاد منها الانسان كثيرا فهو يستخدم أحيانا بشكل نيء حيث يمزج الطين بالماء ثم يجفف بأشعة الشمس بعد تقسيمه في قوالب مصنوعة، وأحيانا أخرى يستخدم بشكل محروق عندما يتم تعريضه لأفران نارية ويشوى حتى يكتسب صلابة وهي طريقة مكلفة وقليلة الاستعمال كما أنه في هذه الحالة يكتسب الطين لون ما بين الأصفر المحمر والبني وهناك طريقة أخرى لاستخدام

الطين بشكل مباشر ككتلة صلبة حينما يوضع مباشرة على الجدران أو كمادة تكسية لحماية الحوائط. (قبابلة، 2010: 76).



الشكل رقم 01: خريطة لتوزيع مناطق العالم الأكثر استخداما للطين في البناء
مصدر الخريطة (الكبسي، 2010: 6).

وايجابيات الطين الكثيرة لا تعفيه من بعض السلبيات المعروفة من بينها ضعف مقاومته للمياه الناتجة عن الأمطار والسيول أو المياه الباطنية الصاعدة من الأرض حيث تؤدي إلى تلف مادة الطين، كما أن الترسبات الملحية تساهم في تفكك الطين مع مرور الزمن، ضف إلى ذلك عدم تحمل الطين للأوزان الثقيلة فوق الأسطح، ونلاحظ أيضا تشقق جدران الطين وأسطحه بمرور الزمن تحت ضغط عوامل كالرياح والحفاف وبسبب ذلك نجد أن الساكنين للبنىات الطينة يقومون بصيانة مستمرة لمنازلهم بعد سنوات قصية لإطالة أعمارها. (قبابلة، 2010: 85).

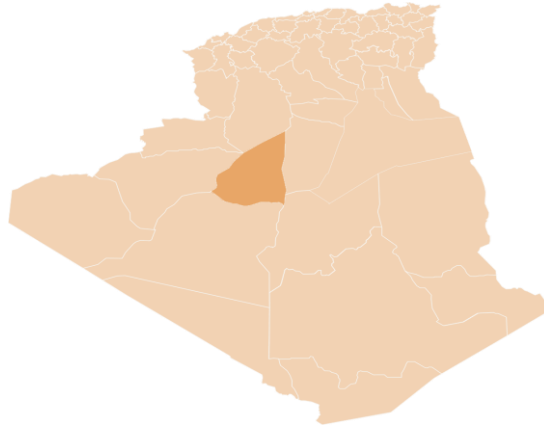
ومن جهة أخرى فإن ضعف الارتباط بين الطين والمواد الأخرى كالخشب يسبب في ترك فراغات في أعمال التسقيف والنوافذ والأخشاب يؤدي إلى تسوس وتلف الخشب كما تؤدي التشققات إلى تكاثر الحشرات والقوارض. (قبابلة، 2010: 85).

أما مجالات العمارة الطينية فهي واسعة وقد تجسدت في المنازل والأسوار والأهرام وأبراج المراقبة وأماكن العبادة والمساجد واستخدمت كذلك في تشييد الطرق وبناء السدود. (الجديد، 2004: 109، 110).

3. التعريف بمنطقة قورارة:

يرجع أصل تسمية المنطقة إلى الأصل البربري تيكورارين والتي تعني المعسكرات وهي منطقة مأهولة بالسكان ويوجد فيها ما يقرب خمسين قصرا وأكثر من مائة قرية بين حدائق النخيل (الوزان، 1983: 133)، وهي منطقة تقع بغرب الصحراء الجزائرية تتربع على مساحة حوالي 10586 كلم مربع وتعداد سكاني يفوق 50882 نسمة، (طبي، 2017) ويتميز مناخ المنطقة بأنه مناخ صحراوي حيث الاختلاف الكبير في المقياس الحراري خلال فصول السنة الأربع فتبلغ درجات الحرارة ما بين 5 و 27 درجة في الشتاء وما بين 30 و 47 درجة في الصيف كما أن التساقط المطري ضعيف لا يتعدى 50 ملم في السنة ونلاحظ زوايا رملية كبيرة خصوصا خلال فترة الربيع وعلى العموم فإن نوع المناخ السائد بالمنطقة هو المناخ الصحراوي الجاف. (تقرير مديرية السياحة والصناعة التقليدية تيميمون، 2013: 6).

ويطلق على منطقة قورارة تسمية # الواحة الحمراء # كما سماها الفرنسيون نسبة إلى جدران بيوتها الخارجية المصبوغة باللون الأحمر ووصفها الكتاب الفرنسيون بأنها أجمل الواحات الصحراوية. (تقرير مديرية السياحة والصناعة التقليدية تيميمون، 2013: 6).



الشكل رقم 02: خريطة تبين موقع مدينة تيميمون بالنسبة للجزائر

مصدر الصورة: (تقرير مديرية السياحة والصناعة التقليدية تيميمون، 2013: 6).

وعاصمة إقليم قورارة هي مدينة تيميمون التي توصف في المصادر التاريخية بأنها مدينة كبيرة منازلها متراسة ولها سوق عظيم كما أن هناك تنوع في أصول سكانها حيث نجد ألوان البشرات الحمراء والبيضاء والسوداء وتنتشر حول عاصمة الإقليم مجموعة كبيرة من القصور مثل بادريان، القصبة، أعلاملال، زقور الكاف، ايغزر، طرواية، ثلاث، زاوية بلقاسم، ليشتا، سموطة، أومراد...ألخ. (بوتدارة، 2016: 32).

وقد تميزت المنطقة بالدور التاريخي الهام في حركة التجارة نحو بلاد السودان حيث تصل بين مدن ومراكز الشمال بالمغرب الإسلامي ومدن وحواضر إفريقيا جنوب الصحراء باعتبارها محطة للقوافل التجارية، (بيدة، 2018: 1)، ووصف الحسن الوزان منطقة تيميمون بأن سكانها أغنياء لأنهم اعتادوا على الذهاب كثيرا بسلعهم إلى بلاد السودان وكان تجار تيميمون ينتظرون تجار بلاد السودان للسفر بشكل جماعي. (الوزان، 1983: 133).

أما في الوقت الحاضر وبفعل العوامل التاريخية والطبيعية لمدينة تيميمون وموقعها الاستراتيجي فقد تحولت إلى وجهة سياحية هامة للسياحة الصحراوية خصوصا في فصول الخريف والشتاء والربيع الممتدة من أكتوبر حتى ماي ويزورها كل من يبحث عن متعة الكشبان

الرملية والمغارات والقصبات القديمة ووحدات النخل الكثيفة والأشجار والنباتات الصحراوية وهي بذلك تختزل كل متطلبات السياحة الصحراوية. (تقرير مديرية السياحة والصناعة التقليدية تيميمون، 2013: 6).

3. نماذج من البناءات الطينية في منطقة قورارة:

1.3: المنازل السكنية: عرفت منطقة قورارة البناء الطيني منذ أقدم العصور وكان الطين المادة الشائعة الوحيدة للبناء قبل ظهور الاسمنت حيث تعم ظاهرة بناء المنازل الطينية على كافة أرجاء المنطقة، وقد بنيت المنازل في تجمعات سكنية صغيرة وأحيانا كبيرة أطلق عليها اسم القصور وتكون قريبة من مصادر المياه ومن الواحات المخصصة لمختلف الزراعات المحلية، كما تتشابه المنازل بقصور الصحراء حيث لا تتجاوز 100 متر مربع وتتكون من طابقين وسطح وعتبة تقي المنزل من دخول الأتربة وتمنع من خروج الهواء البارد خلال أيام الحر، كما أن المنزل الصحراوي مصمم لأن يبقى مفتوح طول النهار دون أن يتمكن من الخارج رؤية ما يجري بالداخل. (بامون، 2015: 81، 82).

وتعد مادة الطين من أكثر المواد المتوفرة في البيئة كما أشرنا إلى ذلك سابقا وهو ما يفسر الاعتماد عليه بشكل كبير في بناء السكنات بمنطقة قورارة، كما أن سهولة استخدامه وليونته وملائمته للظروف المناخية عوامل أخرى ساهمت في الاعتماد عليه. (حوتية، 2012: 46).

كما أن المنازل السكنية لا تستخدم الطين فقط في كل مراحل البناء بل هناك مواد أخرى داعمة كالحجارة في الأسس والخشب في الدعامات والجير في التكسية ومكونات أخرى للتبليط والتزيين، لكن الطين يبقى أحد المواد الأساسية وأكثرها استخداما في كل المراحل. (مهرداد، 2021: 191).

2.3: الأضرحة: قيل عن الضريح هو الشق الذي يكون في القبر أو هو القبر كله أما من الناحية الاصطلاحية فإن الضريح هو البناء الذي يشيد فوق القبر كما تعلو الضريح قبة وهو معروف

بتصميمه البسيط وعادة ما ينسب الضريح إلى شخص يكون رمز معروف في المنطقة كما هو حال أولياء الله الصالحين بمنطقة تيميمون. (دويده، 2015: 6)

ونجد أن ظاهرة بناء الأضرحة منتشرة في أغلب قصور منطقة قورارة فهي منطقة معروفة بانتشار كبير لأولياء الله الصالحين الذين تقام لهم طقوس وعادات سنوية تخليدا لذكراهم ومن هذه الطقوس إقامة الوعدات وتقديم الطعام للضيوف القادمين من مختلف أنحاء الجزائر، كما تقام الاحتفالات المحلية خلال تلك المناسبات وتردد القصائد والأذكار. (طلحة، 2017: 84، 85)



الشكل رقم 03: ضريح لأحد الأولياء الصالحين (سيد الحاج بلقاسم) بمنطقة قورارة مبني بالطين ومصبوغ بالجير

مصدر الصورة: (بيده، 2018: 1)

3.3 الفقرات: بالنظر إلى حاجة القصور الصحراوية للمياه من أجل السقي وري المنتجات الزراعية والأعمال المختلفة فقد بنى الإنسان في منطقة قورارة الفقارة وهي مجموعة من الآبار المتصلة ببعضها البعض تصل بالمياه إلى الأحياء السكنية ورغم أن الآبار عبارة عن أنفاق داخل الأرض إلا أن الجزء العلوي أحيط بشكل هندسي دائري مبني بالطين، (بن حاج علي، 2012:

(7) كما أن نظام الفقارة يعمل على استخلاص المياه من باطن الأرض إلا أن ماؤها نجده جاريا على سطح الأرض وهو ما يؤكد قدرة الانسان على التكيف مع البيئة. (بوسعيد، 2012)

ويعد الطين أحد المواد الأساسية المستخدمة في بناء الفقارات وتصريف مياهها في جميع المراحل فهو لا بد أن يكون محضرا من قبل مثلا في عملية الكيل فعليه تنصب الشفقة (آلية التوزيع) وبه تسد جوانبها وثقوبها وبه تبني القيسرية (محطة توزيع المياه) وتبنى أوائل المجاري من القيسرية. (حرمة، 2019:626).



الشكل رقم 04: أحد أجزاء الفقارة المصنوعة من الطين
مصدر الصورة: (معروف، 2011: 169)



الشكل رقم 05: أحد أجزاء الفقارة المصنوعة من الطين
مصدر الصورة: (معروف، 2011: 169)

4.3 القصور: تزخر الصحراء الجزائرية بصفة عامة ومنطقة تيميمون بصفة خاصة بالعديد من القصور التي بنيت من مواد طبيعية كالطين والخشب والطوب وهي مواد تلائم البيئة

الصحراوية المعروفة بارتفاع درجة حرارتها في الصيف وانخفاضها خلال فصل الشتاء وتساعد تلك المواد على تعديل درجة الحرارة حسب كل فصل. (منصوري، 2015: 159).

والمقصود بالقصور هي مجموعة من السكنات المتلاحمة ببعضها البعض مشكلة قرية أو مدينة محصنة وتكون هذه التجمعات عادة في أماكن استراتيجية مرتفعة عادة وتحيط بها أسوار وأبراج مراقبة، كما أن تلك التجمعات يجمعها نظام اجتماعي واقتصادي ومذهبي واحد (عياش، 2022: 40، 41)، ويعتبر الطين أحد دعائم بناء القصور الصحراوية فهو يستخدم لبناء لبنات الطوب وفي الجدران وفي الأسقف ويختلف لونه حسب طبيعة كل منطقة فهناك الطين الأسود والطين الأحمر والطين الأصفر والطين الأبيض. (منصوري، 2015: 160).



الشكل رقم 06: قصر ايغزر بضواحي مدينة تيميمون

مصدر الصورة: (موقع وكالة الأنباء الجزائرية - <https://www.aps.dz/ar/regions/43355-2017-05>)

(19-13-30-31)

4. إنشاء المركز الجزائري للتراث الثقافي المبني بالطين:

هو مؤسسة عمومية تابعة لوزارة الثقافة واختصارها (CAPTERRE) تم إنشاؤه بموجب المرسوم رقم 79.12 المؤرخ في 19 ربيع الأول 1433 الموافق لـ 12 فبراير 2012، و الكائن مقره بولاية تيميمون (ولاية أدرار سابقا) وقد تم تأسيس المركز كإرادة من الدولة لحفظ التراث

المعماري الطيني من الزوال وتثمينه لأنه يمثل جزء مهم من هويتنا وثقافتنا المتنوعة عبر العصور. (موقع المركز الجزائري للتراث الثقافي المبني بالطين

<https://capterre.dz/?m=202012> تاريخ الزيارة 2022.11.20)

تم تنظيم المركز بتقسيمه إلى ثلاث أقسام: قسم إداري وآخرين تقنيين وتسهر كل الأقسام على المهام المكلفة بها، فالقسم الإداري يشرف على كل ما يتعلق بمهام المتابعة والتسيير، أما الأقسام التقنية فالأول قسم التثمين ومهمته إعداد دراسات وأبحاث بهدف تحسين وتطوير تقنيات حفظ المعمار الطيني من حيث الترميم والصيانة كما يعمل القسم على جرد البنايات الطينية ووضع الإطار القانوني لها بهدف حمايتها وضمان المراقبة التقنية لها. (موقع المركز الجزائري للتراث الثقافي المبني بالطين <https://capterre.dz/?m=202012> تاريخ الزيارة 2022.11.20).

في حين يقوم قسم الترقية بضمان جميع مهام الاستشارة والاعلام التي من شأنها ترقية العمارات الطينية ومن جهة أخرى تطوير البرامج التعليمية والبيداغوجية وتنظيم التظاهرات الثقافية والعلمية والمشاركة فيها خصوصا التي لها علاقة بالعمارة الطينية كما يعمل على تكوين رصيد وثائقي (مكتبة، خرائط، صور...ألخ. (موقع المركز الجزائري للتراث الثقافي المبني بالطين <https://capterre.dz/?m=202012> تاريخ الزيارة 2022.11.20)



الشكل رقم 07: قصر ايغزر بضواحي مدينة تميمون

مصدر الصورة: موقع المركز الرسمي على الانترنت <https://capterre.dz/?cat=28>

5. نشاطات المركز الجزائري للتراث الثقافي المبني بالطين:

كما أشرنا في السابق فإن المركز الجزائري للتراث الثقافي المبني بالطين أنشأ من طرف الدولة الجزائرية لحماية العمارة الطينية وترميمها وتطويرها كجزء من الهوية الوطنية ومن أهم النشاطات التي يقوم بها المركز في سبيل ذلك نجد:

1. تحديد وجرد التراث الثقافي المبني بالطين من حيث احصاءه وكشف المهارات المرتبطة

به بولايي تيميمون وأدرار.

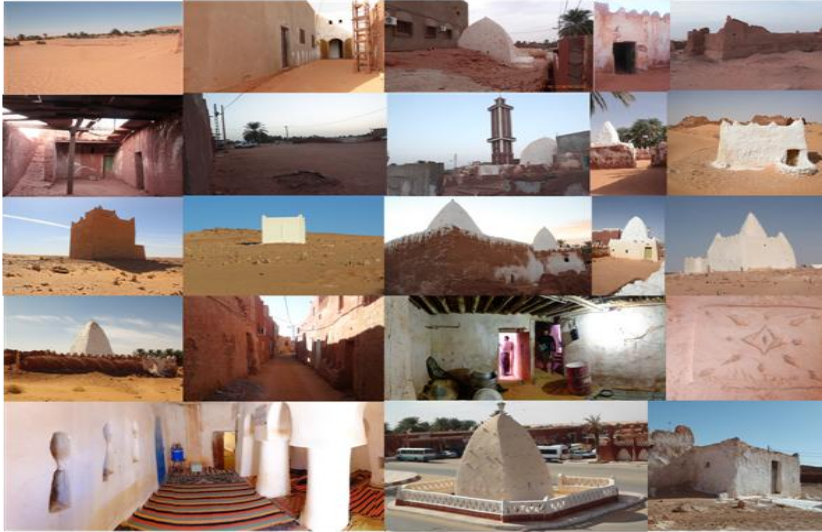
2. التعريف بالمركز في مختلف النشاطات العلمية المحلية الدولية والوطنية.

3. التعامل مع المختصين في المؤسسات العمومية والخاصة في إطار ترميم العمارة الطينية

4. تقديم المعلومات حول دور المؤسسة ويدخل في إطار الجانب التوعوي كما تقدم دورات

للتحسيس

وفيما يلي جانب من نشاطات المركز:



الشكل رقم 08: جانب من جوانب نشاط المركز المتعلق بالجرد والإحصاء

مصدر الصورة: <https://capterre.dz/?cat=26>



الشكل رقم 09: جانب من جوانب نشاط المركز المتعلق بالتعاون الأجنبي مع مركز البحث والتطبيق في التربة والملحق بالمدرسة الوطنية العليا للهندسة المعمارية بغرونوبل بفرنسا (CRATerre-ENSAG)
مصدر الصورة: <https://capterre.dz/?cat=26>



الشكل رقم 10: جانب من جوانب نشاط المركز المتعلق بالتعاون مع الوكالة الوطنية لإنجاز وتسيير جامع الجزائر لإنجاز لوحات زخرفية زناتية بالطين
مصدر الصورة: <https://capterre.dz/?cat=26>



الشكل رقم 11: جانب من جوانب نشاط المركز المتعلق بالقيام بتنظيم أيام تحسيسية

مصدر الصورة: <https://capterre.dz/?cat=26>

5. خاتمة

من خلال الدراسة توصلنا إلى مجموعة من الاستنتاجات:

1. تزخر منطقة قورارة تيميمون بالعديد من البنايات الطينية العريقة والكثير منها مهجور بسبب اللجوء إلى العمارة الاسمنتية من طرف السكان المحليين
2. تظهر البنايات الطينية المهجورة وكأنها متحف مفتوح على الهواء الطلق مما يبين إمكانية استخدامها للتنمية المحلية خصوصا في إطار القطاع السياحي فضلا عن كونها اراث معماري ثقافي وعلمي يعبر عن الهوية الوطنية
3. تتنوع المنشآت الطينية في منطقة قورارة ما بين المنشآت المدنية (القصور، المنازل، البوابات) والمنشآت الدينية (الأضرحة والمساجد) والمنشآت الفلاحية (منشآت الري)
4. جاءت فكرة انشاء مركز وطني يهتم بالعمارة الطينية كفكرة نادرة ويبدو أنه المركز الوحيد في المنطقة العربية الذي يعمل على الحفاظ على البناء الطيني من خلال حمايته وتصنيفه وترقيته.

5. يقوم المركز الجزائري للتراث الثقافي المبني بالطين بنشاطات كثيرة تدخل في إطار الأهداف التي أنشأ من أجلها مثل جرد البنايات الطينية في المنطقة وحمايتها قانونيا وترميمها وتحسيس المجتمع بأهميتها.

6. تشكل العمارة الطينية جزء من التراث والهوية الوطنيتين ويمكن أن نعمل على تصنيفها في التراث العالمي نظرا لأهميتها وملائمتها للطبيعة خصوصا مع تغير المناخ والدعوة إلى الرجوع للأساليب التي تخفف من انبعاثات الغازات وبالتالي فإن العمارة الطينية صديقة للبيئة.

6. قائمة المراجع

15. الجديد منصور بن عبد العزيز ، عمارة الطين في البلاد العربية والبلاد الغربية مجلة مركز وبحوث دراسات المدينة / المنورة، مجلد 2004 العدد 8 (30 مايو/أيار 2004).
16. الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج 2، تر، محمد حجي، محمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983.
17. الكبسي أشرف علي ، تفعيل استخدامات الطين في البناء، نحو تنمية عمرانية مستدامة في اليمن، ندوة التنمية العمرانية الأولى: التطوير العقاري والإسكان المستدام، الدمام، 25_27 أكتوبر 2010.
18. بامون أمنة، مجتمع القصور شاهد حي لهوية أمة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، م7، ع22، عدد خاص بالملتقى الدولي تحولات المدينة الصحراوية، تقاطع مقاربات حول التحول الاجتماعي والممارسات الحضرية، 2015.
19. بن حاج علي حمزة ، التراث الثقافي لمنطقة تيديكلت، دراسة تاريخية أثرية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 2، معهد الآثار 2012.
20. بوتدارة سالم ، الحركة العلمية بالجنوب الجزائري، خلال العهد العثماني، على ضوء المصادر المحلية، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ جامعة سيدي بلعباس، 2016.
21. بوفلجة حرمة من الموارد الجوفية في أدرار الجزائرية، الفقرة نظام كيلها وسوقها المائية، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، الجلفة، ع 2، 2019.
22. بيده عبد الرزاق، أسبوع المولد النبوي الشريف بإقليم قورارة، دراسة أنثروبولوجية، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 2018.
23. حسن فاطمة أحمد محمد ، تكامل البناء بالطن والمعالجات التصميمية للفراغات الداخلة للمبنى، مجلة العمارة والفنون، ع 11، ج2.
24. دويده نفيسة ، المعتقدات والطقوس الخاصة بالأضرحة في الجزائر خلال الفترة العثمانية، مجلة انسانيات ع 65، 2015.
25. طلحة بشير، منطقة قورارة بين الثبات والتحول، دراسة سوسيوأنثروبولوجية عن منطقة تميمون، مجلة العلوم الاجتماعية، ع 25، جويلية 2017.

26. طيبي عبد الله ، قورارة تراث وثقافة، مجلة البدر، م 9، ع 12، جامعة بشار، 2017.
27. عياش محمد، القصور الصحراوية واستحكاماتها العسكرية بالجنوب الجزائري، قصري تاغيت والقنادسة أنموذجا، *المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية*، م 14، ع 1، 2022،
28. قبالة مبارك، تطور مواد وأساليب البناء في العمارة الصحراوية، رسالة ماجستير، جامعة بسكرة، 2010..
29. محمد ، عوامل وأسباب اندثار القصور الصحراوية وسبل المحافظة عليها، قصور منطقة توات أنموذجا، مجلة منبر التراث الأثري، ع 4، 2015.
30. مهرداد الزوير، مواد وطرق البناء الطيني التقليدي، مجلة الثقافة الشعبية، ع 52، البحرين، 2021.
31. *er Séminaire International sur la Ressource en eau au sahara : Evaluation, 1 Economie et Protection, le 19 et 20 janvier 2011(ouargla*
32. حوتية عفيفة، مظاهر العمارة التقليدية في منطقة قورارة (تيجورارين) بالجنوب الغربي الجزائري، قصر اغزر بتميمون أنموذجا، دراسة شخصية توصيفية، مجلة روافد للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، ع 10، 2011

المواقع الالكترونية

- مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية تيميمون <https://timimoun.mta.gov.dz>
- موقع جامعة أدرار <https://www.univ-adrar.edu.dz>
- موقع وكالة الأنباء الجزائرية <https://www.aps.dz>
- موقع المركز الجزائري للتراث الثقافي المبني بالطين <https://capterre.dz>

التراث الساورى فى الخطاب السردى لجميلة طلباوى -دراسة نماذج-

The Sauri Heritage in DjamilaTalbawi's Narrative Discourse -study of samples-

أ.د محمد الأمين خلادي: جامعة أحمد دراية -أدرار (الجزائر)، alaminek@univ-adrar.edu.dz

أ.د العيد علاوي: المركز الجامعي نور البشير -البيضاء (الجزائر)، l.allaoui@cu-elbayadh.dz

ملخص:

يجنح الكتّاب والمبدعون إلى الاحتفاء بتوظيف تراثهم المتنوع في أعمالهم الأدبية؛ خدمة لتراثهم وأعمالهم، وما من شك أن خدمتهم لتراثهم بهذا المعنى تتجلى في التعريف به، وحفظه من خلال ربط الأجيال المتعاقبة به، ولفت أنظار المسؤولين إلى الاهتمام به، وينعكس هذا إيجابا على أعمالهم؛ إذ تأتي محملة بالدلالات الفكرية والبنى المعرفية، مصبوعة بصبغة جمالية، تضمن لها الجودة والخلود. تهدف هذه الدراسة التي عُنوانت بـ"التراث الساورى فى الخطاب السردى لجميلة طلباوى-دراسة نماذج" إلى تتبع التراث الساورى الموظف فى هذا العمل، والكشف عن دلالات الكاتبة ومقاصدها، وإبراز عبقرية العقل الساورى وإبداعه المائلين فى موروته. كلمات مفتاحية: التراث، الساور، الخطاب، السرد، جميلة طلباوى.

Abstract:

Writers and artists tend to celebrate their diverse heritage in their literary works, trying to enrich their culture and the writings.

In fact, such interest in cultural heritage will reflect on its definition, and protect this heritage through connecting generations together. Further benefit, it will direct the administrators' intentions to take care of people's culture. All this will result on the literary works that are loaded with intellectual connotations and cognitive constructions, dyed for aesthetics which give them quality and timelessness.

This study, entitled with "Sauri Heritage in Narrative Discourse by Djamila Talbawi", aims to track this work and the Sauri heritage included in it. Additionally, it seeks to reveal denotations and connotations of the writer. It sheds light on also the brilliant and creative Sauri mind that is detected in his/her work.

Keywords : heritage , Sauri, discourse, narrative , Djamila Talbawi

1. مقدمة:

نهدف أساسا إلى تحقيق مخرجات تعنى باستنباطات تطبيقية، تركز على ظلال النماذج المختارة، بقراءتها فى ضوء النقد السياقي تاريخا نفسيا واجتماعيا، وأحيانا نعرج

بالمشاهد إلى مكاشفة النسق وتشكلاتها السردية البيانية والجمالية والبلاغية وتلقمها من قبل القراء والمطالعين الباحثين عن جواهر الخزانة التراثية التي تزخر بها الساوره، من وراء الكلمة والصورة والمجاز والرمز سردا، ترقم تحفته التاريخية والحضارية أنامل الروائية الواعدة جميلة طلباوى.

ولبلوغ مآربنا تلك اختطينا منهجية العرض مكونة من: مقدمة، ثم قسمين؛ نظري نلفت عناية القارئ إلى تأثيرات المصطلح ومنظومة المفاهيم، مع ترجمة العلم المعنى بالتأليف؛ وتفصيل ذلك: التراث، الموروث...الدلالة والمفهوم، ترجمة الكاتبة جميلة طلباوى، التراث والإبداع الأدبي أي علاقة؟

ثم تطبقي احتوى: أعمال جميلة طلباوى والتراث الساورى، بحث فى الأنواع والتجليات، التراث ونوعاه، تجليات نوعي التراث فى أعمال جميلة طلباوى، التراث المادى فى قصص "وردة الرمال" (2006)، التراث اللامادى فى قصص وردة الرمال، التراث الساورى ومظاهر عبقرية الإنسان الساورى، وتتوالى سرود طلباوى راصدةً مُستورثةً مشاهد التراث الساورى فى "تيمات ونماذج" متنوعة: "شاء القدر" (2006) انثيالات الويلات على نورة ونبيل وسط مجتمع الأنانية والحسد، أولى خطيئات الخليفة: قابيل وهابيل اليوم من جديد متجدد، "أوجاع الذاكرة" (2008) ناصر والمكان؛ اغتراب الانفصام بين نادية والبتول، " كمنجات المنعطف البارد" (2012)، "تلوسان" نموذج الصحراء الساورية وتفاصيل الكدح والضياغ، "الخابية" (2014) استنطاق الساورى تراب وطنه ورمل أرضه؛ صناعة الخلق من إيجاد الحق تعالى، " الغار؛ تغريبة القندوسى"، بصمة جميلة البشّارية الجزائرية: تأريخ لعار فرنسا الخبيث فى غار القنادسة الطيب.

2. التراث، الموروث...الدلالة والمفهوم:

ننطلق ههنا من بيان المراد من التراث، إذ الأساس الأول لنجاح العملية التواصلية هو ضبط المصطلحات وتحديداتها، فالمتأمل فى تعريف "علي القاسمي" للتراث يلفيه قد ضمن فى تحديده ذاك عدّة أفكار أهمّها: (علي القاسمي، 2017، الصفحات 7-9)

- أن التّراث، انطلاقاً من الدّلالة اللّغويّة، لفظ يطلق على كلّ ما يخلفه الميت لورثته من تركة، سواء أكانت مالا أو مجداً أو عقيدة أو علماً أو فكراً، وأشار أيضاً إلى نوعي التّركة (المادّية والمعنويّة).

- وأن استعمال لفظ التّراث فى القرن العشرين دلّ على ما ورّثه العرب عن أسلافهم من حضارة. -تعيّز لفظ التّراث فى دلّالته الخاصّة عن لفظين آخرين مشتقّين من الفعل "ورث"، وهما "الإرث" و"الميراث"، إذ إنهما يشيران إلى نصيب كل فرد من تركة الميت؛ فهما يقتضيان وفاة الأب وحلول الابن محلّه، ويشير التّراث فى دلّالته الحديثة إلى الإرث الفكرى والثّقافى الذى وصلنا عن أسلافنا على مرّ العصور، وما يزال فاعلاً فى ثقافتنا السّائدة.

- دلالة لفظ التّراث اليوم على كلّ ما خلّفه لنا الأجيال السّابقة من معارف (العلوم الإنسانّيّة والعلوم الأساسيّة والطّبيعيّة)، وقيم (أنماط تفكير وسلوك، وعادات ومثُل)، نُظُم ومؤسّسات (الأسرة، المسجد، المدرسة، الأوقاف...)، إبداع وصنع (الغناء، الموسيقى والتّراث الشّعبيّ والفنون المعماريّة والزّخرفيّة والتّصويريّة..).

ومن هذا المنطلق، يتجلى أن التراث لفظ عام يشمل جميع ما يُفترض أن يتقبله الوارث، سواء أكان فرداً أم جماعة، بالقبول والفخر والاعتزاز، بصرف النظر عن نوع الموروث (مادى، أو معنوي)، فمن شأن هذا أن يحفظ للفرد والجماعة هويّتها وعمقها التاريخي وعبق حضارتها. وهنا ينبغى التنبيه إلى أهميّة بحث هذا التراث ودراسته، فالدراسة، بعد الجمع والرصد، من شأنها تفسير الظواهر، وهذا الأمر له دور كبير فى نهضة الأمم والمجتمعات.

3. ترجمة الكاتبة جميلة طلباوى:

المهندسة والإعلامية والكاتبة جميلة طلباوى قاصّة وشاعرة من مواليد ولاية بشار الجزائر، خريجة جامعة مهندسة دولة فى الميكانيك- تركيب حرارى، إعلامية بالإذاعة الجزائرية، لها عدة مؤلّفات منها: شظايا(مجموعة شعرية)، وردة الرمال(رواية قصيرة) شاء القدر(رواية قصيرة)، أوجاع الذاكرة(رواية قصيرة)، أوجاع الذاكرة (ضمّت أوجاع الذاكرة و قصص أخرى)، ولها أيضا: وادى الحناء، والخابية، والغار -تغريبة القندوسى، حصلت على الجائزة الأولى فى القصّة القصيرة عن مسابقة جمعية رضا حوحو ببشار الثقافية - الجزائر عام 1991م، و جائزة أحسن منشطة إذاعية عن مسابقة نظّمها إذاعة تبسة - الجزائر عام 1996م. (جميلة طلباوى، 2009)

. التراث والإبداع الأدبى أى علاقة؟

لا يمكن، بحال، إنكار العلاقة بين التراث والإبداع الأدبى أو إخفاؤها، ذلك أن العمل الإبداعى الأدبى بمجرد إفراغ الكاتب من إنتاجه وتوجيهه إلى القراء يصير من التراث باعتباره تجربة إبداعية يحوى خلاصة تجارب أو معارف أو يُترجم أفكارا أو نظرة للحياة...، ويرتبط التراث بالعمل الإبداعى (شعر، قصة، رواية...) من حيث إن الكتاب يشغلون على توظيف التراث، فيخرجون من التوظيف إلى تحقيق مقاصد أخرى، نحو التعريف؛ التعريف بالتراث. وفى هذا السياق أورد "محمد رياض وتار" الدوافع التى أدت إلى توظيف تراث البيئة المحلية فى الرواية العربية، فجعلها نوعين: دوافع خارجية ودوافع ذاتية، وبَيّن أن الذاتية تتجلى فى « تأثير الرواية الأمريكية اللاتينية التى اهتمت بالمكان، فصورت بيئات كانت مجهولة، وغاصت فى أعماق التاريخ، حتى وصلت إلى الأساطير والحضارات القديمة، كحضارة "المايا"»، (محمد رياض وتار، 2002، صفحة 217) وذهب فى بيان الدوافع الذاتية إلى ما يلى: (محمد رياض وتار، 2002، الصفحات 218-219)

1- يمكن أن يكون الإخلاص سببا عاما يدفع الروائى إلى تناول بيئته المحلية.

2- رغبة كاتب السيرة الذاتية في إطلاع الآخرين على البيئة التي ربي فيها.

3- الحنين والشوق إلى البيئة المحلية في حالة كون الروائي مبعدا عنها أو بعيدا.

4- البيئة المحلية خامة حكاية.

5- رغبة الكاتب في فضح بيئته الغارقة في التخلف. (محمد رياض وتار، 2002، صفحة 219)

6- طرح الهوية الخاصة في سبيل قطع الصلة بالرواية الغربية، والتأسيس لرواية ذات صبغة عربية شكلا ومحتوى. (محمد رياض وتار، 2002، صفحة 219)

إن بعض الكتّاب، من خلال الاستناد إلى هذه الآلية، يعملون، أو يراهنون، على تشكيل هوية نصوصهم، الأمر الذي يمكن من وسم أعمالهم بنصوص الهوية، وذلك بالنظر إلى الأشكال التراثية التي يوظفونها. ومن الوجيه، ههنا، الإشارة إلى الدلالة الوظيفية للأدب، فقد يّين "سفيتان تودوروف" ذلك بقوله: «إن كيانا أدبيا يؤدي عمله في ميدان العلاقات بين الأشخاص والعلاقات الاجتماعية... يشهد على وجود عناصر تمكننا من التمييز بدقة بين ما نشير إليه عبر كلمة "أدب" وهو قائم وسط نظام أكثر اتساعا هو هذا المجتمع أو ذاك وهذه الثقافة أو تلك...»، (تزفيتان تودوروف، 2002، صفحة 6) وميّز بين الكيان البنيوي والكيان الوظيفي للأدب في مضمون قوله بأن الكيان الوظيفي للأدب جزء من بنية هي بنية المجتمع، فالبنية مكونة من وظائف، والوظائف تنشئ بنية، ووجود كيان هو الأدب يستدعي كيانا بنيويا، وليؤكد هذا المعنى (المعنى الوظيفي للأدب) استدعى الكاتب بعض الأقوال نحو: الفن هو تفعيل الحقيقة، أو الشعر تأسيس الوجود على الكلام، ليرز أن الأدب بهذا المعنى يعبر عن أمنية عما يكون هذا وذاك. (تزفيتان تودوروف، 2002، صفحة 7)

وتأسيسا على هذا الفهم، فتوظيف التراث في العمل الأدبي ينطلق فيه المبدع من بنية اجتماعية ويتوجه بها إليها أو لبنية غيرها، وبيتغي من ذلك تحقيق وظيفة أو وظائف معينة،

وتلك الوظائف هي المعبر بها، في الغالب، بالمقاصد، فالمبدع قد يوظف التراث بغرض إعلامي تعريفي، أو بغرض تعليمي تثقيفي، أو بغرض حجاجي، أو بغرض توجيهي...

5. أعمال جميلة طلباوي والتراث السائوري...بحث في الأنواع والتجليات:

تتبع الباحث "عبد الرحمن بلاغ" لفظ "واد السائورة" أو السائورة من حيث التسمية والمجال، وأهم ما وقف عليه في دراسته هو أن "السائورة" أطلقت على مجال عمراني، وأخذ الوادي التسمية بعد ذلك، وأن هذا المجال يسمى بـ"أوادي السائورة" و"وادي الأساور" في أدبيات رحالة القرن 11هـ/17م، وأن هذا المجال العمراني أطلق على الإقليم الممتد من "إكلي" (أنظر التعليق رقم: 1) إلى "توات"، ومن الاحتمالات التي وضعها الباحث في مسهل تحقيقه هو أن الواد خلال مطلع القرن 11هـ/17م كان أطول أودية المغرب إلا أنه أقلها فائدة وأكثرها مخافة، ولذلك سمي واد الأساورنسبة إلى السوار الذي تضعه المرأة، وذهب إلى أن القول بأن لفظ الأساورالبدال على الفارس المقاتل يشير إلى المجال استقرت فيه قبائل عرفت بالفروسية والإغارة. (عبد الرحمان بلاغ، 2015، الصفحات 11-21)

والمسجل في هذا الجانب أن اللفظة "السائورة" امتدت إلى مجالات حيوية أخرى، ففي مجال الإعلام حملت الإذاعة الجهوية المحلية اسم السائورة، وفي المجال الرياضي حمل الفريق الولائي اسم "شبيبة السائورة"، ويذكر في المجال العلمي والبحثي أن بجامعة بشار مجلة محكمة تحمل مجلة السائورة وهي مختصة في الدراسات الإنسانية والاجتماعية، والمستفاد أن هذه التظاهرات تدل على الارتباط الحضاري والاستفادة من التاريخ والتمسك بالمعطى الجغرافي الذي يمثل المشترك، ذلك أن العمل على المشترك من شأنه أن يعزز المواطنة والوحدة ويبعث الحياة.

1.5. التراث ونوعاه:

تواتر في الأوساط العلمية والثقافية تقسيم التراث قسمين: تراث مادي وتراث لامادي؛ فالتراث المادي أو الثقافة المادية يندرج ضمنها الأشياء المادية والخبرات المتوارثة المتعلقة بشؤون العمل، وتنقسم هذه الثقافة إلى عدة فروع مثل: الحرف والمهن والعمارة والأدوات المنزلية وأدوات الطعام والأدوات الزراعية والفلاحة والأسلحة... (محمود مفلح البكر، 2009، صفحة 247) ويدل التراث اللامادي على الممتلكات الثقافية غير مادية؛ وهو لفظ يراد به مجموعة المعارف أو التصورات الاجتماعية أو معرفة أو مهارة أو كفاءات أو تقنيات قائمة على التقاليد في مختلف ميادين التراث الثقافي باعتبارها دلالات حقيقة للارتباط بالهوية الثقافية، ويحوزها شخص أو مجموعة أشخاص، ويشمل تحديدا علم الموسيقى العريقة، والأغاني التقليدية والشعبية والأناشيد، والألحان، والمسرح، فن الرقص، والإيقاعات الحركية، والاحتفالات الدينية، وفنون الطبخ، والتعبير الأدبية الشفوية، والقصص التاريخية، والحكايات، والحكم، والأساطير، والألغاز، والأمثال، والأقوال المأثورة والمواعظ، والألعاب التقليدية. (الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 1998/1419، صفحة 13)

2.5. تجليات نوعي التراث في أعمال جميلة طلباوي:

1.2.5- التراث المادي في قصص وردة الرمال (2003):

ضمنت جميلة طلباوي أعمالها السردية جملة من الأشكال التراثية، فمن الأنواع المادية نذكر: الزرب، (أنظر التعليق رقم: 2) القصر، (أنظر التعليق رقم: 3) الضريح، (أنظر التعليق رقم: 4) الخابية، (أنظر التعليق رقم: 5) الخطارة، (أنظر التعليق رقم: 6) النادر، النقوش الصخرية، وبعض الأماكن السياحية.

-الزرب: جاء في حوار دار بين زينب وزوجها أحمد حين سألته قائلة: «لكن لماذا نصبت كل هذه الأعداد من سعف النخيل على الكثبان؟!»، (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 7) فجاء

جوابه: « هذه العملية تسمى "تزراب"، تقام لوقف زحف الرمال». (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 7)

-القصر: تردد ذكر القصر كثيراً في القصص، فقد جاء أن الصغيرة نورة وقفت مشدودة للوحة التي رسمها أحمد وتقول ببراءتها: رسمت القصر؟! (جميلة طلباوي، 2003، الصفحات 20-21) وجاء أيضاً في وصف أحمد و الصغيرة نورة « يبتسم أحمد ويقول لها: هل أعجبتك اللوحة؟

تشير الصغيرة بأصابعها إلى بقايا القصر القديم في أعلى المرتفع مؤكدة بأن اللوحة مطابقة للواقع وقد أدهشتها طريقة الرسم بالرمال» (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 21) ومن تلك المواضع قول الساردة « والمرأة هنا صلبة لا تريد أن يكسرها المرض ولا أي شيء فأعمالها كثيرة، هي تصنع خبزها فلا توجد في القصر مخبزة...» (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 23) وجاء في وصف خضرة « خضرة شابة في ربيعها الخامس والعشرين لها ستة أطفال وزوج فقير كباقي سكان القصر»، (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 24) ووصفت مريم إبراهيم التي رفض والدها تزويجه منها « هو أحسن شاب فالقصر، كون جمعية للتعريف بثقافة القصر من فلكلور غنائي ورقص وشعروصناعة تقليدية، وهو يسعى جاهداً للتعريف بكنوز قصرنا»، (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 26) ونقف عند هذا الحد من التمثيل للقصر، فقد اطرده ذكره كثيراً في المدونة.

- الضريح: جاء ذكره في عرض ما دار بين خالتي الزهرة وزينب، فقد حضرت لها خالتي الزهرة الأكلة التقليدية التي جاء وصفها بـ «أوراق العجين المطهية تتخللها طماطم، البصل، الشحم، التوابل»، (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 21) فخالتي الزهرة تعتقد أن ضريح الولي الصالح قد ينفع طبيب زينب فتنجب طفلاً « كلي يا طبيبة كانش ما ربي يجيب

وتلتصق اللقمة بحلق زينب، تفقد القدرة على البلع، تسرع إليها مريم بالماء، تشربه لتفقد رغبته في الأكل وخالتي الزهرة تؤكد عليها بأنها يجيب أن تأكل، بل أكثر من ذلك تشير عليها

بأن لدى إحدى العجائز في البلدة وصفة سحرية تجعلها تنجب الأطفال في أقصر مدة، فإن لم تنفع وصفة العجوز تنصحها خالتي الزهرة بزيارة ضريح الولي الصالح»، (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 21) وجاء "الضريح" و"القصر" على لسان الساردة وهي تفسر حال زينب بعد ردها على العجوز « لكنها تكتشف بأنها تسرعت في الإجابة وجرحت مشاعر تلك السيدة الطيبة، هذه البلدة كغيرها من القصور يعلقون آمالا على الأضرحة المنتشرة هنالك...» (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 22)

- الخابية: سردت الساردة زيارة أحمد وزينب إلى القصر العتيق قائلة: « يأخذها إلى زيارة العتيق، هو ليس بقصر ملوك، بل بناء كان يحتمي به الأهالي قديما من الغزاة تقف زينب عند سوره العالي مندهشة كيف صمد كل هذا الصمود وهو مبني بطين الأرض فقط! (...) يمشي إبراهيم أمامهما بحماس، لا تفوته صغيرة إلا وشرحها حسب ما عرفه من كبار البلدة تستوقفهم الخابية وهي جزء من أجزاء القصر، كان الأهالي يخزنون فيها المؤونة من تمر وقمح.. » (جميلة طلباوي، 2003، الصفحات 29-30)

- الخطارة: جاء في جواب إبراهيم عن سؤال أحمد عن الفلاحين وقضية توزيع المياه « المصدر الوحيد للماء داخل القصر كانت هذه البئر، أما عن الفلاحة فقد كانت البساتين بعيدة عن القصر في كل بستان بئر نصبت بجوارها كما ترون تلك الآلة الخشبية المعروفة بالخطارة، استعملها الإنسان لجلب الماء من البئر » (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 30)

- النادر: جاء ذكره في القصص عند ذكر الفلاحين ومأساتهم يتذكر عمي مبارك الفلاحة أيام زمان، أيام كانوا يزرعون الأرض بالتويضة ويبنون النادر، وهو مرتفع صغير عن الأرض بحوالي ثمانين سنتيمتر، يبني بالطين لتدرس فيه سنابل القمح (...) يجلبون عصية النخيل ويدرسون القمح وهم يضربون بأقدامهم ويغننون:

هذا نادر با عبو ** يا ربي قوي حبه

هذا نادرفيه وفيه*** يا ربي قوي ما فيه (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 59)

النقوش الصخرية وبعض الأماكن السياحية: تمت الإشارة إليها في قول الساردة « زينب تشوق أكثر للزيارة وللمعرفة أكثر عن خبايا المنطقة رغم أنها تدرك بأن الوقت ضيق ولا يصرفها عن أفكارها هذه إلا صوت إبراهيم وهو يريها ألجوم صورة مختلف معالم المنطقة التي شدته من نقوش صخرية في تاغيت إلى واحة العقرب والكهف العجيب المعروف بغار الذيبة إلى القبور المبنية على شكل قبب بالعبادلة إلى مغارات مازو التي تتفجر فيها عيون دافقة إلى البحيرة المتحجرة بتلبالة ». (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 34)

2.2.5- التراث اللامادي في قصص وردة الرمال:

إن القارئ لقصص وردة الرمال يقف على عدة أشكال تمثل تراث اللامادي، فبعض تلك الأشكال يدخل ضمن الموسيقى والفنون، وبعضها يدخل ضمن العادات والتقاليد، ومن الموسيقى والفنون نذكر موسيقى علا، والماية، وأهازيج الرسة، ومن العادات التوزيع، العزيمة، الزيارة، الجماعة، وكذا الشاي، ومن القيم تحديد جهة الرجال وجهة النساء في المسكن.

-موسيقى علا: وصفت الكاتبة زينب وهي في سفرها إلى الصحراء رفقة زوجها بقولها: « كان شرودها هي أكثر من محير وكأنها تحاول الهروب من شيء بداخلها بكل تلك المسافات الطويلة وبموسيقى "علا" التي كانت تناسب في أجواء السيارة لتخلق داخلها عوالمها الجميلة بكل ما يبدهه هذا الفنان الكبير محاولا رسم قوافل الجمال وكثبان الرمال وأسرار الأشياء ». (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 5)

-الماية: تروي الساردة أن زينب كانت تسمع لأحمد « وهي تحاول استكشاف أهازيج كانت تصل إلى مسمعها من بعيد لتهمس قائلة:

- أتسمع يا أحمد؟

- نعم هذه أهازيج الماية
- الماية؟
- الماية في المنطقة هي فلكور غنائي في منتهى الجمال وأكثر ما يشدك طريقتهم العجيبة في الأداء». (جميلة طلباوي، 2003، الصفحات 42-43)
- وفي موضع آخر قالت الساردة « تتطلع زينب إلى الجماعة التي تؤدي الماية يشد انتباهها أكبرهم سنًا والذي يبدو قاندهم في أداء تلك الأهازيج الجميلة، يتكئ على عصاه وشيء ما بداخله يكابر ثقل السنين على كتفيه، تتساءل زينب فيجيبها الشاب:
- هذا الشيخ جبار عبد الله بن احمد، شيخ الماية في أقدال عمره أربع وتسعون سنة». (جميلة طلباوي، 2003، الصفحات 43-44)
- أهازيج الرسمه: تقول الساردة في هذا « تستسلم زينب في صمت وتتناول التمر من يد عمي مبارك وهي تستمتع بأهازيج الرسمه بصوت الشاعر أحمد عزوز وهو يردد:
- باسمك يا اله سيدي عظيم الشان
يا محمد ذا لكلام جبتو لك هدية
راني خايف من فعالي يا عظيم الشان
وبزاف لي دايره نفسي لعبت بي ». (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 60)
- التويزة: تجلى ذكرها في إجابة أحمد عن سؤال زينب هل تزحف الرمال؟ قائلا: « نعم تسمى الرمال المتحركة؛ تزج الأهالي كثيرا، فينظمون "تويزة" لوقفها بهذه الطريقة التي ترين ». (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 8)

-العزيمة: جاء هذا في محادثة مبارك لأحمد عن أوضاع الفلاحة وعن البئر التي أصبح ماؤها مالحة بسبب الجفاف وعدم فيضان الوادي وزحف الرمال والهوايش وعلى رأسها العقرب وما تفعله بالأهالي لولا العزيمة، والعزيمة حكاية أخرى أدخلت زينب عالما مغلقا على أكثر من سؤال. (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 14)

ووصفت الساردة خوف زينب التي خاطبتها أم الصغيرة نورة قائلة: « لا تخافي يا الطيبية أختي عندها العزيمة لم تفهم عن هذه العزيمة شيئا فإذا هي كلمات يقال بأنها آيات يحفظها شخص فتصبح لديه مناعة من لدغة العقرب والقدرة على معالجة من تلدغه...». (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 14)

-الزيارة: سافت الساردة أن « الزيارة في هذه القصور قصور وادي الساورة في أكثر من زيارة أضرحة أولياء الله الصالحين، بل هي كسر للروتين القاتل وفرصة النساء الوحيدة للترويح عن أنفسهن بزيارة الأضرحة وشراء بعض الحاجيات التي يجلبها تجار من مناطق بعيدة في موعد الزيارة» (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 34)

- الجماعة: يذكر في هذا الشأن أن زينب وهي بالقصر العتيق « تتجول بأجزائه ليعرفها إبراهيم على الجماعة وهي جزء من القصر كان يعتبره السكان القدماء محكمة؛ فهو مجلس شيوخ القبيلة منه تصدر القرارات والأحكام وعلى يد شيوخه يتم الزواج والطلاق». (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 29)

-الشاي: أوردت الساردة عادة شرب الشاي المعروفة في قصور الجنوب وهي تصف زينب بقولها: « ترتشف زينب الشاي وهي تصغي إلى خالتي الزهرة، تحدثها عن الأمراض التي تفتك بالناس في هذه البلدة خاصة الأطفال » (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 10)

-تحديد جهة الرجال وجهة النساء في المسكن: صورت الساردة مشهد استقبال الضيوف لدى سكان قصور الجنوب بقولها: « تنحني زينب لتقبل الصبية يشير إليها عمي مبارك أن تدخل

إلى جهة النساء، تقبلها خالتي الزهرة وبناتها، تجلس زينب وقد غمرتها نشوة اللقاء الجميل مع هؤلاء النسوة الطيبات» (جميلة طلباوي، 2003، صفحة 9)

6. التراث الساوري ومظاهر عبقرية الإنسان الساوري:

لقد أظهرت الكاتبة من خلال منجزها السري جملة من الأشكال السردية التي تصور عبقرية الإنسان الساوري، ومن تلك الأشكال نقف على "الخطارة" التي تعتبر شكلا من أشكال العمارة اتخذ لتدبير رفع المياه من الآبار وإدارة نظام السقي في الفلاحة الصحراوية آنذاك، والمتأمل يلفي هذا النظام يختلف على نظام الفقرات في توات وهي منطقة وثيقة الصلة بإقليم الساورة، وههنا يطرح السائل جملة من الافتراضات منها: أن الأمر قد يعود إلى اختلاف تضاريس الأرض.

ومن تلك المظاهر اعتماد "أفراق" أو "الزرب" في صد زحف الرمال، ومعلوم أن "الزرب" أو "أفراق" حاجز من جريد النخيل يتخذ الإنسان الصحراوي عموما لمواجهة الرياح وما ينتج عنها من زحف للرمل، وههنا دلالة واضحة على تتجلى مظاهر تفكير الإنسان الصحراوي من مكونات بيئته "النخلة"، ووظف ذلك في خلق وسط يتكيف من خلاله مع التحديات التي تواجهه.

وتجدر الإشارة أيضا إلى "الخابية" التي تمثل الصناعة الفخارية، ووسيلة من وسائل التخزين وتدبير أمر المؤونة، وههنا ينبغي التنبيه أيضا إلى أن منطقة الساورة عرفت هذا الفن (الصناعة الفخارية)، فاشتهرت به عائلات خاصة وأبدعت في صنعه إلى أن صارت تلقب به.

7. وتتوالى سرود طلباوي راصدةً مُستورثةً مشاهد التراث السّاوري في "تيمات ونماذج" متنوعة:

الموروثات والتراثات الصحراوية فى إبداعات الروائية القاصة جميلة لها عنوانات عدة، ليس شرطاً أن تكون مدونات سردية فقط، وإنما نراها فى برامجها الإعلامية ومحادثاتها وأشعارها وتعليقاتها، كما أنها لا تختصر الصحراء فى الساور؛ بل تجاوزتها إلى صحراء توات، وقس على ذلك، ومن برامجها "على ضفاف قير" الذى منح صوت الصحراء الجزائرية أن يفرض وجوده إعلامياً عن تراث غير مدفون، رغم طي الزمن أنموذجات كثيرة سلفت، وظلت منقوشة فى لوح الذاكرة الشعبية، سواء أكانت من الخيال الصرف أم الحقيقة الخالصة أم مزيجاً بينهما...

1.7. " شاء القدر" (2006) انثىالات الوليات على نورة ونبيل وسط مجتمع الأنانية والحسد، أولى خطيئات الخليفة: قابيل وهابيل اليوم من جديد متجدد

تتابع الروائية مسألة اجتماعية معقدة لها صورها المتكررة فى الزمان والمكان، تتخذ تشكلات مختلفة من جيل إلى آخر ومن بلد إلى آخر ومن معتقد إلى سواه...؛ من ذلك سردنة العلاقات الإنسانية فى المجتمع الجزائري بخصوص العلاقة بين طرفين تجمعهما صلة عاطفية ضمن سياق العمل أو العلم، لكنها صلة محفوفة بالورود حيناً وبالأشواك أحياناً آخر.

نورة ونبيل مقاساة الوضع الاجتماعى والأسرى وما ينجم عنه من تعارضات تعرقل المسار الطبيعى لربط العلاقة الزوجية بينهما، مما تحكيه الرواية من مشاهد التعثر والحسد والأمراض والموت والظلم والفساد الخلقى وما شابه ذلك من معيقات، حيث نلاحظ الكاتبة ناسجة الحبكة السردية مبرزة ما تؤول إليه الأحداث المتشعبة من تكرار أصوات أخرى تجسد الواقعة نفسها فى مجتمع واحد...

الشاهد فى متن الرواية هو المنعطف الحداثى الذى أثاره المكان لما انتقلت نورة من البلدة الأصل إلى مدينة بني عباس بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوى، وما قدمه عمر من خدمة لنورة، وهى تكسر الجو النفسى المتأزم هناك، لتستعيد بعضاً من قدرتها على الانسجام

والاندماج المفقودين؛ لما تنماز به البيئة الريفية والصحراوية من خيارات مكانية جغرافية مفتوحة، تختلف وغيرها من البيئات التي يمكن وسمها بالانغلاق والتحييز.

2.7. "أوجاع الذاكرة" (2008) ناصر والمكان؛ اغتراب الانفصام بين نادية والبتول

كريح الجنوب وغيرها تتكرر مشاهد التمزق الاغترابي للشخصية الجزائرية أيام الاحتلال أو بعده؛ وأشد تغراب ما كان في أكناف الوطن، كالذي عاينه ناصر في تنازع مكانيين جعلاه بين المطرقة والسندان، وقد لا يبرز التغراب النفسي والمعنوي في المكان الحقيقي من تراب ميت، كالذي يبرز في تراب حي؛ أي الإنسان، كنادية والبتول، لا كشخصين فقط، وإنما العقلية والفكرة والموقف وسط الموروثات والواقع والمادة والروح والجشع والقناعة...

مواقع تترى في نسيج الأوجاع دالة على التراث البشري، منها: منجم القنادسة، خزانة المخطوطات، القصر العتيق، دار الجماعة الزاوية القندوسية، الكراكر كالأهرامات وهي القبور العجيبة، أكلة الخليع، خالتي يطو وطبق الملوخية، الفرقة الموسيقية القندوسية "الفردة" وأغنيها الشهيرة "سيدي بن بوزيان"، "المطلوع"، "الدهان و الرُب"، الشاي المننع، تبلباله والشجرة العجيبة، "تكدة" والأنغام البلبلالية الجميلة، الحرية بالقرطوفة...

ومن مواقف الرحلة السردية في الأوجاع تلك الانفراجة التي تأخذ بيد ناصر نحو الانعتاق المجتمعي النفسي، قول الكاتبة «هيه يا صديقي ستبيت الليلة في بيتي.بيتك في القنادسة؟ وهل لدي بيت غيره؟ سيد أحمد لا يعرف بأن ما كان يهمني هو القنادسة، هذه البلدة العجيبة، الأكثر من جميلة إنها هادئة لدرجة تجعلك تعتقد بأنها عالم قائم بذاته، عالم التّصوّف والسمو بالروح.

سيد أحمد بدعوته هاته رحمني من هول التفكير في العودة الى بيتي لأبقى وحيدا أصارع أفكاره... واختياره كان جميلا، فهو يعرف مدى عشقي للقنادسة، فلقد كنت كلما ضاقت بي

الدنيا بما رحبت سارعت الى قصرها العتيق ، الى صمته الرهيب و شموخ التاريخ فيه (جميلة طلباوى، 2008، صفحة 10)

موقف يرجح الفرار إلى الأصول والمرجعية ذات الثقل الاجتماعى والمعنوي للذين يعيدا الاتزان ويشقان طريق الحل لعقدة اللبس بين ما كان وما سيؤول إليه مصير ناصر ومن حوله فى بطولة "تيمية" تنقد واقعا مأساويا فى بناء الأسرة على غير أس من السداد والصحة.

3.7. "كمنجات المنعطف البارد"(2012)، "تلوسان" نموذج الصحراء الساورية وتفاصيل الكدح والضياح

تاغيت بلدة عميقة فى الساور، و"تلوسان" اسم علم يطلق على ملكة عاشت هناك، رمل كخيمة عملاقة صفراء تناطح عنان السماء وسط بسيطة تلاحت والواى والحدائق الغناء المتراقصة بأساليب النخيل الشامخ علوه بعراجين التمور الدانية، وذهب السنايل التى تناغم حفيفها جميعها بترانيم خالتى البتول؛ وهى تنشده:

زُرعى ضاقت زُوحو- واهلى بُغاؤ يروحو*** هُنَاشِي يالْحَصَّادَة- هُنَاشِي يا اَمَاليّه

ترقب الراوية حركات البتول امرأة فى صمود كحجارة الوادى تحقق وجودها منسابة والحياة كما شاءها الله تعالى، « ترنحت خالتى البتول فى مشيتها مثقلة بصبح لم يأتها بجديد، رنين أساورها الفضية همس بشيء كان أقرب إلى العطش الذى حاولت عبثا إطفاءه بإناء من الماء، مسحت بيدها السمرء ثغرا لم يعد يحكى كثيرا، الحكايا جمر فى هذا المكان، وإن من الجمر لما تتفتق منه الكلمات..». (جميلة طلباوى، 2012، صفحة 8) وهكذا تمضي المنسوجات السردية القصصية وقد خيطلت بيد من نساء قاومن المتاعب الجسدية قصد صنع السعادة النفسية الروحية، وتجاوزن ما بهن من عوز وجفاف ولفح شمس صيفية ووعر الصخور والشوك، وجهد جهيد من جلب الحطب وحمولة السقى ومخاطر لا عد لها فى بحار الصحراء...

هذه مشاهد من الكدح والضياح المُخَفَّقَيْن المعتادين في عين الرواية أفقيا سطحيا؛ كمشهد خالتي البتول المرأة المتمرسنة القديرة العصية على ألوان القهر والانكسار، «تتطلع إلى الطريق الممتد بعينين يشع منهما بريق الطمأنينة لحنان تهله من جدة لها صبر الجمال، تهمس لها بأن "تلوسان" هذه المرة ستنجب ذكرا، تبتسم الصغيرة، يشع بريق من عينيها البنيتين وقد أدركت بأن أمنيتهما ستتحقق، أخيرا سيصبح لها أخ. تتمتم خالتي البتول: تلوسان كانت بخلخال. هكذا رأتهما في المنام بخلخال، هي رؤيا لا تكذبا، والخلخال تقول عجائز القصر القديم بأنه ذكر سيجلجل صيته في القبيلة». (جميلة طلباوي، 2012، صفحة 9)

ولكن الأخطر تلك المشاهد المفاجئة المثقلة بأنفاس تتلاشى؛ والتي ترجمها عين عمودية عميقة، تجلت في فرحة استبشار مُضمخة بنزيف الموت؛ موت "تلوسان" آخر المطاف بمعية جنينها، كموت العم بوبكر وهو يحفر البئر، موتان هما موكبان جنائزيان لحكاية درامية واحدة، كل من تلوسان وبوبكر يبحثان عن حياة تنتهي بموت، تأخرت السيارة بل لا طبيب في المستوصف، يغصب حياة تلوسان وجنينها، كما يلتهم حفر البئر حياة بوبكر؛ الفاقة وتراجع الخدمات في هامش المدن التي تدعي النهوض والترقي في الكماليات وقتئذ، أرياف وقرى وبوادي تنقضي فيها حيوات المُقلين في رمشة عين يحضر الفناء، وتقلب الصفحة كما لم يولد بوبكر وتلوسان! «ياوجع تلوسان». (جميلة طلباوي، 2012، صفحة 12)

4.7. "الخابية" (2014) استنطاق السائري تراب وطنه ورمل أرضه؛ صناعة الخلق من إيجاد الحق تعالى.

هي مشهد ثقافي حضاري يصنعه المواطن الجزائري في صحرائه، يصنع من كل شيء في الوجود أي شيء، أي من كل منفعة يستقي أخرى، باعتبار أن الإنسان خليفة في الأرض ورثه الوارث سبحانه فيها، فكان أن جرى باحثا عن الموجودات من حوله وقد هيأها الحق خدمة

للخلق الذي هو دوما في ميسيس الحوج إلى المدد الرباني؛ فسخر السَّاورى المكان الخالي تسخيـرا عاقلا يجعل من التراب عمراناً، هو المقر والملجأ، هو البئر والسكن والساقية والأحياز التي تحتوى حاجاته وأغراضه...

"الخابية" رواية منبعها ذلك الواقع الذي مرت عليه قرون فتسلسلت موارثه عبر الأجيال، يطوى الزمن، ويظل المكان هو هو، إلا من لمسات تثبت بصمة جيل دون آخر وفق التراكم والتحديث والتجديد؛ إذ "الخابية" هي إبداع فنان يروّض السكون إلى صالح الحياة، يستعين الإنسان بالرمـل وهو أصل منه، طينية خلقتة، كالماء اللصيق بالإنسان والرمـل معا، هي خابية وعاء للمواد التي يجب تخزينها وحفظها على المدَّين قصيرهما وطويلهما.

الموروث وثمنه لدى الصحراوي أغلى من أن يباع ويشترى، لأنه جزء من مكونات الهوية كالتاريخ والدين واللغة...، ومنه كانت الأرض والوطن عنصرا من الهوية، وقد ربطت الكاتبة دلالات الخابية بشخص الصحراوي نفسه "الذي هو الفرد الذي وجب علينا الاستثمار فيه إذا أردنا أن نقلع إلى الحضارة والتقدم والخروج من نفق التخلف والتبعية"، وأيضاً بالتاريخ قولها: "الخابية هي حالة موازية للذاكرة لنهل منها كل هذا الإرث..."، فالخابية كالمطمورة كالقـلة والجرة والقربة والعكة والغرارة والخزائن والكيس والزعبولة...، وظيفتها الحفظ والحماية، تمسكا بالأصالة الراسخة، لا تفككا وإدعاء بالتحضر المنبت.

5.7. "الغار؛ تغربة القندوسي"، بصمة جميلة البشّارية الجزائرية: تأريخ لغار فرنسا الخبيث في غار القنادسة الطيب

أخيار الخلق محبون جماليون خيرون، يصيرون المكان مصدر العبادة والتوحيد والفرار إلى الله، مصدرا إشعاعيا بالحياة وإنهاض الأمم ونشر السلم والسلام؛ هذا مما نراه في الفتية، أصحاب الكهف، وغار حراء منبع الإسلام والإيمان والدعوة الحقّ إلى الله وتمكين الإنسانية من الهدى والنور والنجاة، خلوة سيد العالمين ورحمتهم المهداة إليهم، والغار الذي

حوى الصالحين، فكان مكانا فيصلا في تاريخ الدعوة المحمدية وتأسيس أعظم دولة في الدنيا عرفها تاريخ البشرية وقدر خلودها القرآن العظيم،...، في حين ما للأشجار إذا لم يشوهوا حيوات الناس بالكراهية والقبح والشر؟، يغدو وجودهم في أي بقعة منبت الحرب والعنف والدمار وإذلال الخليفة، كموجات الحيف عبر الزمان والمكان.

الاحتلال الصليبي كأبي طاغوت وطغيان شاهده تاريخ الإنسانية فتجرت سمومه؛ وموجات حقه على شعوب المعمورة طال العرض والأرض والأنفس والثمرات والثروات والأموال والمكاسب والدين والهويات...، ومن أخبث الطواغيت وأقذر الطغاة أولئك الكفرة الفجرة الاحتلال الفرنسي البغيض للجزائر الحرة، محاولا نفيها ومسح هويتها وإعدام دينها الحنيف وتاريخها السامق وبتر أثولها القرآنية والمحمدية وزعزعة أصول الأسرة الجزائرية واجتثاثها من أمة العروبة والمنازغية الشقيقتين والمسلمين، حتى دحضه المنتقم جل وعلا بقوته القاهرة وجهاد الجزائريين الأباة من المجاهدين والمقاومين والشهداء، وجحافل الفدائيين والمسلمين والمناضلين وأضراهم...، بجميع أطيافهم وأسمائهم وأعمالهم الجليلة...

تاريخ قائم بذاته ذلك الذي يدعونه التجارب النووية، كما أن تاريخ الإبادة الجماعية تاريخ وحده، وتاريخ المتطوعين هناك في حرب الهند الصينية، وتاريخ محاربة المساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب، وتاريخ الإعدامات والنفي والإفقاد إلى المجهول...وهلم جرا، كل تاريخ من ذلك قائم بوحده!

أي تجارب نووية؟ خطأ في الوصف بغياب الدقة الاصطلاحية؛ إنها جرائم الحروب النووية المدروسة بعمد وقصد سابق الإصرار وامتداد لاكتساح الوطن المفدى منذ 1830 على الأقل، ذالك هو المصطلح الصحيح للخبث الفرنسي الجارف المعربد، الذي تفنن في إبداع الشرور الجهنمية ضد الأمنين، فالمختبرات العلمية لدى خبراء الإنسانية يفقهون ما ينفع وما يضر معا، لكنهم يحرصون كل الحرص على ترقية البشرية إلى السعادة والسلام والأمن؛ أما

الملعون الصليبي الحقود هذا انتهازي أناني قمعي متعطر، يُهندس حروبا قاتلة في جزائر العزة والأمان وفيوض الخيرات باسم التجارب، تقلقل استقرار شعبيها سافكا الدماء باقرا بطون الحرائر ثيبات وأبكارا مجوعا الأطفال ممثلا بالشيخو محيطا المحتشدات والأقاليم والعمران بأسلاكه الشائكة مفخخا الأرض الطاهرة بالقنابل دلائل قاطعة على انهزام المغرور الهستيري المؤقت الأكيد!

هكذا عبث الغاشم في أرض "رقان ووادي الناموس وانغر... وسواها" من الأراضي الطيبة؛ يفترص- من الفرصة- قنادسة الشموخ بكهريائها ومياها وثرواتها المنجمية، ليبسط غول كيده وعجرفته، إلا أن عزاءنا لله الحمد قول أصدق القائلين ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هود: 18]، وكفى بالله تعالى شهيدا ومنتقما، ولنا أن نتدبر ذرة من بحر المشجاة الوطنية القندوسية، مشهدا بشريا وشاهدا جزائريا؛ «تذكر خويرة بأنها أعادت الكرة لعدة سنوات دون جدوى، لم تتحقق المعجزة كي تقف «رحمة» على قدميها من جديد، بل حلت لعنة تراب العفاريث بالعائلة، وأصيب سالم كأغلب الرجال العاملين في المنجم في رثتيه. يسعل سالم سعالا شديدا، يدس البصاق المختلط بالدم في وعاء حديدي ملأه ترابا. وخويرة تبكي حظها التعيس». (جميلة طلباوي، 2021، صفحة 16)

تُعدّ فرنسا الغاصبة الدخيلة في الجزائر بيد الأحرار، بدمائهم القدسية واستماتة جهادهم البدري ومقاومتهم القادسية مع ثورتهم التحريرية الحطينية المباركة، إلا أن استرسال الآثام واستدامة مضاعفاتها وتبعاتها التي فجرت صدور المنجميين الجزائريين البراء، وكم فاضت من نفس زكية إلى ربها حيفا ونكالا، لم تبرح مكانها؛ وعليه فأرى حقا أن الأدبية جميلة المبدعة هنا كالطبيب والمؤرخ والسياسي والحقوقي والمناضل وأصحاب الاختصاص في جرائم الحروب النووية...، تملك لمسة فنية تكشف عورة الخزي والتكالب الصليبي الظالم...

لقد استقطبت توثيق سُرودات الذاكرة الشعبية لمأساة الغار ومستغوريه حقيقة لا خيال فيها، تنسجه ألسنة السلف على أسماع الخلف، نسيجاً إعلامياً أميناً شاجياً مرة من أناس عاينوا الواقعة، ومرات من غيرهم عبر أجيال تتوارث حكاية العار الذي يمسح تاريخ الاحتلال مهما ادعى نيته المكذوبة نحو الاعتراف أو التعويض؛ وأنا طفل صغير في بداية السبعينيات أصغى إلى أبتٍ يقص ملاحم الجزائريين هنا وهناك، وإلى من شاهد الواقعة الغارية القندوسية من مآثر جدي الشيخ وعمي الطيب وخالي الدين وأبناء جارنا الجيلالي، وسواهم، فكنت ساعته أ تصور الاحتلال كغول أو نار...، وتحققت عياناً زمنها وبعدها من مجسّدات الخراب الفرنسي لأبناء جلدتي ككف عي الفقيه عبد السلام التي بترت في الغار، وأسماء أخرى فقدت أو ماتت اختناقاً أو أصيبت بأدواء نفسية مزمنة...

8. خاتمة:

حاولت هذه الدراسة تتبع صورة الجنوب الغربي من خلال رصد التراث الساوري في المنجز السردى لجميلة طلباوي، وأفضت الدراسة إلى النتائج التالية:

- الشكر موصول جزيل لكل المسؤولين و المشرفين والمنظمين والمساهمين والطلبة.
- النص حافل منفتح على القراءة والدراسات المختلفة: فنية، نفسية، اجتماعية، أنثروبولوجية، معرفية.
- النص يطلعنا على الجانب الرسالي القيمي الذي يطبع خطاب جميلة طلباوي.
- النص يصور خصائص الكتابة لدى الكاتبة في بدايات تجربتها، فهو عمل قريب في بعض المواضع من التقارير الصحفية.
- النص يحملنا على التفكير في الصناعة المعجمية التي تمكن من التواصل مع الأعمال الأدبية والإرشاد السياحي وحفظ التراث.
- وثيقة السُرود السّاورية الطلّابوية ووضوحها بالقراءة المستدعية المشاهد التي تؤرخ التراث المتنوع فنيا ومخياليا جماليا، وتوثقه في سجلات الأجيال السالفة وذاكرات الخلف المتدبر.

- جسور الفن الأدبي الممتع المُدْمَع في آن واحد؛ يقرب مسافات المشاهد لدى المتلقين من قَرَأة الموروث؛ والذين يرقبون التاريخ الوطني وعبره من تلك النوافذ؛ وليأخذ النشء والشباب وأجيال اليوم حذرهم! فكم من عدو يتربص بالجزائر كشوكة النفاق والخيانة، وفزاعة فرنسا الصليبية.

- حباكة الساردة تضيف بصمة الحكيم والسرد والمشهدية، التي تنقذ المادة الميراثية وتدبجها بإزميل التناسبات والتصوير البديع والأساطير المتخللة والإيقاع الروائي الداخلي الموسق، وجماليات الوصف والحوار، وسوى ذلك من آلات التشكيل.

- استحضار المستقبل والحرص على إعلامه وإشراكه في منظومة الرواية بين في رسالة الكاتبة، وهي مهندسة عمارة الموروث الجزائري الصحراوي، مادة وروحا، قبل أيام الاستدمار وبعده إلى غاية الآن.

- نوصي بإقرار سلسلة تختص بجمع الموروثات الصحراوية بالساورة، وما جاورها من واحات الجزائر تبعا لتاريخ المنطقة الصحراوية، وبيان المنجزات التي تمت بالتبادل العلمي والثقافي بين أجزاء الصحراء الجزائرية الكبرى؛ ولتكن في أعداد خاصة ومعجمات ومشروعات بحث.

- تعزز التوصية السابقة بإرداف التشارك الحضاري بين تلك الصحراء وما جاورها من الأقاليم العربية والإفريقية والإسلامية.

- الدعوة إلى توثيق الحقائق التاريخية والعلمية والفكرية عبر حقبة من قبل الفتح الإسلامي إلى فترة الاحتلال، ثم من عهد الحرية إلى الآن، ودراسة التحولات الاستراتيجية المتعلقة بالبعد الوطني ثم العربي ثم الإفريقي ثم الإسلامي ثم العالمي، بتدرج منطقي واستقراء دقيق يقتضيه منهج البحث في العلوم الإنسانية.

9. التعليقات:

التعليق رقم: (1): إكلي و إقلي (بالقاف المثلثة) و إجلي وإغلي لفظ واحد، روى لي أحد الإخوة المغاربة قولاً مفاده. أن كل ما يكممكم يجمعكم يغمغم، ومن هذا الباب قولنا: واد جبر وكبر وغير وقير، وتوقرت وتوكرت وتوغرت وغيرها.

التعليق رقم:(2): الرّزب ويسمى في الثقافة المحلية أيضا بـ "أفراق".

التعليق رقم:(3): القصر: بناء عمراني يعد شاهدا على مرحلة تاريخية معينة.

التعليق رقم:(4): الضريح: بناء يضم رفات شخصية بارزة/ أحد الأولياء الصالحين. (مجموعة

مؤلفين، 2022، صفحة 175)

التعليق رقم:(5): الخابية: هي وعاء يُصنع من الفخار متعدد الأحجام كان يستعمل لحفظ

وخن التمور، وإذا طال التمر فيها أخذ لونا آخر وطعما آخر وصار يسمى "لقبورى"، والخابية

مكوّن من المكوّنات التي يشتمل عليها "بيت الخزين". (مجموعة مؤلفين، 2022، صفحة 175)

التعليق رقم:(6): الخطّارة: شكل من أشكال العُمران يصوّر تفكير الفلاح الصّحراويّ في تدبير

رفع المياه من الآبار خلال حقبة تاريخية معينة، ولقد حلّت محلّ المضخّات آنذاك، ولقد

اختلفت ضروبها، وربّما رجع ذلك إلى عامل السّرعة أو انعدام مواد تشييدها، فمن تلك

الضروب؛ تشييدها من جذع نخلة بشقّه نصفين، فهذا في نظرنا لا يستغرق وقتا في الإنجاز

ويعفي من الطّين والحجارة، ومن تلك الخطارات ما شُيّد من الطّين والحجارة، ومنها ما شُيّد

من الطّين فقط. ومن الخطارات ما يشتمل على ساريتين، ومنها ما يشتمل على ثلاث سوارٍ،

ومن مكوّناتها: السلالم والخشبة والثّقالة والحبّل. (مجموعة مؤلفين، 2022، صفحة 85)

المصادر والمراجع:

■ الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. (17/22 يونيو/صفر، 1998/1419).

ينظر، القانون رقم: 98-04 المؤرخ في صفر 1419هـ/ 15 يونيو 1998م، المتعلق بحماية التراث

الثقافي،الصادرة في 22صفر1419هـ/ 17 يونيو1998م، الباب الرابع، المادة67،. (44) . الجزائر.

■ تزفيتان تودوروف. (2002). مفهوم الأدب ودراسات أخرى. (عبود كاسوحة، المحرر) دمشق: سلسلة

الدراسات الأدبية، منشورات وزارة الثقافة.

■ جميلة طلباوي. (2008). أوجاع الذاكرة، منشورات . سوريا، دمشق: اتحاد كتاب العرب.

■ جميلة طلباوي. (2012). كمنجات المنعطف البارد. الجزائر: دار فيسيرا للنشر.

■ جميلة طلباوي. (2003). وردة الرمال قصص. الجزائر: منشورات التبيين الجاحظية.

- جميلة طلباوي. (25 10, 2009). موقع ديوان العرب. تاريخ الاسترداد 22 10, 2022، من <https://www.diwanalarab.com/%D8%AC%D9%85%D9%8A%D9%84%D8%A9-%D8%B7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D9%88%D9%8A-%D8%B3%D9%8A%D8%B1%D8%A9>
- جميلة طلباوي، (2021). الغار؛ تغريبة القندوسي". برج بوعرييج، الجزائر: دار خيال للنشر والترجمة.
- عبد الرحمان بلاغ. (2015). الدور الحضاري للأدوية الصحراوية في المغرب الأوسط وادي السائرة خلال النصف الأول من القرن 11هـ / 17م أنموذجا . مجلة السائرة للدراسات الإنسانية والاجتماعية (1)، 11-21.
- علي القاسمي. (2017). التراث العربي الإسلامي-دراسات وتأملات (الإصدار 1). دمشق سوريا- بيروت لبنان: نادي المدينة المنورة الأدبي، دار النوادر.
- مجموعة مؤلفين. (2022). معجم الثقافة الجزائرية. الجزائر: المجلس الأعلى للغة العربية.
- محمد رياض وتار. (2002). توظيف التراث في الرواية العربية. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- محمود مفلح البكر. (2009). البحث الميداني في التراث الشعبي(عرض، مصطلحات، توثيق، مقترحات، آفاق). دمشق: مديرية التراث الشعبي، منشورات وزارة الثقافة السورية.

الدور التاريخي للطريقة الشيخية في بعث الدولة الجزائرية الحديثة وبنائها

The historical role of El Shaykhiya order in the resurrection and establishment of the modern Algerian state.

د. صديقي عبد الجبار: المركز الجامعي نور البشير- البيض (الجزائر)، a.seddiki@cu-elbayadh.dz

ملخص:

تهدف هذه المداخلة إلى تسليط الضوء على إسهامات الطريقة الشيخية في التأسيس لدولة الجزائر الحديثة ممن خلال محاولة إظهار البعد الثوري الجهادي لهذه الطريقة ودوره في مقاومة الاستعمار وتعزيز روح الانتماء للوطن، فضلا عن جهودها في الحفاظ على الهوية الوطنية الجزائرية خاصة ما تعلق منها بالدين واللغة العربية من خلال المؤسسات التعليمية والتربوية والاجتماعية التابعة لها، إضافة إلى إبراز المكانة الجهورية والإقليمية لهذه الطريقة ودورها في رسم حدود الدولة الجزائرية الحديثة، دون إغفال أهميتها في تعزيز أواصر الأخوة والمحبة والتعاون بين أبناء الوطن الواحد الأمر الذي أسهم في تشكيل دعامة بشرية متماسكة تعد بمثابة درع وافي للدولة الجزائرية منذ تأسيسها.

الكلمات المفتاحية: الطريقة الشيخية، التأسيس، الجزائر، الحديثة، الثوري، الاستعمار

Abstract:

This intervention aims to shed light on the contributions of the Shaykhiya order to the establishment of the modern state of Algeria, through an attempt to show the revolutionary dimension of this order and its role in resisting colonialism and strengthening the spirit of belonging to the homeland as well as its efforts to preserve the Algerian national identity, especially as it relates to religion and the Arabic language. Through its affiliated educational, educational and social institutions. In addition to highlighting the regional and regional status of this method and its role in drawing the borders of the modern Algerian state, without neglecting its importance in strengthening the continuity of brotherhood, love and cooperation among the people of one nation, which contributed to the formation of a cohesive human support that serves as a protective shield for the state. Algerian since its founding.

Keywords: Shaykhiya, establishment, modern, Algeria, revolutionary, colonialism

ليس خفيا أن قيام الدول ليس بالحدث الذي يجري صدفة أو عرضا بل هو نتيجة لتفاعل ظروف وعوامل وعناصر وتراكمات يضاف لها عامل الزمن الذي غالبا ما يطول عندما يتعلق الأمر بأحداث سياسية مفصلية من قبيل انبعاث الدول أو سقوطها، وعليه فإن نشأة الدولة الجزائرية وقيامها هو نتيجة لتضافر جهود أجيال من المقاومين والزعماء من المؤمنين بالأمة الجزائرية عبر العصور بتعدد أنسابهم، ومشاربهم، ومداركهم دون إقصاء أو هضم لحقوقهم في نيل هذا شرف.

من هذا المنطلق لا سبيل للإنكار أن الطرق الصوفية المجاهدة بصفة عامة كالطريقة الشيعية مثلا كان لها نصيبها في بناء هذا الصرح السياسي الذي يعد اليوم أيقونة الشعوب المكافحة ومثالها الحي على انتصار إرادة الشعوب على من يسلبها حريتها مهما طال الزمن. قد يظهر من خلال عنوان المداخلة أن الموضوع حمل أكثر مما يتحمل، لكن الدراسة الموضوعية لإسهامات الطريقة الشيعية من أعلى هرمها إلى قاعدتها الشعبية تفضي إلى الوقوف على دور معتبر لهذا التنظيم الديني في بعث وبناء دولة الجزائر الحديثة.

2- الطريقة الشيعية : النشأة والتطور

تنسب الشيعية إلى الشيخ عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة الملقب بسيدي الشيخ دفين الأبيض سيدي الشيخ (ولاية البيض حاليا) ولد حوالي عام (940هـ-1533م) وكانت وفاته سنة 1023هـ-1616م، ترجع أصول هذه الطريقة على الأرجح إلى الشاذلية التي أصبح مقدا لها على يد شيخه محمد بن عبد الرحمان السهيلي والمعروف عنه أنه قد أخذ الطريقة عن الشيخ أحمد بن يوسف الملياني إلى آخر السلسلة التي ذكرها سيد الشيخ في قصيدته "الياقوتة"، تعلم عبد القادر بن محمد على يد أبناء عمومته الذين استقروا في الجنوب الغربي الجزائري كمرباطين بكريين أكن لهم سكان المنطقة كل الاحترام والتقدير، لما تميزوا به من مكانة اجتماعية وروحية (شثرة، 2011، صفحة 331).

توجه بعدها إلى المغرب الأقصى حيث تتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الرحمان السهلي صاحب زاوية السهول وأخذ كذلك عن الشيخ أحمد بن موسى السملالي السوسي ثم استقر بفجيج وأنشأ بها زاوية بقصر الحمام الفوقاني فكثر أتباعه وذاع صيته في المنطقة وجاءه الطلاب والمريدون من كل مكان، ونخص بالذكر منهم أحمد بن أبي محلي السجلماسي الذي لازمه لمدة وصاهره ثم انقلب ضده لأسباب لم يصرح بها، وألف فيه مجموعة من التأليف ملأها قدحا وتشهيرا فرد عليه بقصيدته التائية المسماة الياقوتة وهي عبارة عن قصيدة منظومة تتكون من 178 بيتا، أبرز فيها تجربته الصوفية ومعراجه الروحي، في حين دافع عنه وأخلص له فقهاء فجيجيون الذين نذكر منهم على سبيل المثال أحمد بن بكر السكوني الذي ألف كتاب في مناقبه .

ويتبع الطريقة الشيخية إلى يومنا هذا عدد كبير من المريدين في بلاد المغرب العربي كالشرفاء، المهاية، العكارمة، حميان، العمور، أولاد جرير، بني مطهر، بني كيل، القرارشة، الشعانبة، الأغواط، وبعض البربر وغيرهم من القبائل (شتر، 2011، صفحة 334).

تتميز الطريقة الشيخية ببعض الخصائص نذكر منها على الخصوص :

- كونها طريقة سنية: أي تعود جميع أصولها وفصولها وفروعها وكلياتها وجزئياتها إلى الكتاب والسنة والإجماع، بالتصريح أو التلميح، وليس فيها قط ما يخرج عن الأصول الشرعية المعتمدة.
- طريقة سهلة بسيطة: في الشكل والمضمون تفتح المجال أمام جميع الناس، إذ تجد فيها كل فئة من المجتمع ضالتها المنشودة، من أبسط عوام الناس إلى أصحاب المستويات العلمية العليا.
- طريقة واضحة جلية: تعتمد الأساليب الصحيحة الواضحة المعتمدة شرعا بلا تعقيد ولا شطحات ولا مغالاة في مجال التربية والسلوك إلى الله تعالى.

- طريقة خالية في ممارساتها من الأحوال والطقوس: التي قد تكون محل طعون أو يشير إليها المغرضون بالبنان.
- طريقة قائمة على الذكر الفردي والجماعي معا: ذكر ملخص شامل بشكل معتدل غير مخل ولا ممل.
- طريقة تعتمد حسن التوكل: أي اعتماد العمل والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، وترفض التواكل المخل بالشرع
- طريقة تقوم على الصدق والمحبة: مع الانفتاح بسلامة الصدر على جميع فئات المجتمع في حدود ما يسمح به الشرع
- طريقة تبني فتح المجال: للتواصل والتعاون مع جميع الطرق الأخرى في حدود الشرع والقواسم المشتركة بينها
- طريقة تنكر البدع: التي علقت بالتصوف والمرفوضة شرعا وتعمل على محاربة جميع أنواعها جملة وتفصيلا
- طريقة تقوم على محبة كافة الطرق: خصوصا غير البدعية والتسليم لها في خصوصياتها طريقة تعتمد محبة وتعظيم كافة أهل الله الصالحين أحياء وأمواتا، مع التسليم الكامل لله تعالى في تدبير شؤون مخلوقاته، والتسليم للمخلوقات في علاقتهم بخالقهم.
- طريقة مسالمة منفتحة ملتزمة: بحدود الشرع والقوانين الجاري بها العمل (الشيخ، 2010، صفحة 01) وبالتالي والله الحمد فهي طريقة بيضاء نقية كما سماها منشؤها الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد في قصيدته الياقوتة، وفي ذلك يقول: الشيخ في قصيدة الشهيرة
فبالاتباع لنلنا مرتبة العلا == فبالله ما حدنا عن شرع وسنة
ومنذ عقلنا سدد الله سعينا == وما زلنا مقتفين نهج الشريعة

وحال لها حوى الأصول بأسرها == طريقة أسلاف بيضاء نقية (محمد، ب.ت، صفحة

(15

3- البعد الثوري في الطريقة الشيخية ودوره في ترسيخ روح الانتماء وبناء مفهوم السيادة الوطنية

منذ تأسيس الطريقة الشيخية دائما ما كان الجهاد ودفع العدو هما ملازما لشيخوخها ومريديها، فقد تناقلت الأخبار مواقف شيخها المؤسس سيد الشيخ الجهادية، ومن الذين أقروا بأن جهادهم يعود الفضل فيه إلى نصائح وتوجيهات سيد الشيخ، الشيخ الحاج سالم بن شنطيط في رسالة بعث بها لسيد الشيخ سنة 1599م يؤكد له فيها الوفاء بامتثال نصائحه في مواصلة الجهاد، وتذكر بعض الروايات تردد سيد الشيخ على تلميذه سيدي محمد بن عودة دفين غليزان الذي كان يشاركه جهاد ضد الإسبان، ويذكر صاحب كتاب المناقب أن أحد أبناء سيد الشيخ طلب من أبيه أن يعطيه فرسه فأجابه أن تلك الفرس لا يركبها أحد، وأنه لم يركب أحسن منها وقطع بها أربعين خندقا، أي أنها كانت رفيقته في الجهاد (ابراهيم، 2016، الصفحات 150-152).

وخلال فترة العدوان الفرنسي، تثبت التقارير الصادرة عن السلطة الاستعمارية الدور الذي لعبته الطريقة الشيخية في تعبئة مريديها ضد المستعمر بإقبال الناس على تأييد أولاد سيد الشيخ وتقديم عروض الولاء لهم لم يكن تلقائيا، وإنما هو نتيجة لعدة عوامل، فقد كان أولاد سيد الشيخ يدعون الناس إلى الخروج عن سلطة فرنسا مستغلين نفوذهم الروحي بالتنقل بين القبائل أو مراسلتها كما كانوا يبعثون برسلمهم إلى البعض الآخر في مهمة التعبئة والدعوة إلى تهيئة السلاح والتزود بالبارود، فقد جاء في بعض التقارير الأخرى أن الزائرين لزاوية الشيخية يروحون عقلاء ويغدون مجانين (عاشور، 2020، صفحة 368)، وهو تعبير مجازي على مدى قدرة الطريقة الشيخية من خلال زاويتها على التأثير في الناس وتحريضهم ضد الفرنسيين.

لقد ركز زعماء أولاد سيد الشيخ على الجانب الروحي المتمثل الطريقة الشيخية من أجل ربط الناس بالجهاد وحثهم عليه، وعليه يمكن القول أن العامل الديني هو العامل الأساسي وراء الزخم الذي عرفته ثورتهم، فضلا عن المرتكز الجهادي الثائر على الأوضاع المزرية التي آلت إليها المنطقة بسبب سياسة الاحتلال في شتى الجوانب السياسية والاقتصادية والادارية، ولا سيما الدينية منها خاصة مع تصاعد وتيرة الحملات التنصيرية في المنطقة على يد الاباء وبالأخص منهم: الأب شارل دي فوكو، والشاهد هنا أن الشيخ بوعمامة عمل على ربط الصلة الروحية بين القبائل، فتعلقت القلوب به وبطريقته وزاويته حيث استطاع بتأثيره الروحي أن يستقطب ولأغلب القبائل الصحراوية، وأن ينمي فيها الوعي الديني والسياسي بدل التعصب القبلي، فحولها من قبائل متناحرة حول الماء والكأ إلى قوة تحدى بها الاحتلال الفرنسي فترك بهذه القبائل بصمة في تاريخ الجزائر الحديث وفي تاريخ كفاح الشعوب ضد المحتل.

وتجدر الإشارة إلى أن الزاوية الشيخية بقيادة بوعمامة الذي كان له نفوذ ديني وسياسي واسع استطاعت أن تستميل عددا كبيرا من القبائل نذكر منها قبائل طرافي والعمور وأولادي سيدي أحمد مجدوب المتواجدين بعسلة وحميان والشعابنة وكامل سكان قصور الجنوب الغربي، خاصة ذوي منيع وأولاد جرير وقبائل الرزاينة الغرابة والشراقة، وأولاد محالة وأولاد سرور وعكرمة المتواجدين بالمشرية، وحتى بعض القبائل بالشرق الجزائري (زكي، 1984، صفحة 413).

وقد اتبع الشيخ بوعمامة كل السبل الممكنة للاتصال ببعض القبائل لاستقطابها وضمها ولأغلبها، فأرسل بعض المبعوثين إلى القبائل يدعوهم فيها إلى الانفصال عن فرنسا، وإعلان التمرد وتهيئة السلاح والتزود بالبارود والذخيرة فعلى سبيل الاستشهاد لبت كل القصور الواقعة في ضواحي الأبيض سيدي الشيخ النداء وهي قصور بريزينة، أهل ستيتن أربا التحتاني والفوقاني، الشلالة القبليّة والظهرانية، وبوسمغون، وقبائل سيدي الحاج بن عامر.... الخ (عاشور، 2020، صفحة 370).

لم تتبرم الطريقة الشيخية من تحمل مسؤوليتها كقوة روحية وإجتماعية في الجنوب الغربي الجزائري من أجل مواجهة العدو المستعمر عبر تعبئة الناس وحثهم على الجهاد باعتباره واجبا دينيا ووطنيا، فضلا عن قيادة شيوخ الطريقة للمقاومة في منطقة الجنوب الغربي، وهو ما يبرز الدور الجهادي التنظيري والعملي لهذه الطريقة، الأمر الذي أسهم بلا شك في تعزيز مفهوم الحرية والسيادة الوطنية في قطر واسع من الأراضي الجزائرية.

إضافة إلى ما سبق، عند دراسة السياق التاريخي والظروف التي اندلعت فيها مقاومة الشيخ بوعمامة يتضح أن الطريقة الشيخية لم تكن في منأى عما يحدث في بقية التراب الوطني فقد تزامنت إنطلاقتهما مع اندلاع انتفاضة العامري في الزيبان سنة 1876م، وكذلك انتفاضة الزعاطشة الأوراس سنة 1879م وهو ما يؤكد البعد الوطني لهذه الطريقة، ناهيك عن أن بعض الباحثين يذهبون إلى القول بأن الطريقة الشيخية كان لها تأثير على موقف بعض الطرق الصوفية الأخرى كالطريقة السنوسية التي ناهضت الاستعمار الفرنسي في الجزائر والإيطالي في ليبيا والطريقة الطيبية والكرزازية التي أيدت الشيخ بوعمامة في مسعاه الجهادي، فضلا عن أن مقاومة الشيخ بوعمامة انطلقت في مرحلة تزايدت في الدعوة إلى فكرة الوحدة الإسلامية وضرورة توثيق الروابط بين أقطار المسلمين بغرض مواجهة المستعمر الذي كان يترصد بأغلب دول العالم الإسلامي، خاصة وهناك حتى من يقول أن الشيخ بوعمامة كان معجبا بجهود الحركة الإصلاحية في المشرق الإسلامي بقيادة جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ما يؤكد أن مسألة الانتماء للعالم الإسلامي كانت حاضرة في اهتمامات زعماء الطريقة الشيخية (زوزو، 2010، الصفحات 47-52).

وتجدر الإشارة في هذا الصدد كذلك إلى أن مقاومة أولاد سيد الشيخ كان لها صد جهوي ودولي يمكن اعتباره ضمن الجهود المبكرة للتعريف بالقضية الجزائرية على الصعيد الدولي، فقد كتبت جريدة التايمز الانجليزية عن الشيخ بوعمامة وثورته، كما كتبت جريدة البرهان المصرية الشيخ بوعمامة ونضاله ضد الفرنسيين (بودواية، 2018، الصفحات 361-362).

4- إسهامات الطريقة الشيعية في الحفاظ على مقومات الهوية الوطنية الجزائرية

عمل المستعمر الفرنسي بكل السبل الممكنة على محو مقومات الشخصية الجزائرية من دين ولغة وتاريخ وانتماء حتى يتسنى لها تسهيل مهمتها الاستعمارية والقضاء على أي مصدر من مصادر المقاومة عند الجزائريين، ولأن البعد الهوياتي دائما ما يكون منبع المقاومة لدى الشعوب شنت فرنسا هجوما غير مسبوق على كل شيء له علاقة بانتماء الجزائريين، يقول البشير الإبراهيمي: "لقد قذفت فرنسا هذا الوطن بأربعة أنواع من القوى مختلفة التأثير، متحدة الأثر، متباعدة المبادئ، ولكنها تلتقي عند هدف واحد هو: "التمكين للاستعمار" حاربت هذا الوطن بأربعة أصناف من الأسلحة البشرية هي: (الجندي والراهب والطبيب والمعلم) ثم أجرت لهم عملية التلقيح بمادة الاستعمار... جاءت فرنسا إلى الجزائر بالراهب لتفسد به على المسلمين دينهم، وتفتنهم به عن عقائدهم، وتشككهم بثليثه في توحيدهم، وتضار في ألسنتهم كلمة "الهادي" بكلمة "الفادي" ذلك كله بعد ما أمدته بالعون، وضمنت له الحرية، وكفرت به هناك لتؤمن به هنا وجاءت بالمعلم ليفسد على أبناء المسلمين عقولهم، ويلقي الاضطراب في أفكارهم، ويستنزلهم عن لغتهم وآدابهم، ويشوه لهم تاريخهم، ويقلل سلفهم في أعينهم، ويزهدهم في دينهم ونبيهم، ويعلمهم- بعد ذلك -تعلينا ناقصا: شر من الجهل (الإبراهيمي، 1997، صفحة 96).

ومن الأمانة القول أن هذا المشروع الثقافي الاستعماري التدميري بدأت آثاره التدميرية تظهر في البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري في شكل تفشي للجهل وظهور نخب جزائرية تؤمن بالوطن الفرنسي، لولا أن قيض الله لهذه البقعة من بلاد الإسلام ثلة من أبنائها الخيريين الذين أخذوا على عاتقهم مواجهة المخططات الاستعمارية عبر وسائل مختلفة شكلت الزوايا أحد أهم تجلياتها فقد كان لهذه المؤسسات الدينية التقليدية رغم قلة إمكانياتها دور بارز في الحفاظ على مقومات الهوية عند الجزائريين بتصدرها وظيفة تدريس وتعليم القرآن الكريم وعلوم الدين واللغة العربية ما جعلها في مقدمة المؤسسات الوطنية التي ساهمت في مقاومة

المشروع الإلحاق الثقافي الاستعماري، ففي إحصاء يعود إلى سنة 1851م جاء فيه أن عدد الزوايا بلغ في الأرياف 593 زاوية تضم 8347 طالبا من الذين أنهوا مرحلة حفظ القرآن وتعلموا مبادئ اللغة العربية (جعفري، 2018، صفحة 08).

وبما أن حديثنا يتمحور حول الطريقة الشيعية فهي كذلك بدورها لها نصيبها في الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية من خلال نشاطها التعليمي المتمثل في تحفيظ كتاب الله وتعليم أصول الدين، والدعوة إلى الله سبحانه والنصح للمسلم (شتر، 2011، الصفحات 337-338)، ونتيجة لذلك كان فصيل واسع من المجتمع في المناطق التابعة للطريقة الشيعية يحفظون القرآن ويطبّقون تعاليمه ويحتكمون إليه في معظم ما استشكل عليهم في مجال العبادات والمعاملات والأخلاق، كما احتضنت اللغة العربية وأنفقت بسخاء على تعليمها وكان ذلك من أهم أشكال مقاومة طمس الهوية والتجهيل ممنهج الذي فرضه المستعمر (ميسوم، 2019، الصفحات 52-53)، وعلى سبيل الاستشهاد نذكر بعض النماذج من الزوايا التابعة للطريقة الشيعية التي أخذت على عاتقها مهمة تعليم الدين واللغة إلى جانب أدوارها الاجتماعية والسياسية أحيانا: الزاوية المركزية الأم بالأبيض سيد الشيخ، زاوية سيد الحاج الدين، زاوية متليلي الشعانبة، زاوية عين السخونة، زاوية عسلة (شتر، 2011، صفحة 338)، الزاوية الشيعية في تلمسان، زاوية سيد التاج بلعباس، والزاوية الشيعية ببني ونيف ...، ورغم أننا لم نقف على إحصاء لعدد الطلبة وحفظة القرآن المتخرجين من هذه الزوايا وعدد الكتاتيب التابعة لها إلا أن وجود هذه الزوايا يعني بالضرورة أنها خرجت عدد معتبر من الطلبة الذين كانوا ينتقلون إلى مدنهم ومدائشهم ودواويرهم وقبائلهم حاملين هم تعليم الناس تعاليم الدين وأصول اللغة العربية، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه حول الدور التاريخي للطريقة الشيعية في الحفاظ على مقومات الهوية الوطنية الجزائرية خاصة ما تعلق منها بالدين واللغة العربية والانتماء الحضاري الإسلامي.

لقد كان للزوايا التابعة للطريقة الشيخية كغيرها من الزوايا المجاهدة في القطر الجزائري دور كبير في احتضان اللغة العربية وتعليم الشريعة الإسلامية السمحة بما كانت تلقنه لمريديها من موروث شعبي حضاري يستمد انتماءه من الحضارة العربية الإسلامية، وينتشر تأثيره في مناطق واسعة من التراب الوطني من تلمسان إلى خميس مليانة مروراً بتهرت إلى غاية توات وعين صالح ومن ورقلة شرقاً إلى عين الصفراء وبشار غرباً متجاوزاً حدود الجماعات المرتبطة دمويًا، وبذلك ساهمت الطريقة الشيخية في تعزيز روح الانتماء إلى الوطن والجماعة على حساب النعرات القبلية والحسابات الشخصية، وهذا ما يفسر سرعة استجابة مريديها عندما تحولت إلى مركز قيادة وزعامة عسكرية لمقاومة المحتل لذلك لا يمكن القفز على حقيقة الدور الهام الذي لعبته هذه الطريقة في الحفاظ على روح الانتماء إلى الوطن الجزائري التي سماها بعض المؤرخين الفرنسيين "غريزة البقاء لدى الجزائريين" (بكاي، 2013، الصفحات 233-234).

5- هل كان للطريقة الشيخية دور في رسم الحدود الجزائرية المعاصرة؟

إن الدارس لمرحلة تأسيس الطريقة الشيخية والنفوذ والمكانة التي اكتسبتها بفضل جهود شيخها المؤسس عبد القادر بن محمد السماحي الذي ساهم في لم شمل مجال جغرافي بشري ميزه طابع الصراع والندية بين مكوناته القبلية بفضل مكانته الروحية والجهود التي قام بها من أجل إزالة الخلافات وتعميم الأمن والعدل والاطمئنان، يدرك أن الطريقة الشيخية ومنذ أيام مؤسسها كانت قوة روحية اجتماعية وحتى سياسية غير منعزلة عن الأحداث التي كانت تسود التراب الوطني في تلك المرحلة والتي ميزها العدوان الإسباني على السواحل الجزائرية الذي لم يقف منه سيد الشيخ موقف المتفرج فقد عارضه ودعى إلى صده بكل السبل الممكنة، بل تذكر بعض المصادر أنه شارك شخصياً في حملات ضد الإسبان في الشمال الجزائري، من هنا يكون سيد الشيخ قد أسس لرابطة قوية بين طريقته والسلطة العثمانية التي حكمت الجزائر في هذه المرحلة التاريخية وساهمت إلى حد كبير في بناء أسس الدولة

الجزائرية الحديثة، من هذا المنطلق وحتى وإن لم توجد خرائط ترسم الحدود الجنوبية للجزائر إلا أنه يمكننا تصور تلك الحدود في شقها الغربي من خلال مجال نفوذ الطريقة الشيخية التي كانت موالية للعثمانيين الذين كانوا أول من أسس لحدود الجزائر بشكلها الحالي. إضافة إلى ما سبق، عند تتبع مراحل العلاقة التاريخية بين الطريقة الشيخية والسلطة السعدية، يتضح أن سعديين كانت لهم علاقة جيدة مع الطريقة الشيخية بلغت حد اللقاء بين سيد الشيخ والسلطان السعدي عبد الملك وتبادل الهدايا والرسائل، وتحدث بعض الروايات حتى عن مشاركة الطريقة الشيخية في معركة وادي المخازن 1578م (ابراهيم، 2016، صفحة 124)، وهذا ما يفسر ربما عدم تجرأ السلطة السعدية على التوسع على حساب مناطق نفوذ الطريقة الشيخية التي كانت موالية للأتراك رغم حملاتها العديدة على تلمسان وأطمعها المستمرة للتوسع شرقا ما يعنى أن الشيخية كان لها دور بارز في صيانة وحماية الحدود الجنوبية الغربية للجزائر بفضل نفوذها الروحي والاجتماعي ومكانتها الإقليمية.

وبعد الغزو الفرنسي للجزائر، وتخلص المستعمر من مقاومة الأمير عبد القادر، وعقد معاهدة لالة مغنية الحدودية بين الفرنسيين والعلويين سنة 1845م، بدأت أنظاره تتجه نحو الجنوب الغربي الجزائري نظرا لأهميته الاقتصادية كممر تجاري نحو الصحراء (بكاي، 2013، صفحة 245)، ومع تزايد الاهتمام الاستعماري بالمنطقة بدأت الدراسات الفرنسية حول تاريخ المنطقة وزعمائها وحدودها ومجال نفوذها وعدد القبائل التابعة لها وعلاقتها مع جيرانها والتي تصدرها لويس رين ولامارتينيار وغيرهم، وتحدث الكتابات الفرنسية حول علاقة السلطة العثمانية بالطريقة الشيخية كنموذج يجب الاستفادة منه إذ يمكن للفرنسيين تحييد أولاد سيد الشيخ كأعداء محتملين إذا تم إقرار سلطتهم على المناطق التابعة لهم، وفي كتاب "حدودنا الصحراوية" لأحد الضباط الفرنسيين يقر صاحب الكتاب أن مهادنتهم لأولاد سيد الشيخ مكنتهم من بسط نفوذهم على ما يزيد عن 700 كلم من الحدود الجنوبية الغربية قبل اندلاع

ثورتهم سنة 1864م (ابراهيم، 2016، صفحة 177) بعد وقوفهم على النوايا التوسعية الاستعمارية للفرنسيين.

إلى جانب ما ذكر سابقا لا يمكن الإنكار أن الحدود الحالية للدولة الجزائرية كما هو الحال مع جل الدول التي تحصلت على استقلالها بعد تأسيس هيئة الأمم المتحدة سنة 1945م هي تلك الحدود الموروثة عن الاستعمار ما يفضي إلى القول أن السلطات الاستعمارية أخذت المعطيات التاريخية والاجتماعية والروحية بعين الاعتبار عند رسمها لحدود الجزائر الجنوبية الغربية حتى وإن لم تلتزم بذلك في مواقف ومناطق أخرى والشاهد أن ما يزيد عن 90 بالمئة من القبائل والتجمعات السكانية التي كانت تتبع الطريقة الشيعية هي جزء من التراب الجزائري حاليا.

6- إسهام الطريقة الشيعية في نشر روح التآزر والتآلف بين أبناء الوطن الجزائري

تسخر الدول جزء معتبر من إمكانياتها عبر منظوماتها التعليمية ومنابرها الإعلامية ومن خلال تشجيع العمل التطوعي من أجل خلق حالة من الانسجام والتآزر بين أبناء الوطن الواحد، وهو أمر طبيعي نظرا لأن تعزيز الجبهة الداخلية وتقويتها هي السبيل الأمثل والأولى لتحسين البلاد وتقويتها أمام من يترصص بها، فهل كان للطريقة الشيعية دور في ذلك؟

لقد نشأ سيد الشيخ في محيط اجتماعي غير متجانس يتكون من قبائل مختلفة الأقاليم والأنساب والمصالح والولاءات والعادات، متنافرة ومتحاربة في صحراء مترامية بين أقصى الشمال والجنوب، وأقصى الشرق والغرب، ومدن وقصور لها عادات وتقاليد ومصالح تختلف جذريا عن مصالح البدو الرحل، وقوى سياسية حذرة ومتريصة بكل وافد، وأطراف متنافسة عديدة في كل الجهات، وزوايا مختلفة الانتماء في المحيط القريب (ابراهيم، 2016، صفحة 112)، لكن هذا الواقع لم يحل دون خوض سيد الشيخ غمار ما يشبه حركة إصلاحية استهدفت جمع الناس على منهج واحد عبر تجاوز الخلافات وتقريب وجهات النظر وتعزيز روح التعاون بين أفراد المجتمع المسلم اتباع لنهج نبينا -محمد صلى الله عليه وسلم- القائل: "مثل

المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد..." (البخاري، 2002، صفحة 10).

لم يدخر سيد الشيخ أي جهد بغية نيل مقصده النبيل من أجل إقامة علاقات وتقوية الصلة بين القبائل وقوافل التجار ولطلبة والمسافرين، من تعليم للطلبة وإطعام للفقراء والمساكين والأيتام وعابري السبيل، والمرضى، والتوسط في حل النزاعات والخصومات الفردية والجماعية (Rinn، 1884، صفحة 352)، وإصلاح ذات البين بين المتنازعين، والوعظ والرشاد والتربية والتوجيه، وقد جاء في كتاب الطرق الصوفية لصالح مؤيد: "لقد كان الشيخ عبد القادر معروفا بحبه للفقراء والمساكين وملازمته لهم، والعمل على حل مشاكلهم حتى لقب بقاضي الصحراء، وكان الناس يقبلون عليه أفواجا من كل حذب وصوب لزيارته وتقديم الشكر له، معترفين له بجميل إحسانه وفضله" (العقي، 2002، صفحة 558).

وعلى نفس نهج الشيخ المؤسس للطريقة الشيخية سار أغلب شيوخ الطريقة من ذريته وأتباعه فقد كان الطريقة الشيخية أيام الشيخ بوعمامة بعيدة كل البعد عما انغمست فيه الطرق الأخرى من بدع، وكانت متشددة في مقاومة المنكرات والانحراف عن مبادئ الدين الحنيف، ولم تكن تعادي بقية الطرق الصوفية المتواجدة على الساحة، بل كانت تعمل على تأليف القلوب وجمع الشمل في وقت كان الناس أحوج من يشد بأيديهم (بودواية، 2018، صفحة 356)، فمنذ الأيام الأولى لتزعم الشيخ بوعمامة للطريقة الشيخية ركز على ربط الصلة الروحية بالقبائل، فجعلها تتعلق بمنهجيته في الطريقة الإيمانية المستوحاة في جوهرها من الشيخية، التي وسمها بطبعه الورع وحياته الجهادية، ولعل العنصر الرئيسي في بصمات بوعمامة هي المرتكز الجهادي الثائر على الأوضاع المزرية، التي كانت تعيشها المنطقة، كالأحقاد والضغائن بين الناس والفرقة بين الأهل، ومن خلال هذه الأوضاع استطاع بوعمامة أن يتفهم ذهنية المنطقة وتوصل إلى أن الوازع الديني وحده الكفيل بتغيير ما يسود هناك من مآسي.

لقد استطاع الشيخ بوعمامة أن يجعل هذه القبائل المتنافرة تستقر على فكرة أو هدف واحد فعندما استتب له أمر المشيخة وأحكم قبضته على الزاوية، صار له أتباع ومريدون وتلامذة شد عقولهم بما كان له من خصائص قيادية، فسعى إلى تغيير نزعة الدروشة والجذب الغالبين على معظم الاتباع إلى حالة من الوعي الجماعي المؤسس على حقائق الدين السليم المدرك لحقيقة الواقع المزري الذي كانت تعيشه المنطقة في أواخر القرن التاسع عشر، والذي ميزه التوسع الاستعماري وتنامي الغارات من طرف قطاع ليتمكن الشيخ بوعمامة من الانتقال بهذه القبائل من واقع الصراعات المحلية والحسابات الضيقة إلى فكرة الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي، وتوظيف قدرتها العسكرية ضد قوات الاستعمار، وشحن هذه القبائل بالإيمان والجهاد في سبيل الله، وترميم العلاقات الاجتماعية بين هذه القبائل وتقريب وجهات النظر بينها، حيث استطاع بتأثيره الروحي أن ينمي الوعي السياسي الوطني بدل القبلي (بكاي، 2013، صفحة 257)، والانتقال بها من حالة التنافر والصراع والريبة والجهل بالواقع إلى حالة من الانسجام والتقارب والتضافر في الجهود لمواجهة الخطر الداهم المتمثل في التوسع الاستعماري.

7- خاتمة

ختاما ومن خلال هذه المداخلة يمكن الوقوف على الاستنتاجات التالية:

- أن الطريقة الشيخية بتصدرها الكفاح ودعاوي الجهاد ضد المحتل قولاً وعملاً ومنذ أيام شيخها المؤسس سيد الشيخ أسست لمفهوم السيادة الوطنية.
- إن السياق التاريخي الذي ميز اندلاع ثورة بوعمامة والذي تزامن مع اندلاع مقاومة الزعاطشة والعماري في الشرق الجزائري يدل على وعي الطريقة الشيخية بالانتماء الوطني وضرورة تضافر الجهود من أجل صد الاستعمار.

- الطريقة الشيعية عبر زواياها وجهود شيوخها ومريديها ساهمت في مواجهة سياسة التغريب الاستعماري من خلال صون مقومات الشخصية الجزائرية خاصة منها الدين الإسلامي واللغة العربية.
- ساهمت الطريقة الشيعية بشكل معتبر في الحفاظ على المرجعية الدينية الجزائرية المتمثلة في الأشعرية عقيدة والتصوف سلوكا والمالكية فقها.
- حديث بعض الباحثين عن إعجاب الشيخ بوعمامة بفكرة التعاون الإسلامي وجهود الحركة الإصلاحية دليل على أهمية الانتماء الحضاري الإسلامي في اهتمامات شيوخ الطريقة الشيعية.
- شكلت الطريقة الشيعية بقاعدتها البشرية حصنا منيعا للحدود الجزائرية الغربية أمام الأطماع التوسعية ومرجعية في رسم حدود دولة الجزائر الحديثة.
- ساهمت الطريقة الشيعية في إزالة كم معتبر من الحواجز والنعرات والخلافات بين أبناء الوطن الواحد مما زاد من روح التآخي والتآزر والوعي الوطني.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- الأبراهيمي البشير، (1997). آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- 2- البخاري، أ. ب. (2002). صحيح البخاري، بيروت: دار طوق النجاة.
- 3- (2010). مميزات الطريقة الشيعية . <https://sidicheikh.yoo7.com/t3192-topic>
- 4- العقبي، صلاح مؤيد. (2002). الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر نشاطها وتاريخها، بيروت: دار البراق.
- 5- بكاي، رشيد. (2013). سلطة الخطاب الصوفي في الجزائر، أدوار التنظيمات الصوفية خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية ...، أطروحة دكتوراه مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، وهران: جامعة وهران.
- 6- بن براهيم الطيب. (2016). إمارة أولاد سيد الشيخ 1580-1881 م (01 ed.) غرداية: دار صبي للطباعة والنشر..
- 7- بودواية مبخوت. (2018). دور الطريقة الشيعية في مقاومة أولاد سيد الشيخ الثانية. مجلة الموقف.
- 8- جعفري، مبارك. (2018). الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر ودورها في ترسيخ الوحدة الوطنية. بلعباس: جامعة بلعباس.
- 9- زكي، المبارك. (1984). المجاهد بوعمامة من خلال بعض المصادر المغربية المعاصرة. الجزائر: مجلة الثقافة.
- 10- زوزو، عبد الحميد. (2010). ثورة بوعمامة. موقف للنشر.
- 11- شثرة، خير الدين. (2011). الدور الثوري للطرق الصوفية خلال الحقبة الاستعمارية من 1830 إلى مطلع القرن 20 الطريقة الشيعية نموذجا، ص 331. مجلة الحقيقة.

- 12- عاشور الزهراء. (2020). *الطريقة الشيعية ما بين 1875-1908 م قراءة في الأدوار الدينية والاجتماعية والجهادية*. الجزائر: مجلة الدراسات التاريخية.
- 13- محمد بن عبد القادر (). *الياقوتة*. أدرار: مكتبة المعارف.
- 14- ميسوم, ميلود. (2019). *الدور السياسي والثقافي للطريقة الشيعية في مناهضة الاستعمار الفرنسي في الجزائر*. مجلة روافد للبحوث والدراسات.
- 15- Rinn, L. (1884). *Marabout et Khouans, Etude sur L'islam en Alger*. Alger: Librairie editeur

تاريخ الأبحاث والدراسات الأثرية لفترة ما قبل التاريخ بمنطقة الجنوب الغربي وإقليم الساورة "دراسة حالة محطات الفن الصخري"

The history of archaeological research and studies for the prehistoric period in the Southwest region and the region of Sawra "A case study of rock art stations"

د. نوال بن صغير: جامعة زيان عاشور - الجلفة (الجزائر)، n.benseghier@ univ-djelfa.dz

ملخص:

منذ الاستقلال عرف البحث الأثري بالجزائر تطورا كبيرا في مجال علم الآثار عامة وفترة ما قبل التاريخ خاصة. وتعتبر منطقة الجنوب الغربي وإقليم الساورة من أهم المناطق في البحوث عن النشاط البشري وتطوره، وأهم ما يميزه هو الفن الصخري، أين رسم ونقش عليها تعابير أفكاره ومعتقداته وطقوسه حيث تكتنز المنطقة عددا كبيرا من المواقع الأثرية خاصة مواقع الفن الصخري، والتي تعد من أهم الشواهد الحضارية التي تركها الإنسان بالمنطقة، وعبرت بصدق عن تاريخه واستقراره والمحيط البيئي والطبيعي المجاور له. فجاءت هذه الورقة البحثية لتعرف بتاريخ الأبحاث والدراسات الميدانية لمحطات الفن الصخري بالمنطقة قبل الاستقلال وبعده وبغية إثرائها وتحيينها، فهو تراث أثري حضاري لا بد من حمايته.

كلمات مفتاحية: جنوب غربي، إقليم الساورة، فن صخري، أبحاث، دراسات

Abstract :

Since Independence Archaeological, research in Algeria witnessed great development in the field of archeology prehistoric period. The southwestern region and the Sawra region in Algeria are considered among the most important regions in research on human activity and its development. The most important thing that distinguishes it is the rock art, when to draw and engrave expressions of his ideas, beliefs, rituals, this research paper aims to learn about the history of research studies of rock art stations in the region before and after independence, and to enrich and update research. Rock art stations in Algeria are a unique archaeological and cultural heritage that must be protected

Keywords: Southwest; Region of Sawra; prehistory; rock art stations; Research; Study's

1. مقدمة:

علم الآثار هو العلم الذي يدرس القديم أو كما تعرفه بعض المصادر الحديثة هو "علم التحري عن الأصول المادية لحضارة الإنسان ومن ثم فهو الوفاء للقديم وتتبع مسيرة التطور البشري عبر العصور. ومنذ الاستقلال عرف البحث الأثري بالجزائر تطورا كبيرا في مجال علم الآثار عامة وفترة ما قبل التاريخ خاصة. ومن أهم الاكتشافات الأثرية التي أذهلت الباحثين لفترة ما قبل التاريخ وفجره، الفن الصخري بنوعيه المنقوش والمرسوم والتي لا تقل في أهميتها التاريخية والأثرية عن الصناعات الحجرية والعظمية والفخارية، ذلك أنها بمثابة سجل يعرض لنا جوانب من الحياة اليومية للإنسان النيوليتي كالجانب الاجتماعي، الاقتصادي، المعتقدات الدينية، أين نفدت وأنجزت بتقنيات مختلفة وأساليب خاصة، حيث عبرت على أسى درجة تطور ثقافات ما قبل التاريخ.

وتعتبر منطقة الجنوب الغربي وإقليم الساورة بالجزائر من أهم المناطق في البحوث عن النشاط البشري لفترة ما قبل التاريخ وتطوره، وأهم ما يميزه هو الفن الصخري (المنقوش والرسوم) الذي يعد من أهم الشواهد الحضارية التي تركها إنسان ما قبل التاريخ بالمنطقة، فكانت الملاجئ والصخور وجهة وسند ولوحة له يرسم وينقش عليها أحاسيسه وأفكاره، أين جسد فيها كل ما هو موجود في محيطه ونمط معيشته وحياته اليومية بأساليب وخصائص مميزة عن باقي مواقع الفن الصخري بالجزائر. حيث تعتبر محطة تيوت بعين الصفراء ولاية النعامة كأول محطة اكتشفت سنة 1847م، ثم بعدها شهدت المنطقة عدة أعمال أثرية سعت للبحث في تاريخ المنطقة، وقد جرت تلك الأعمال خلال فترة الاستعمارية وبعد الاستقلال، ما أدى إلى كشف النقاب عن محطات أخرى، أين ساهمت تلك الاكتشافات في تطور البحوث التاريخية والأثرية بالمنطقة، وتسليط الضوء على العديد من جوانب الحياة المعيشة لدى إنسان ما قبل التاريخ.

فمنطقة الجنوب الوهراني (الجنوب الغربي إلى إقليم الساورة) احتوت على عدد كبير من المواقع الأثرية خاصة مواقع الفن الصخري، مما جعلها تحظى بالعديد من الاكتشافات والدراسات خاصة خلال القرن 20، لعبت دورا كبيرا في إثراء الأبحاث وإبراز وحفظ الموروث الثقافي في المنطقة، غير أن هذه الأبحاث تبقى مؤقتة وليست منهجية لتوجه الباحثين في دراستهم إلى تطبيق العديد من المناهج القائمة على الجانب الوصفي التحليلي والتقسيم الكرونولوجي. فجاءت هذه الورقة البحثية لتعرف بتاريخ الأبحاث والدراسات الميدانية لمحطات الفن الصخري بالمنطقة قبل الاستقلال وبعده، وهذا من أجل إثراء الأبحاث والدراسات التحليلية الأكاديمية، تحيينها وتوثيقها، تصنيفها وجردها وحفظها. ومنه طرح الإشكالية الرئيسية التالية: ماهي أهم الخصائص والمميزات الفنية لمحطات الفن الصخري بالجنوب الغربي الجزائري وكذا إقليم الساورة؟

يفترض بحثنا أن الاعتماد على تاريخ الأبحاث الأثرية والدراسات والأعمال الميدانية من تقارير ومقالات وأطروحات الدكتوراه ورسائل الماجستير التي تناولت موضوع الفن الصخري تصنيفاته وخصائصه، فهي أمر ضروري في عمليات التوثيق والدراسات التحليلية لمواقع الفن الصخري بالمنطقة، وتحديد مراحل وتاريخه، ودوره في إثراء الأبحاث وحالة حفظها، وهذا من خلال تسليط الضوء على ولاية البيض، النعامة من ولايات الأطلس الغربي الصحراوي وإقليم الساورة لولاية بشار كنموذج للدراسة في هذه الورقة العلمية البحثية.

2. الإطار الجغرافي والطبيعي لمواقع الدراسة:

1.1 الإطار الجغرافي لمواقع الدراسة:

عرف الباحثون علم الجغرافيا أنه العلم الذي يدرس مظاهر سطح الأرض ونشاط الإنسان والبيئة، فالظروف المناخية والبيئية لها دور في استقرار المجموعات البشرية والحيوانية، فمنطقة الدراسة شملت حظيرة الأطلس الصحراوي (ولاي البيض والنعامة)

وإقليم الساورة (ولاية بشار) في الفترة الحديثة وفي الدراسة السابقة بمنطقة الجنوب الوهراني وتمتد من (ولاية الجلفة-الأغواط-البيض-النعام-بشار)

1.1.2 منطقة جبال القصور (ولاي البيض والنعام):

*الإطار الجغرافي لولاية البيض:

تقع ولاية البيض في الجنوب الغربي للجزائر، بين خطي عرض (30°-40°) شمالا وخطي طول (00°-01°) شرقا، بمساحة قدرها 71696,70 كلم²، وعلى ارتفاع 1390 م عن سطح البحر، يحدها من الشمال كل من ولاية سعيدة وتيارت، وسيدي بلعباس ومن الشرق والجنوب الشرقي ولاية الأغواط، أدرار، غرداية ومن الجنوب الغربي ولاية النعام وبشار. كما أنها تجمع بين الصحراء ومناطق الهضاب العليا (ANIREF/MONOGRAPHIE WILAYA D'EL Bayadh, 2020 : 03).

*الإطار الجغرافي لولاية النعام:

تقع منطقة النعام في الشمال الغربي من الجزائر، تبعد عنها بـ 662 كم²، فهي تشكل بذلك مدخلا للصحراء الكبرى، وهذا ما يمنحها تنوعا جغرافيا استثنائيا، بها أعلى قمة جبلية في سلسلة الأطلس الصحراوي قمة جبل عيسى بارتفاع 2236 م على سطح البحر والذي يعتبر امتدادا لسلسلة جبال القصور بالأطلس الصحراوي، الإحداثيات الجغرافية للولاية هي كالآتي: خط عرض 33.2622 وخط طول 0.314444، 33° 15' 44" شمال و 0° 18' 52" غربا وهي تمتد على مساحة إجمالية تقدر 29000 كم²، حدود ممتدة شمالا مع ولايتي تلمسان و سيدي بلعباس، وغربا ولاية سعيدة والمملكة المغربية ومن الشرق ولاية البيض، من الجنوب ولاية بشار ((ANIREF/MONOGRAPHIE WILAYA DE NAAMA, 2020 : 03)

2.1.2 إقليم الساورة (ولاية بشار):

تقع ولاية بشار في الجنوب الغربي من التراب الوطني الجزائري، تبعد حوالي 1000 كلم عن الجزائر العاصمة، تعد بوابة الصحراء باعتبارها همزة وصل ما بين الشمال والجنوب، يحدها شمالا كل من ولايتي البيض والنعام، غربا المملكة المغربية على بعد 25 كلم، جنوبا ولاية تندوف وشرقا ولاية أدرار، تبلغ مساحتها 161400 كلم أي 6.78 % من التراب الوطني، تضم ولاية بشار 21 بلدية، والبعض من هذه البلديات تشكل لنا إقليم الساورة، والمنطقة تتكون من عدة دوائر أهمها: تاغيت، إقلي، بني عباس، الواتة، بني يخلف، كرزاز (خلفي، 2011-2012: 15)

2.2 الإطار الجيومورفولوجي والجيولوجي لمواقع الدراسة:

1,2.2 منطقة لقصور (الأطلس الصحراوي):

تعتبر منطقة الأطلس الصحراوي أهم سلسلة جبلية في الجزائر من الناحية المورفولوجية، مشكلة من تضاريس متكاملة حيث يتشكل من سلاسل جبلية متتابعة ذات اتجاه جنوب-غرب-شمال-شرق تنحصر بين الهضاب والتشكيلات الأولى للعرق الشرقي والعرق الغربي، وهي عبارة عن كتل جبلية مرتبطة، يفوق امتدادها 2400 كلم وعرضها 300 كلم على ارتفاع 2000 م تمتد موازية لسلسلة الأطلس التلي وهضاب النجود العليا بدءا بـ جبال بوعمود غربا والتي يبلغ ارتفاعها 2136 م، ثم جبال أولاد نايل في الوسط فـ جبال نامشة شرقا والتي يبلغ ارتفاعها 2000 م. (D'espoir, 2003 : 133) أما البنية العامة للأطلس الصحراوي تعود إلى العصر الجوراسي والكريتاسي والايوسين، فهذا الأخير ناتج عن نشاط تكتوني كثيف خلال الزمن الجيولوجي الثالث (السينوزويك الذي يؤرخ بحوالي 65 إلى 0.3 مليون سنة)، وكذا تكوينات لطبقات من الحجر الرملي والتي تعود إلى فترة الكريتاسي الأعلى وكذا ترسبات طينية فحمية (Flandrin, 1952 : 47).

2.2.2 إقليم الساورة:

الهضاب الصخرية الشمالية. الوسطى و الغربية: تقع جنوب ولاية بشار، تعتبر إحدى المحطات الرئيسية للطريق العابر للصحراء الكبرى والذي يربط شمال إفريقيا بإفريقيا السمراء، تشكل وحدة واحدة تمتد من هضبة ميزاب شرقا إلى حمادة غير (guir) عند الحدود المغربية غربا، ومن سفوح الأطلس الصحراوي الغربي شمالا إلى غاية دائرة عرض 26° شمالا، و هي منطقة سلسلة هرسينية جيرية تعود للعصر الديفون مكونة خطا يمتد من سفوح الأطلس الغربي الطاسيلي، يبلغ عرضها في المتوسط 125 كلم، تختفي سلسلة أوغرطة (لوقارطة) في الشمال تحت الحمادات وهي من الأقدم إلى الأحدث من سلاسل جبال لوقارطة والتي تمتد من تاغيت شمالا مروراً بالمنطقة وصولاً إلى كرزاز، ويحدها من الشرق وادي الساورة وكذلك بالكثبان الرملية التابعة للعرق الغربي الكبير المنطقة مكونة من ثالث حقب زمنية فقط وهي Tertaiaret ذات مساحات شاسعة وأطلق عليها الجيومورفولوجيون والجيولوجيون اسم "الحمادة" أو الرق وموقعها من الأطلس الصحراوي شمالاً إلى كرزاز جنوباً (Menchikof, 1933 : 109).

3. الفن الصخري

الفن الصخري بنوعيه المنقوش والمرسوم هو عبارة عن إبداعات إنسان ما قبل التاريخ رسمها على واجهات الصخور جدران المغارات والمخابئ، عبر من خلاله عن فكره وعقيدته بأشكال ورسومات وصور ورموز لازال لم يفك معانيها، عرفت باسم الحجرة المكتوبة بلسان أهلها وسكانها المحليين تعكس المحيط البيئي للإنسان القديم وجوانب من حياته وتعتبر منطقة الجنوب الوهراني من الجنوب الغربي (الأطلس الغربي الصحراوي) إلى إقليم الساورة من أهم المناطق الكبرى في الجزائر والتي تحوي أجمل وأحسن النماذج.

1.3 تاريخ الأبحاث:

تعود أولى الأبحاث بالأطلس الصحراوي خلال القرن الماضي مجموعة من الدراسات، الأبحاث و الأعمال الأثرية، كما عرفت بعض منطقته جرد أثري نوعا ما شامل. مرفقة بالصور والخرائط، حيث تعود أولى الاكتشافات في العالم للفن الصخري مع الحملة التي أقدمت عليها فرنسا لاكتشاف الجنوب الوهراني و في سنة 1847 م، بالضبط، اكتشف الباحثين " Jacques Koch أول موقعين في الأطلس الصحراوي (التيوت - مغرار التحتاني)، تتوغل بعدها الحملة الاستعمارية الفرنسية في الجنوب الوهراني و التي شارك فيها عسكريون و أطباء و جيولوجيون و جغرافيون فرنسيون، كان أول مكتشفها هو السيد ج. الشامبيري G.Champert في منطقة التيوت بالقرب من عين الصفراء، وأشار إليها الدكتور Félix Jachot في مقاله نشره في نفس السنة، ثم اكتشافات أخرى في نفس السنة بعين الصفراء بتاريخ 25 أفريل 1847م (Aumassip, 1986: 86)

منشورات Jacques Koch في سنة 1849، Duveyrier في سنة 1864م، في عام 1892م خلال البحث الجيولوجي من طرف G.B.M Flamand عن وجود حوالي عشرين محطة، شكل أطلس الأثري بالجزائر لستيفان غزال Gsell, S سنة 1911م مجرد لمواقع ما قبل التاريخ والنقاط الأثرية على خرائط الجزائر مع نصوص توضيحية خاصة منطقة الأطلس الصحراوي كما يعود إليه الفضل في تنظيم الأسس المنهجية لإقامة كرنولوجيا للفن الصخري المنقوش (Flamand, 1921: 15) و لم يتم نشر أعماله إلا بعد وفاته سنة 1921م من طرف س. غزال منها "Les Pierres Ecrites" توسعت الأبحاث فيما بعد في عشرينيات القرن الماضي من طرف مجموعة من الباحثين في كل من شرق، وسط وغرب الأطلس الصحراوي، فجاء على ضوءها مجموعة من المنشورات منها دراسة ل. فروبينيوس وأوبريماير سنة 1925م اللذين أعادا النظر في أسس دراسة الفن الصخري لفلامن وانتقدها في أسس الرفع الأثري للنقوش. وتواصلت البحوث في الثلاثينات منها أعمال A.Pomel من سنة 1893 إلى 1898 R. Vaufrey الذي نشر في الفترة من سنة 1935 إلى 1957 العديد من الدراسات لأكثر من 36 محطة وبعضها لم ينشر،

وفي سنة 1957 ووضع لوحات لهذه الرسومات (Lethiellieux, 1965: 249-269) اللذين ردوا الفن الصخري المنقوش إلى فترة الباليوليتي عكس س. غزال الذي استنتج من خلال أبحاثه بين 1901 و1927 م أن بعض النقوش تعود حتما إلى الفترات التاريخية نظرا لوجود الكباش والذي اعتقد أنها مستوحاة من الطقوس المصرية. كمان العديد من الباحثين كما يعرفنا الباحث P. Belli على بعض نقوش الصخرية. ثم استمرت الاكتشافات في التكاثر وذلك ابتداء من سنة 1950 التعرف على عدة نقوش منقوشة على صخر. وفي سنة 1951 اكتشف أهم محطات منطقة الساورة من قبل القائد الفرنسي "longa villa" وفي نفس السنة قام الباحث والجيولوجي الذي كان مدرّس المنطقة H. Aliman.

وفي الفترة الاستقلال سنة 1952 إلى 1984 م اكتشافات أخرى لـ François de Villaret والتي درست من طرف كل من H. Lhote و Huard وذلك من سنة 1952 إلى 1984 م، أحصى الباحث الجيولوجي Flamand أكثر من عشرين موقعا، أهمها موقع كبش بوعلام، العقرب العملاق بموقع قارة الطالب كما وصفها الباحث H. Lhote الأثر الأكثر روعة في الجنوب الغربي، موقع الكريمة،.... الخ. وتوالت الاكتشافات والزيارات لهاته المحطات من طرف العديد من الباحثين. ومن سنة 1964 إلى سنة 1969 م منهم P. Ashoskow، Lefebvre، amour، والباحث أ. ميزوليبي (Muzzolini, 1995: 104) بأبحاث تتعلق ببيمنوغرافيا النقوش الصخرية مخالف للدراسات السابقة، ويرى أن الفن الصخري لازال خصبا ويحتاج إلى دراسات أخرى وقابلا للمراجعة وإعادة النظر فيه. وفي الأخير الباحث ف. سوليهافوب (Soleilhavoup, 1981: 61-70) الذي أولى جانب حفظ وحماية النقوش الصخرية. دراسة الباحثة مليكة حشيد سنة 1993 م بنشر جزئين لكتاب تحت عنوان "حجرات مكتوبة" وهي عبارة عن جرد وافٍ لبعض نقوش الصخرية لجبال عمور وجبال القصور، وأهم التقسيمات وتصنيفات الكرونولوجية والتي سبق أن عرفها لوت سنة 1992. اكتشاف موقع خنق التصاوير سنة 1985 م من طرف الشيخ إبراهيم أحد سكان المنطقة، وفي سنوات 1983-1986-1988-1989 (بقدر، 2021: 318)

2.3 دراسة محطات الفن الصخري بمنطقة الدراسة:

لجأ الباحثون لتسهيل دراسة الفن الصخري إلى وضع تصنيفات حددوا فيها المراحل والأساليب التي مر بها هذا الفن، ويصنف الفن الصخري حسب ظهور واختفاء حيوانات معينة، وهناك تصنيف آخر حسب نوع الفن كونه طبيعياً أو رمزياً، كما يصنف أيضاً حسب نشاط الإنسان إلى فن الصيادين وفن الرعاة، كما يمكن تقسيمه تبعاً للمجموعة أو مجموعات البشرية، وتعدد الاكتشافات لمواقع النقوش تنوعت المعطيات التي أقيمت على أساسها التصنيفات الكرونولوجية للفن الصخري كمايلي:

1.2.3 التصنيفات الكرونولوجية لمحطات الفن الصخري:

*تصنيف G. Flamand: هو أول من حاول تقسيم الفن الصخري كرونولوجياً وذلك من خلال ما جاء في كتابه "الحجرة المكتوبة" 1921 بحيث قسم النقوش الصخرية إلى طابقين الأول ذو أشكال نيوليتية قديمة كالحيوانات ذات أسلوب طبيعي وطابق الثاني لبي بريري ذو أشكال صغيرة (Flamand, 1921: 23).

* تصنيفات L. Frobenius 1925: اعتمد على تصنيفات G. Flamand أضاف إلى الطابق القديم النيوليتي مرحلتين مرحلة ذات أحجام كبيرة ومرحلة ذات أحجام صغيرة أما بالنسبة للطبقة الليبية البربرية فقسمها هي الأخرى إلى مرحلتين وهما: مرحلة الأشكال التخطيطية ومرحلة الأشكال الهندسية (Lhote, 1970: 158).

* تصنيفات H. Breuil 1931: اعتمد في دراسته على الأساليب الفنية وتركز تقسيماته على ما يلي: المرحلة القديمة تمثلت في أشكال حيوانية متوحشة كاملة ومتقنة الإنجاز كالجاموس العتيق وبعض الفيلة والأسود. المرحلة المتوسطة عبارة عن أشكال حيوانية متوحشة غير كاملة التمثيل كالجاموس والفيلة إضافة لذلك أدخل عليها كل من الكباش والبقر واعتبرها حيوانات متوحشة ومرحلة مكملية للمرحلة الأولى. المرحلة الحديثة احتوت هذه المرحلة على أشكال بسيطة مثل الطباء، الثيران المستأنسة والخيول (Lhote, 1970: 159).

* تصنيفات 1932T. Monod: قام بتصنيف الفن الصخري إلى مرحلتين أساسيتين معتمدا في ذلك على الأساليب الفنية وتقنيات الخط والزنجرة بحيث قسمها على النحو التالي: المرحلة الأولى سماها مرحلة ما قبل الجمال، وقسمها هي الأخرى إلى فترتين فترة القديمة تحتوي على حيوانات متوحشة كالجاموس العتيق والفترة الحديثة تحتوي على البقر المستأنس. المرحلة الثانية وهي فترة ظهور الجمال، وقسمها هي الأخرى إلى فترتين الأولى الليبية البربرية والثانية عربية بربرية (Muzzolini, 1986: 70).

* تصنيفات 1970H. Lhote: جاءت أبحاثه كحوصلة للأعمال التي أقيمت سابقا بحيث قسم الفن الصخري إلى ما يلي: (Lhote, 1970: 170-176).

- فترة الجاموس: قسمت هي الأخرى إلى مرحلة الجاموس: تتميز هذه الفترة باحتوائها كل النقوش التي تمثل الحيوانات المفترسة ذات الأسلوب الطبيعي كالجاموس العتيق، الفرس، الفيل، الأسد وتمثيل إنساني والحيواني صغير المقاسات

- مرحلة مدرسة التازينة: تتميز هذه المرحلة بحيوانات المتوحشة بمقاسات صغيرة وأسلوب طبيعي، إلا أن نهاية الأطراف تأتي دائرية نوعا ما.

- مرحلة الجاموس المنحط: تحتوي على نقوش مثلت بطريقة بسيطة وأسلوب شبه طبيعي أي غير واقعي نوعا ما بحيث مثل الإنسان، النعام الأسود، البقر، الظباء، كما يعتقد الباحث أنها المرحلة النهائية لفترة الجاموس.

- الفترة البقرية: هي عبارة عن نقوش شبه طبيعية، تنقصها الواقعية، أغلبها ذو التمثيل الحيواني وخاصة الثور المستأنس، أما بالنسبة لتمثيل الإنسان فهو قليل كما يشير الباحث إلى تعدد الأشكال ذات أسلوب تخطيطي.

- فترة الأحصنة: تشمل نقوش لأحصنة تجر عربات وهي ذات أسلوب تخطيطي.

- الفترة الليبية البربرية: تتضمن نقوشا للجمال وظهور أولى الكتابات ألا وهي التيفيناغ.

- فترة العربية البربرية: تشمل نقوشا بربرية عربية.

*تصنيفات مليكة حاشيد 1982-1983: قسمت بدورها الفن الصخري إلى أربعة مراحل: (Hachid, 1992: 35-38).

-فترة الجاموس الطبيعي: إن رسومات هذه الفترة تنتمي إلى أقدم مراحل الفن الصخري التي امتازت بتمثيل الحيوانات بأحجامها الطبيعية، وقد عبر الإنسان من خلال رسوماته الصخرية عن الحيوانات التي كانت موجودة في وسطه الطبيعي مثل الفيل، الزرافة وحيد القرن، وما يميز هذه الفترة على أنها تنتمي إلى مجتمعات ذات نمط معيشي قائم على الصيد.

- الفترة البقرية: ترتبط هذه الفترة بنشاطات الرعي واستئناس الحيوانات. وتعد الأبقار والماعز إلى جانب الكلاب الحيوانات هي الأكثر تمثيلا، اشتهرت هذه الفترة بحس فني جد متطور وبالتحكم الكلي بحركية الأشكال الممثلة، والتي تترجم في مجملها نشاطات للحياة اليومية التي ميزت مجتمعات الرعاة.

- فترة العربات: ما يميز هذه المرحلة هو التنوع التمثيلي، كما أدخل فيها الحصان واستعمل الحصان كحيوان للجبر، والركوب، وقد تميز تلك المرحلة بالدقة واستعمال الألوان لاسيما الحمراء منها.

- المرحلة الليبية البربرية: وهي المرحلة الأخيرة في التسلسل الكرونولوجي للرسوم الصخرية وتصادف في مرحلته بداية التاريخ الميلاد. وظهور حيوان الجمل، وعرفت هذه المرحلة تمثيل أشخاص مسلحين، بأقواس ورماح، كما مثلت أنواعا نباتية (نخيل). كما أنه انتقل من الرسومات الدقيقة الممثلة لعناصر محيطه الطبيعي إلى نمط ذي أشكال هندسية والتي تطورت إلى ابتكار الكتابة ألا وهي التيفيناغ.

2.2.3 خصائص ومميزات الفن الصخري بمنطقة الدراسة:

*الأسلوب:

مر الفن بعدة مراحل من حيث الأسلوب واستعمل الباحثون طرقا متنوعة في دراسة أساليب للنقوش، مما سمح لنا بتعريفه، تقييم وتمييز بين الأشكال الممثلة على واجهات الصخور، وكذا استنتاج كرونولوجيا للنقوش وأساليب فنية متنوعة بين الطبيعية (التي حظيت بمستوى كبير من الواقعية في التمثيل)، والشبه الطبيعية (تستخدم لتقييم النقوش القريبة جدا من الأسلوب الطبيعي)، شبه تخطيطية (تستعمل للنقوش ذات مقاييس كبيرة وصغيرة وهذا بانعدام الدقة في تمثيل الأشكال) وتخطيطية (يخص كل النقوش الهندسية، النقوش الطبيعية المهمة، الكتابات، الأدوات والرموز) وأسلوب التازينة (Lhote, 1970: 83) (Muzolini, 1986: 318)

*الأشكال وتقنية إنجاز الخط:

إن دراسة الأشكال الممثلة في النقوش الصخرية، عنصر ذو أهمية كبيرة، تمكننا من التعرف على الخصائص الفنية والتقنية الخاصة بإنجاز الأشكال، والأسباب التي دفعته إلى التنوع في أبعاد المواضيع والتي تكون مرتبطة بالعنصر الكرونولوجي، والذي اكتسب دقة فائقة في معالجة المساحات وإنجاز الخط وتقنيات استعمال المنظور والوضع، وغالبا ما يمثل الحيوان بمظهر جانبي، والإنسان بالمواجهة، أو وفق منظور، فهي تعود حسب المهارات التي يقدمها الإنسان في إنجاز أشكاله (بحرش، 2008-2009: 30 و 31)، أيضا رموز وأشكال هندسية: أشكال رباعية، دوائر مقطعة، شبابيك، ألغاز مركبة، لعبة الشيطان، رموز لمعتقدات. الأدوات على شكل ثعابين، فؤوس، أدوات الصيد مسماة بلعبة الشيطان (Diabol)، الأسلحة: منها القوس، النبال، الأدرع، الرمح، وهي عبارة عن وسائل دفاعية. أيضا نجد كتابات ليبية بربرية، وكتابات عربية بربرية، التيفيناغ. وأخرى غير معروف وحسب الباحثين تدخل ضمن مجموعة الأشكال الطبيعية المهمة سواء أكان إنسانا أو حيوانا أو رمزا.

كما استعمل فنانون ما قبل التاريخ عدة تقنيات لإنجاز النقوش الصخرية، واختلفت تقنيات مختلفة من محطة إلى أخرى ومن موقع إلى آخر كتقنية الصقل، التنقيط، الحز،.....الخ، حيث يبدأ في تسوية الواجهة محاولة منه في إعطائها وجها متجانسا، وهذا بحك المساحة المراد النقش أو الرسم عليها لنزع الخشونة وتكون ملساء سهلة، بعد ذلك يبدأ بالنقش أو الرسم الأولي باستعمال حجر الصوان، أزاميل (Hachid , 1992:62-63)

3.2.3 تاريخ النقوش:

عدة محاولات لباحثين كهنري لوت رجحه إلى الألف الخامسة قبل الميلاد، أما الباحث ميزولني الذي يرى أن هذا الفن يعود إلى الألف الرابعة قبل الميلاد، أما الباحثين بروي وفوفري إلى الثقافة القفصية والعصر الحجري القديم المتأخر. وفي الأخير اتفق الباحثون والمختصون في لوضع الفن الصخري ضمن العصر الحجري الحديث، والذي أنجز في الهواء الطلق على صخور حجرية رملية، وإن النقوش الصخرية بالجنوب الوهراني ومنطقة الساورة هي الأخرى ترجع إلى العصر الحجري الحديث، والتي يعود تاريخها إلى حوالي الألفية العاشرة وتبقى نسبوية تاريخ الفن الصخري مطروحة، وذلك باعتمادهم على التقسيمات و تصنيفات النقوش الصخرية ولذلك استعمل الباحثون عدة وسائل لتأريخ النقوش من أهمها التاريخ من خلال مقارنة الزنجرات، فالزنجرة هي نتاج ظواهر التعرية المختلفة كالميكانيكية، الكيميائية و البكتيرية، إلا أنها تبقى صعبة و محدودة لتأريخ من خلال الحيوانات الممثلة وهنا يساعد في معرفة الفصائل الحيوانية و كما أنه يثري بمعلومات حول البيئة و المحيط الطبيعي ، و أخيرا التاريخ بواسطة الأساليب الفنية من خلال التقنيات التي استعمالها إنسان ما قبل التاريخ من مواضيع في وسطه الطبيعي وهذا بتمثيل المواضيع بتسلسل الفترات الزمنية (Hachid , 1992:35-38)

3.3 نماذج الفن الصخري بمنطقة الدراسة:

1.3.3 منطقة جبال لقصور:

الموقع الواحد على عدة محطات يعبر فيها إنسان ما قبل التاريخ في أغلب الأحيان بأشكال ورسومات لمواضيع الأدمية، صيد وراحة، الرعي، الجنس، طقوس السحر... الخ لكن مواضيع الحيوانات الكبيرة المتوحشة اخدت حيزا كبيرا في الفن الصخري لهذه المنطقة (البقر الوحشي، الثور، الفيلة، النمر، الأسد، وحيد القرن،... الخ). حيوانات أخرى (النعام، الكلب، القرد، الحلزون، جمال)، أشكال هندسية، أدوات، أسلحة و اتباع عدة تقنيات في إنجاز الخط منه المصقول و المنتظم، المحز و المنقط، أما عن الأساليب نجد منها الطبيعية و الشبه طبيعية، التخطيطي و الشبه التخطيطي، وأسلوب التازينة حيث تحتوي ولاية البيض على أكثر من 200 موقع و محطة النعام على أكثر من 300 محطة منها :

*محطة تيوت (عين الصفراء-النعام) : تقع المحطة على بعد 04 كلم من مقر بلدية تيوت الواقعة جنوب النعام مقر الولاية و شرق دائرة العين الصفراء ب18 ، كلم وجنوب غرب بلدية عسلة و شمال بلدية مغرار اكتشف الموقع سنة 1847م وهو عبارة عن جرف يحمل نقوشا عديدة والمتمثلة في فيل وأربعة غزلان، بالإضافة إلى بقرين وثلاثة آخرين حولهما، وهناك مشهد آخر لصيد النعام من طرف شخص ووجود امرأة و كبش و كلب، ومشهد لرجل وامرأة وأيضا مشهد لصيد بقري من طرف شخصين، وتمثيل لرجل وامرأة متقابلين، وهناك أيضا نقش لأسدين واحد كبير وآخر صغير، ونقش لظلي داخل أسد كبير (Hachid,1992: 58-63)

*أم البرايم بمغرار التحتاني(عين الصفراء-النعام): مغرار التحتاني (القلعة) يحدها شمالا محطة النقوش الحجرية بني عمران، جنوبا جنان الشيخ بوعمامة، شرقا واحة مغرار أما غربا: محطة النقوش الحجرية شمال الصبيح. هي محطات صخرية بها نقوش ورسومات لمشاهد للإنسان ومحيطه ومشاهد حيوانية كالأسد، حمار، نعومات صغار، حيوان الاروى، ورموز أخرى غير معروفة (Aumassip,1986: 109)

*محطة كبش بوعلام(البيض): يتواجد الموقع على بعد 50 كلم من مقر ولاية البيض غرب بلدية بوعلام بـ 05 كلم وعلى شمال الطريق الوطني رقم 47 في مدخل قرية الوديان حيث يحدها من: الشمال: حاسي بوعزة ومن الجنوب: بلدية سيدي اعمر وبلدية سيدي طيفور، ومن الشرق: بلدية سيدي طيفور، ومن الغرب: بلدية اعمر، توجد صخرة عمودية بطول 8 م وارتفاع حوالي 6 م بها النقش الحجري كبش ذو الهالة يبلغ طوله 1 م على يساره إنسان انجزا بشكل طبيعي متقن.

*قارة الطالب برباوات ولاية البيض: يتواجد الموقع غرب رباوات بالضبط بمحاذاة جبل بسباع من الناحية الشمالية حيث يبعد عنه بحوالي 7 كلم يمكن الوصول للموقع بواسطة طريق ترابي عبر الطريق الوطني رقم 47 الرابط ما بين البيض وعين الصفراء عند النقطة الكلمتية 110 من جهة الجنوب وعلى مسافة 15 كلم، الموقع عبارة عن هضبة تكونها الصخور الضخمة صعبة المسالك، بها عشر واجهات تحتوي على نقوش لفيلين يفصل بينهما شكل معقد، فيل يخرج منه شكل معقد يحتوي إنسانا يحمل قوسا أسفله نجد نمرا يمسك بقرد، أسفل النمر نجد رسما يشبه الأرنب، فيل كبير يتقدمه فيل صغير، فيل كبير أسفله فيل صغير، رمز، كركدان، رموز، حيوان سنوري، عقرب كبير، عقرب صغير، ثور، رموز، جمال، ظبي، جاموس، عقرب، ثور، ثلاث نعاعات، بقرتان، رمز، ثور، فيل. بأسلوب طبيعي (Hachid, 1992 : 65-66)

2.3.3 منطقة إقليم الساورة:

● منطقة العبادلة:

*موقع خنق التصاوير: يقع موقع النقوش الصخرية ضمن إقليم بلدية العبادلة من ناحية الشرق قرب مكان يسمى لمبيديعة على بعد 60 كلم من مقر البلدية، اكتشف الموقع سنة 1985م من طرف الشيخ إبراهيم أحد السكان القاطنين بالمنطقة، ومن أهم الأشكال التي

جسدت نجد الأشكال الحيوانية خاصة الكبيرة الحجم منها حيوان البقر، الحمير، الغزال، النعام، وأشكال آدمية في حالة حركة و رقص ربما تقوم بطقوس سحرية وتعبدية مع وجود حيوان البقر دلالة على تقديس هذا الحيوان من طرف الإنسان(بقدر، 2012: 338-339)

● **منطقة تاغيت (Taghit):** منطقة عرفت منذ عصور ما قبل التاريخ من خلال وجود بقايا كثيرة. تقع محطة الصخور على بعد حوالي كيلومتر واحد من قصر بريبي، وهي مشهورة جدا بالنسبة للعديد من النقوش التي تم إجراؤها على جدران الحجر الرملي، توجد محطات صغيرة أخرى كما لوحظ في Mazrourou و Hassi Bourouis و Lembidia وكذلك على طول Zousfana بين تاغيت واغلي، وعلى أنقاض القصور القديمة ثلاث تقع محطات النقوش *محطة الزاوية التحتانية 01 و 02: تمثل المحطة الرئيسية بعدد النقوش التي تحتويها. تمثل الأشكال المنقوشة حيوانات برية مثل: الفيل والظباء والنعام والغزال والثعابين وابن آوى والطيور والخيول، الاسد التمثيلات البشرية. يتم تمثيل الحصان إما بمفرده أو براكبه. يصور الرجل أيضاً في وضع السجود أو في مشاهد من الحياة اليومية. فيما يتعلق بالرسومات الصخرية النادرة في المنطقة، لا يزال هناك عدد قليل جدا من الآثار المتناثرة وغير المفهومة في هذه المحطة (Alimen, 1966: p409-432).

● **منطقة بني عباس:** واحدة من أقدم المناطق التي شهدت تجمعات سكنية منذ العصور الحجرية، كما تعتبر مدينة بني عباس قديمة قدم التاريخ والعصر والشاهد على ذلك تلك النقوش الصخرية المتواجدة بعدة محطات منها:

*محطة مرحومة: تبعد عن مركز الدائرة ب 20 كلم والتي تعتبر حالياً بمثابة متحف طبيعي مفتوح على الفضاء الخارجي، وتعد محطة مرحومة ببلدية تامرت دائرة بني عباس عثر بها مستحثات حيوانية وصناعات حجرية مختلفة، ومحطات صخرية من أهم محطات منطقة الساورة، والتي اكتشفت من قبل القائد الفرنسي "فيلا لونغا villa longa" وكان ذلك فالفترة الاستعمارية في 10 نوفمبر 1951 (Alimen, 1966 : 5-6-7) تحوي أربع واجهات صخرية مرورا

بواد الساورة، أنجزت على صخور رسوبية (الحجر الجيري)، ومن أهم المحطات نجد المحطة التي تحوي عشر نماذج للفن الصخري منها تمثيلات نقوش حيوانية مختلفة وأدمية (خلفي، 2011-2012: 66)

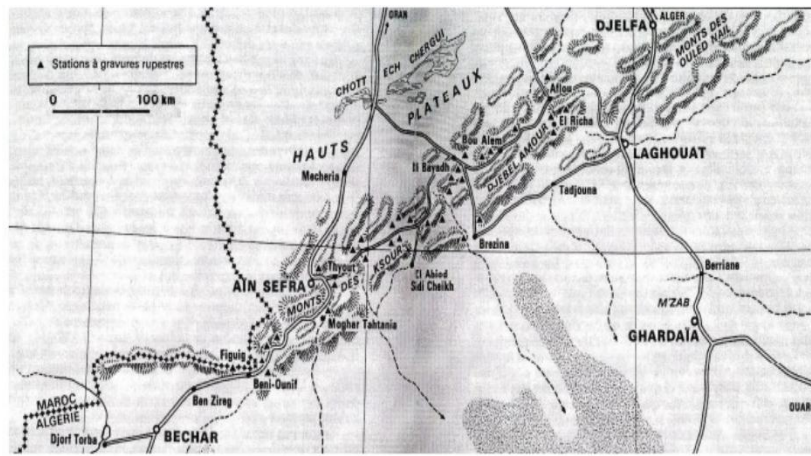
4. خاتمة:

شكلت الحضارة مع ظهور الإنسان الذي ساهم بأشكال متعددة في بنائها ومتعددة حسب ما يتوافق مع الظروف البيئية والطبيعية المحيطة به. وتعتبر الجزائر عامة ومنطقة الجنوب الوهراني (الاطلس الصحراوي وإقليم الساورة) خاصة مهد استقرار الإنسان الأول، وهي الشاهد الحضاري عن وجوده بالمنطقة. ومن أهمها الفن الصخري بنوعيه المنقوش والمرسوم والتي جسدها على واجهات الصخور عبرت عن مظاهر حياته اليومية ونمط معيشته من أحاسيس، وتجسيد وترجمة لمختلف المخاوف والمعتقدات المرسخة في عقلية وذهنيته، فلاقى هذا الفن اهتماما كبيرا من طرف الأثريين والباحثين فتناولوه بالبحث والدراسة بما أنه جزء لا يتجزأ من الفنون عبر العصور، فمواقع الفن الصخري شاهد من الشواهد المادية التي ساعدت المؤرخين في التأريخ لفترة ما قبل التاريخ فمن خلاله اهتدى الباحثون إلى نمط العيش وكذا المناخ السائد وأهم الثروات الحيوانية والنباتية وإلى الفنون وتطورها وإلى فهم الأفكار والمعتقدات، فمحطات الفن الصخري بالجنوب الغربي وإقليم الساورة تراث أثرى حضاري فريد من نوعه فمنه ما هو معروف ومنه ما لازال غامضا مبهما ومجهولا لكن وللأسف لم يحظ بالعالمية كمنطقة الطاسيلي ناجر وغيرها، وقلة الدراسات ومواصلة البحث عن أسرار وخبايا هذا الفن من جهة ومن جهة أخرى الحالة المزرية التي ألت إليها معظم مواقع الفن الصخري وتعرضها للإهمال والتخريب مما يُعجل بزواله واندثاره وخاصة التهديدات البشرية من تشويه وتخريب وإهمال ولامبالاة بهذا الإرث الإنساني العالمي، لذا، وجب تكاثف الجهود من باحثين ومختصين وطلبة ومؤسسات تحت الوصاية وسكان المحليين من أجل حمايته من خطر الزوال والاندثار وصيانتته واثمينته في المجال الثقافي السياحي بالمنطقة كمصدر لتنمية

اقتصادية مستدامة ودفع عجلة النمو الاقتصادي من عائدات السياحة الثقافية لمواقع الفن الصخري بالأطلس الصحراوي وإقليم الساورة.

الشكل 1 منطقة الأطلس الصحراوي وإقليم الساورة "الجنوب الوهراني"

الملاحق



المصدر: Henri Lhote, 1976, pp 112-113

الشكل 2 خرائط الموقع الجغرافي لمناطق الدراسة

 ولاية بشار	 ولاية النعامة	 ولاية البيض
المصدر: مقدم، 2013-2012، ص 201	المصدر: ANIREF/MONOGRAPHIE WILAYA Namaa, 2020, P4	المصدر: ANIREF/MONOGRAPHIE WILAYA El-Bayad, 2020, P4

الشكل 3 نماذج من النقوش الصخرية لمناطق الدراسة



محطة مغرار التختاني (النعام)



محطة نيوت (النعام)



محطة قارة الطالب (البيض)



محطة كبش بوعلام (البيض)

المصدر: حظيرة الأطلس الصحراوي، 2022



محطة المرحومة



محطة الزاوية التختانية



محطة خنق التصاوير

المصدر: Zoheir BELKEDDA R (1) J, Tarik GHODBANI (2) et Jean-Louis LE QUELLEC (J), p122

خلفي، 2011-2012، ص 69-72

بقدر مريم، 2021، ص 348

قائمة المراجع

1. بلحشر حسين، (2008-2009) دراسة تحليلية للنقوش الصخرية لمنطقة البيض (الأطلس الغربي الجزائري) موقع كاف الرخمة والرفع والخلوة. مذكرة لنيل لرسالة الماجستير تخصص آثار ما قبل التاريخ، 22. معهد الآثار- جامعة الجزائر2.
2. بقدر مريم، (2021)، الإجراءات الوقائية لحماية مواقع النقوش الصخرية "خلق التصاوير ببشار أنموذج"، مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 07، العدد 01، ص ص 335-351.
3. خلفي عبد الغاني، (2011-2012)، الفن الصخري في إقليم الساورة، مظاهر تلفه وأهم مقترحات صيانتها -منطقة مرحومة ببني عباس أنموذج. رسالة ماجستير في آثار الصيانة والترميم. جامعة الجزائر 02.
3. Alimen H. (1955). *Préhistoire de l'Afrique*. Ed. Boubée et Cie, Paris
4. ANIREF/MONOGRAPHIE WILAYA D'EL Bayadh, (2020)
5. ANIREF/MONOGRAPHIE WILAYA D'EL NAAMA,(2020)
6. Aumassip G .(1986). *Trésors de l'Atlas*. Alger : entreprise nationale du livre- Alger
7. Despoir J et Raynal R,(2003), *geographie de L'Afrique de Nord Ouest*, Paris, P 133
8. Flamand G.B.M. -(1921) *les Pierre écrites (HadjratMektoubat)*, Gravures rupestres et inscriptions du nord-africain, Paris- 1921
9. Flandrin. J (1952). " Les Chines Atlasiqueet la bordure XIX Congrès géologique international, Monographie N° 14 nord du Sahara, Algérie.
- 10.HachidM .(1992) *El-Hadjra El-Mektouba, Les Pièrresécrites de l'Atlas Saharien*,Tome2 .ENAG/Editions, ALGER, 1992
- 11.Hachid, M, (1998), Tassili –N-Ajjer à la source de l'histoire il y a 50 siècles avant les pyramides. Edition paris –.méditerranée, France.
- 12.Heneri Lhote- (1970) *Les gravures rupestres du Sud-Ornaïs- Mémoire du CRAPE et Métiers graphique*, Paris
- 13.Lethielleux J. (1965). *Vestiges préhistoriques et protohistoriques de la région de Djelfa*, In Lybica, tome XII, CRAPE, Alger.
- 14.Menchikof (F). (1933)La série primaire de la Saoura et les chaînes d'Ougarta, Bulletin science centre géologique Algérie 2eme fascicule II.
- 15.Muzzolini(A). (1986).*L'Art rupestre Préhistorique des Massifs Centraux Sahariens*, Great Britain - Oxford- Bar Internationala
- 16.Muzzolini A. (1995). *Les Images Rupestres du Sahara, Collections Préhistoire du Sahara*. Edition Alfred Muzzolini, Toulous, France
- 17.Soleilhavoup F. (1981), *Les processus géomorphologiques élémentaires d'altération de gravures rupestres dans l'Atlas saharien (Algérie) : leur intérêt pour l'étude de l'art*

pariétal préhistorique. Actes du Colloque Franco-Italien sur la Préhistoire saharienne, Paris, 3-4 décembre 1980, La Nouvelle Revue Anthropologique 70-61

18. Zoheir BELKEDDA R (1)J, Tarik GHODBANI (2) et Jean-Loïc LE QUELLEC (J), *Les gravures rupestres de la région de Taghit intérêt archéologique et dégradations*

صورة الجنوب الغربي الجزائري من خلال الموروث الشعبي

The Image of southwestern Algeria through Popular Heritage

د. مقصودة محمد: جامعة طاهري محمد - بشار (الجزائر)، mohammed.maksouda@univ-bechar.dz

ملخص

يعد التراث عاملا مهما لفهم الهوية وتكوين الذاكرة الجماعية، حيث تؤدي الموروثات المادية جنبا إلى جنب مع الممارسات التراثية دورا كبيرا في صياغة أفكار المجتمع وتشكيل سلوكياته، وبالتالي تثنى المعارف والمهارات المتناقلة عبر الأجيال والقيم الاجتماعية والاقتصادية التي ينطوي عليها فعل السلف. و تهدف الدراسة إلى تقصي تجليات ومكونات ومكونات التراث الثقافي الشعبي الذي تزخر به منطقة الجنوب الغربي الجزائري لاستحياء صورة المجتمعات الماضية وإسقاطها على الواقع. وقد وقفنا من خلالها على مدى تنوع الموروث الشعبي وأهميته للحفاظ على الهوية وقبل كل شيء ضرورة معرفته و الامام به حفاظا على وظيفته الاجتماعية وصيانة له من التدخلات المدمرة فهو حلقة الوصل وأهم أدوات فهم الحاضر وبناء المستقبل. كلمات مفتاحية: الجنوب الغربي، الموروث الشعبي، التراث، الثقافة، المادي واللامادي.

Abstract

Heritage is an important factor in understanding identity and shaping collective memory, where material legacies, along with heritage practices, play a major role in shaping societal ideas and behaviors. Thus, valuing the knowledge and skills passed down through generations, as well as the social and economic values embedded in the acts of the ancestors. The study aims to investigate the manifestations, essence, and components of the popular cultural heritage that abounds in the southwestern region of Algeria, to revive the image of past societies and project it onto the present reality. Through it, we have observed the extent of diversity of the popular heritage and its importance in preserving identity, and above all, the necessity of knowing and mastering it to maintain its social function and protect it from destructive interference, as it is the connecting link and one of the most important tools for understanding the present and building the future.

Keywords: Southwestern ; Popular Heritage; Heritage; Culture; Tangible and Intangible.

1. مقدمة:

يؤدي الموروث بكل أشكاله دور معياري في تحديد وتوجيه بوصلة الهوية وأنماط السلوك والعلاقات، ولكونه الوعاء الذي يصهر ويراكم التجارب الانسانية وينقلها عبر الأجيال تأبى الذاكرة الشعبية إلا أن تختزنه وتحفظه بشكل إرادي أو لا إرادي في شكل معتقدات وعادات وممارسات تلقائية فردية وجماعية.

إلا أن التحديات التي يفرضها الاعلام ووسائل التواصل و العولمة العابرة للجغرافيا و الأديان والايديولوجيا، لا يمكن مواجهتها دون إحياء الموروثات و تحيين قيمها بما يحفظ للمجتمع نسيجه وتماسكه، وهو تحد يكابده الأفراد والمؤسسات الاجتماعية الرسمية وغير السمية بدرجات متفاوتة، سعيًا من الجميع للحفاظ على مقومات الهوية الجامعة والثقافة المحلية الضابطة للسلوك والعلاقات.

ولاشك أن لهذا التوصيف دور كبير في إحتلال مواضيع التراث والهوية وكل ما يتصل بهما صدارت المشهد الثقافي والاجتماعي بل وحتى السياسي، وذلك تحت ضغط المحددات الثقافية والدينية والاجتماعية لإنتماء الفرد والجماعة وما يعنيه هذا من ضرورة رفع التحدي للحفاظ عليها إحياء وممارسة وقبل ذلك الإلمام والايمان بما تتضمنه تلك المحددات المتوارثة من عادات إجتماعية وتقاليد في العلاقات ومختلف فنون القول الشعبي والفلكلور وغيرها من العناصر التي تربط الماضي بالحاضر، فهي الوسيط الذي ينتقل عبره كل ما ولدت وراكمته الأجيال السابقة إلى اللاحقة، ومن هنا تبرز أهمية الموروث الشعبي لدوره الكبير في تأصيل الهوية التاريخية للمجتمع والتي هي بنت الثقافة المحلية المتضمنة للمعارف والقيم والممارسات النازمة للأجيال المتعاقبة.

وللجنوب الغربي على غرار باقي جهات الجزائر موروث شعبي متنوع وعميق الجذور، يعبر بصدق عن ظواهر تاريخية ضاربة في أعماق الماضي، لكنها في ذات الوقت تتمتع بقدرة عجيبة على البقاء والاستمرار بفضل قابليتها للتداول والتحيين والتكيف مع مشكلات الحياة المستجدة.

وعليه و انطلاقا من هذه الرؤية يسعى البحث لدراسة وسبر أغوار مختلف أشكال الموروث بالجنوب الغربي الجزائري بدأ بالأصول المؤسسة وانتهاء بالدور الاجتماعي مرورا باستقصاء الدلالات والمضامين وتجلياتها عبر الزمن والواقع، وهذا ابتغاء الوصول للأهداف التالية:

- فهم السياق التاريخي الذي ظهر و تطور من خلاله مفهوم الموروث الشعبي
- رصد أهم مظاهر وتجليات وأنواع الموروث الشعبي بالجنوب الغربي الجزائري
- الوقوف على مدى تأثير الموروث الشعبي في مختلف مظاهر الحياة بالجنوب الغربي، وذلك انطلاقا من كون تلك المظاهر إنما هي واقع يعكس صور وأنماط مختلف المورثات.
- أما مشكلة البحث فتتلخص في التساؤلات التالية: ماهي تجليات الموروث الشعبي في مختلف مناحي الحياة بالجنوب الغربي؟ وما مدى مساهمته في تشكيل وتوجيه البنية المجتمعية بالمنطقة؟ وكيف ترسم لنا الموروثات الشعبية صورة الجنوب الغربي من خلال مختلف تجلياتها؟

ولترتيب وتنسيق أفكار البحث وتفسير مختلف مظهرات الموروث الشعبي، نقترح الفرضية الأساسية المتمثلة في وجود تأثير للموروث الشعبي وتدخل يرسم ويوجه نسبة كبيرة من مختلف جوانب الحياة بالجنوب الغربي الجزائري.

ولتحقيق غرض البحث نركز ونرتب المحاور الرئيسة التي تنتظم الدراسة كما يلي:

- 1/ الموروث الشعبي، ضبط المصطلح وتطور المفهوم.
 - 2/ تمثيلات الموروث الشعبي بالجنوب الغربي
 - 3/ الجنوب الغربي في مرآة الموروث الشعبي، تحولات الصورة والواقع.
- وفيما يلي بسط محاور الدراسة:

1/ الموروث الشعبي، ضبط المصطلح وتطور المفهوم

لعل من أصعب المهام في البحوث الانسانية والاجتماعية التعامل مع المفاهيم والمصطلحات ذات الدلالات والابعاد المتداخلة والمتجانسة، وليس مصطلح الموروث من هذه السمة ببعيد. فالجدل حول مصطلح التراث والموروث والفلكلور كان ولا يزال محتدما بين الباحثين وإذا أضفنا البعد الشعبي لهذا المصطلح زاد الجدل حدة فهل نحن نتحدث عن فلكلور أم عن موروث شعبي؟ وتزداد هذه الحالة في ظل حالة التوسع في المفهوم دون حدود تلوح في الأفق. وقد أفضت بنا مراجعة الموضوع في مظانه المختلفة إلى الوقوف على كلمة فلكلور كأقدم مصطلح ظهر خلال القرن التاسع عشر، يشير الى علم أو فن يهتم بالإبداعات الشعبية القولية والفعلية. وإذا كان المصطلح الذي يقابل كلمة فلكلور في اللغة العربية هو كلمة 'تراث' فإن هذه الأخيرة لم تكن بنفس الحمولة الحالية عندما دونت في المعاجم العربية وإن كانت الأكثر تداولاً بين المشتغلين العرب بالأنثروبولوجيا والتاريخ والدراسات التراثية والذين تطورت مضامين كلمة تراث وموروث على أيديهم لتصبح مصطلحا ذو حمولة فكرية و معرفية وعقلية وعقدية ذات أبعاد أوسع بكثير مما كانت عليه عند الأقدمين، وهكذا انتقل مفهوم التراث الذي أصله "ورث" من مجرد الدلالة على "ما ورثناه عن الأجداد" (ابن منظور، 2003: 201) إلى كل مخلفات ثقافة الماضي إلى الدلالة على كل الأصول المؤسسة والمكونة لهذه الثقافة الموروثة وكيانها من دين ولغة وأداب وعقل وفن وعادات وأعراف وتقاليده وقيم مألوفة يتشكل منها النسيج الواقعي للحياة ويلتصق بها (بوعيو وآخرون، 2007: 09).

وعليه فمن حيث الدلالة والاستعمال المنهجي في إطار الدراسات التي تعنى بالتراث الشعبي فإن كلمة فلكلور أقدم استعمالاً من كلمة تراث بمعناه المتقدم. فقد أطلق وصف فلكلور على الفنون الشعبية، والكلمة إنجليزية مركبة من **folk** وتعني الشعب، و **lore** ومعناها علم، وقد ظهر المصطلح لأمرة مرة في مجلة بريطانية سنة 1846 من طرف العالم وليام توماس **William Thomas** ومدلوه "علم الآداب والتقاليد والآداب الشعبية" كما حددته دائرة المعارف الفرنسية (ج17). ورغم ظهور المصطلح سنة 1846م إلا أن الاهتمام بالفنون الشعبية كان

سابقا لهذا التاريخ بكثير ، فهذه الأخيرة ليست شيئا جديدا في تاريخ الانسانية ، بل لازمت الذوق الانساني منذ فجر التاريخ ، وسائرة تطوره وعبرة عن وجدان الجماعات البشرية قبل إبتكار الكتابة (الابراهيمي، 2010:05) بزمن طويل.

وخلال تقصينا لتاريخ مصطلحي التراث والموروث وقفنا على تعاريف كثيرة جدا اشتركا فيها وتقاطعا، ولعل مرجع ذلك الى التوسع في نطاق ما يعد تراثا توسعا كبيرا سواء من طرف الباحثين أو المنظمات والجهات المختصة الرسمية وغير السمية. ففي البداية كان الميل إلى حصر التراث في المعالم والآثار كأماكن قائمة بذاتها لا ترتبط بالطبيعة، أما اليوم فهناك توجه عام إلى اعتبار المحيط والبيئة بأسرها قد تأثرت بتفاعلها مع الانسانية، وبالتالي فهي كلها تشكل تراثا .

ومن حيث المضمون فقد عرف مصطلح التراث تطورا وتغيرا كبيرا خاصة في العقود الأخيرة، وذلك بسبب المحددات والشروط التي وضعتها منظمة اليونسكو وهي بمثابة وزارة الثقافة للعالم، والتي يمكننا على ضوءها تعريف التراث بأنه كل أشكال التعبير والتقاليد الموروثة مشافهة كانت أو تدوينا أو ممارسة، ولأنه مرادف للثقافة فهو يعبر عن استمرارية ثقافية في الزمان والمكان (اليونسكو، 2016:12).

والذي خلصنا إليه من مراجعة الموضوع في مظانه المختلفة، أن الموروث ابن التراث ومنه ينشأ، وأن التراث مادة متعلقة بالزمان الماضي أما الموروث فهو المادة المأخوذة من التراث، وبالتالي فإن مدلول كلمة "الموروث" يكون أدق وأشمل في التعبير عن الممارسات التقليدية والاعراف من كلمة التراث ذات المدلول العام والمطلق . فالموروث أو المأثور يدل على كل ما تركه الأجداد والآباء شفهي كان أو مادي، وهو الصورة الأقرب لما كان عليه واقع الحياة في الماضي، كما نستطيع من خلاله معرفة التغيرات التي طرأت عليه.

وقد غلب استعمال مصطلح "الموروث" في الدراسات العربية حتى بات علما دون غيره على كل ما راكمته المجتمعات العربية والاسلامية عبر أجيالها وتاريخها الطويل .

من جهة أخرى فإن تدقيق مسار تطور مصطلح الموروث يفضي بنا إلى ملاحظة تتعلق بتداخله مع مصطلحات ومفاهيم أخرى خاصة مصطلحي التاريخ والتراث لدرجة الالتباس، وهو ما عمل الباحثون على تجليته، بأن حصروا التاريخ في الفعل الانساني الماضي، أما التراث فهو الماضي موصولاً بالحاضر. والموروث كل ما وصلنا من التراث بغض النظر عن طبيعته، فقد يكون عادات وتقاليد أو علوم وآداب وفنون (جبران، 1981:382).

وبالنسبة للموروث الشعبي فهذه النسبة أي نسبة الموروث إلى الشعب تجعل من هذا الأخير وهو المجتمع المصدر الأول للإلهام مجتمع السلف للخلف، فهو أي المجتمع الصانع لمحتوى الموروث والمكتفي له. وبذلك يشمل الموروث الشعبي كل الممارسات الاجتماعية الشائعة والتي يعبر بها الناس عن طريقتهم في الحياة. فالموروث الشعبي ليس مجرد تعبير عن موقف أو قناعة شخصية بل هو تعبير جماعي عفوي متجانس مع طبيعة المجتمع (الجبوري وآخرون، 2009:665).

ولعل هذه الخاصية أي تجسيد روح الجماعة والمجتمع هي أهم سمات الموروث الشعبي، وذلك بفضل ملازمته للحياة الجمعية رغم تعاقب أجيال المجتمع، فالموروث بالنسبة للأفراد يعبر عن انتمائهم للجماعة، أما بالنسبة للجماعة فهو يعبر عن حضورها في الكون متجاوزا الأشكال الشعبية والمضامين الأسطورية، بل هو واقع فكري حي يوفر غذاء العلاقات الجمعية ولا يعدله أمر آخر من أمور الحياة الاجتماعية من حيث تثبيت الهوية والتلاحم الشعبي (بوشيبة، 2003:59).

إن هذه المقدمات تفضي بنا إلى التالي :

- يكتسي الموروث معنيين ، مادي و روحي أو لامادي لأنه يتجسد في المخلوقات والشواهد المادية، وكذا في كل ما هو فكري أو روحي أو معنوي أو أدبي أو سلوكي كالقيم والمواقف والبطولات والأمجاد.

- من الناحية الثقافية يؤدي مفهوم الموروث معنى أسلوب حياة وتجارب الأجداد وخبراتهم في إنتاج القيم وتأسيس التقاليد وإرساء العلاقات الاجتماعية

- ينقسم الموروث من حيث الأصول الى قسمين كبيرين، فمنه ما هو مشترك إنساني عام بين شعوب وأمم المعمورة، ومنه ما هو خاص تتميز به كل أمة عن غيرها، و قد تزداد هذه الخصوصية داخل الأمة الواحدة حسب الإقليم أو البيئة كلما اتسعت رقعتها الجغرافية وبالتالي فلكل أمة تراثها الذي يمتزج فيه ما هو عالمي مع ما هو خصوصي (محمود عبد الباقي، 2008: 61)، وبطبيعة الحال فإن للجغرافيا دورا كبيرا في تفاوت نسبة الخصوصية والعالية فالجغرافيا صنع الله في الأرض والتاريخ صنع الانسان في الجغرافيا، وطالما تأثر هذا الصنيع بالمكان والزمان والبيئة والثقافة والدين. وبالنسبة للجنوب الغربي فقد تدخل هذا العامل بقوة في طبيعة ومكونات الموروث الشعبي الذي تأثر على مر العصور بعدة روافد أهمها :

- الدين الاسلامي ومؤسساته كالمسجد والزوايا والطرق الصوفية
 - مختلف الحضارات التي تعاقبت على الصحراء الكبرى
 - ثقل الاستعمار الفرنسي الذي حارب الهوية والمقومات الأساسية للشخصية من لغة ودين وذاكرة جمعية وتعليم أصلي .
- والذي نستنتجه من خلال هذه الأبعاد المتداخلة والمتداخلة في تشكيل مفهوم الموروث ان هذا الأخير لا يوجد تعريف مطلق دقيق أو نهائي له، وهو ما يؤكد تعدد دلالاته وأبعاده، فهو تارة الماضي كل الماضي ببساطة، وتارة المعتقد الديني وأسلوب الحياة السالفة، وأخرى ما خلفه لنا الأجداد من آثار مادية ولامادية في شكل فني وعلمي و أدبي مما يعد نفيسا بالنسبة لتقاليد العصر الحاضر (ابراهيم منصور، 2006: 06).

وقد يصعب في بعض الأحيان التمييز بين ما هو تراث محلي خالص وبين ما يخالطه مما هو مشترك إنساني تسرب واستقر ضمن التراث المحلي نتيجة العلاقات الجارية أو الحروب أو

المصاهرات....، إلا أن هذا لا يطعن في قيمة أي موروث لأي أمة من الأمم، ولا في إمكانية الاستفادة منه طالما تلقته الأمة بالقبول ولم يعارض أو يطعن في قيمة من القيم المجمع عليها.

والحاصل أن مصطلحي التراث أو الموروث على حد سواء قد عرفا الكثير من التغيير و التطور في المفهوم والمضمون خاصة في العقود الأخيرة، متأثرين في ذلك على غرار الكثير من المفاهيم بحالة السيولة التي سرعتها أدوات العولمة كالإعلام و مواقع التواصل و حركة التجارة الحرة والدعوة الى تسليع الحياة بكل مظاهرها مقابل انتشار روح الخصوصية والهوية لدى أغلب المجتمعات كرد فعل على اختراق نظام العولمة الرأسمالية لثقافات المجتمعات وما يتطلبه ذلك من التمسك والتشبث بتلك الثقافات، فلم يعد الموروث يقتصر على الجانب المادي فقط كالمعالم التاريخية و الأثرية والفنية، وإنما امتد ليشمل التقاليد والأعراف وأنماط التعبير الحية المتوارثة، مثل التقاليد الشفهية، الفنون الاستعراضية، الممارسات الاجتماعية والطقوس، المعارف والمهارات في إنتاج الصناعات الحرفية التقليدية والمناسبات الاحتفالية والمعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون.

2/ تمثيلات الموروث الشعبي بالجنوب الغربي:

بالنسبة للمجال الجغرافي للدراسة أي الجنوب الغربي الجزائري، فيمكن تحديده من الأطلس التلي إلى الأطلس الصحراوي وصولاً إلى العرق الغربي الكبير، الأمر الذي ميز المنطقة بمظاهر طبيعية متنوعة ، بداية بالشطين الشرقي والغربي يليهما السلاسل الجبلية ومنها جبال القصور وعمور، كما ساعدت هذه الجغرافيا على تشكيل نظام اجتماعي بعيد عن تأثيرات السلط السياسية في فترات تاريخية مختلفة (حباش فاطمة، 2009: 41) . فخلال الوجود العثماني مثلاً وحتى مع بداية الاحتلال الفرنسي خاصة عندما كان هذا الأخير منحصراً في المناطق الساحلية، نجد أن المنطقة لم تخضع لنظام سياسي يمارس سلطة مباشرة من المركز في الشمال(صالح عباد، 1984: 22) ، الأمر الذي سنع لقبائل المنطقة ببسط مختلف أشكال

النفوذ في هذه الجهة من الصحراء، وكذا إرساء نظام اجتماعي يستمد مقوماته من الإرث الثقافي والحضاري المتراكم عبر الزمن .

واليوم تحولت الصحراء الجزائرية ومنها الجنوب الغربي إلى فضاء ديناميكي بكل المقاييس العلمية، يشهد حيوية عمرانية متسارعة وشاملة، ويعرف تحولات اجتماعية عميقة اخترقت كل البنيات الاجتماعية والاقتصادية التقليدية، ومن قصور الصحراء المترامية من أصبح مجالاً لمتروبولات ضخمة مستقطبة للتنمية تخترقها ظواهر جديدة تحتاج للرصد والدراسة، خاصة مجال الأنماط الحضرية، التنمية الاقتصادية، قضايا المدينة والتمدن، الأمن، الهجرة والهجرة غير الشرعية وغيرها من الظواهر التي تؤلف مخبرا جاهزا للبحث والاستقصاء(خليفة عبد القادر وآخرون، 2018: 8).

ومعلوم أن منطقة الجنوب الغربي الجزائري تتمتع على غرار كل مناطق الجزائر بتراث غني وأصيل كان ولا يزال يشكل بوتقة للهوية الجامعة و أداة للتماسك الاجتماعي. وإذا كانت الصحراء الجزائرية تغطي حوالي 80% من مساحة الجزائر، فإن الجنوب الغربي يشغل الجزء الأكبر من هاته المنطقة بما يشمله من حواضر كبرى أهمها حاضرة العين الصفراء وجبال القصور، الساورة، تندوف، توات وقورارة وتيديكلت، برج باجي ختار وتيمياوين. وقد لعبت الجغرافيا والتاريخ الحضاري للمنطقة دور كبير في جعلها محطة لعدد الرحلات العلمية والحجبة على غرار رحلة العياشي، ابن بطوطة، كاميل سابتيير (Camille Sabatier)، إدوارد بلانك (Edouard Blanc)، وكان هدفا لدراسات وأبحاث إنثربولوجية في إطار ترسيخ الايديولوجية الاستعمارية وهي كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر دراسة لويس ريم (Louis Rinn)، قوتييه (Gautier)، إميل فيليكس (Emile Phelix)، فضلا عن أعمال دومينيك شميل المتعلقة بمنطقة تلبالة وغيرها من الأبحاث التي أثبتت إستيطان الانسان منذ القدم بالصحراء الجزائرية عموما و منها الجنوب الغربي، فأنشأ بها أماكن استقرار وظيفية وبيئية متكيفا مع مناخها مستحدثا من خلالها نظاما للتبادل، محققا بذلك انسجاما في الوظائف الاجتماعية والاقتصادية التي تضمن له البقاء و التأقلم مع محيطه.

وقد لعبت قوافل ومسالك التجارة والماء دورا كبيرا في تأسيس وازدهار العديد من الحواضر الصحراوية والتجمعات السكانية الخاضعة من جهة الى مناخ قاحل ومن جهة أخرى الى مساحات خالية، وهما ظرفان أكسبها خصوصية كبيرة. فمدن الجنوب الغربي نشأت من وظيفة المحطات على المحاور الكبرى للقوافل التجارية في العصور السالفة، وأخذت شكل المدينة الواحة، وبطريقة عفوية وتلقائية أرسى السكان أسس وأساليب لتنمية نمط الحياة في المنطقة لأن التنمية الحقيقية توجد وتنطلق من عقول البشر الذين ينتظمون لغرض تحقيقها.

ولاشك أن الأصول الإثنية لسكان الجنوب الغربي وكذا الخصائص الطبيعية وأسلوب المعاش التقليدي الذي تحكمته فيه الموارد الاقتصادية خاصة المياه، وحالات الاستقرار والنزوح كلها عوامل تضافرت في تخليق وإنتاج نمط حياة تسبب صفة العادة والتقليد الراسخ ودرجة العرف بفعل الزمن والمراكمة.

أما الحاضنة المعمارية التي تأسست ونمت بداخلها وفي محيطها تلك العادات والتقاليد فتعرف بالقصر، وهو الوحدة العمرانية الأساسية في الصحراء الجزائرية. والقصر وصف يطلق على التجمعات السكانية الصحراوية مقابل المدنية، وإلى جانب القصر هناك القسبة والفرق بينهما أ القصر قد يحتوي على قسبة أو عدة قصبات، وهذه الأخيرة عادة ما تكون مربعة أو مستطيلة الشكل، لها أبواب محروسة وأبراج تحتوي منافذ للاستطلاع والدفاع عن السكان في حالات الحرب. يتسيد القصر أو القسبة شيخ القبيلة الذي يمثل السلطة السياسية والعسكرية، وقد يكون الى جانبه إمام المسجد الكبير الذي يمثل السلطة الدينية والقضائية. وبحسب المؤرخ مارسيل إمريت (Marcel Emerit) فقد بنيت قصور الجنوب الغربي الجزائري على خدط إتصال وتواصل مع حواضر الجوار الإفريقي وفي مختلف الاتجاهات (Emerit, 2015: p39)، وقد كان من نتائج هذا التواصل العديد من أنماط الفلكلور الذي تجسده رقصات بيركايشو وأهليل و القناوي وقرقابو.

وعلى ذكر القصر كأحد أهم نماذج العمارة الصحراوية فهذا يحيلنا على ابرز مؤسستين دينيتين واجتماعيتين كان ولا يزال لهما حضور كبير في صياغة وتوجيه الحياة الجمعية لسكان الجنوب الغربي وهما مؤسسة المسجد والزاوية اللذين يشكلان المصدر المادي والروحي للكثير من الفعاليات والنشاطات ذات الصلة (محيبي، 2015: ص 87)، فللمسجد والزاوية دور كبير في اجتماع الأفراد وتكوينهم للجماعة ونبذ خلافاتهم العرقية وفوارقهم الاجتماعية لصالح الاتفاق على القيام بالأعمال الجماعية ذات النفع العام كنظام التوزيع ودار الجماعة والتكافل في الأفراح والقراح (الاعراس الجماعية، قراءة السلوك لروح المتوفين) ما يعكس روح المسؤولية والتعاون بغض النظر عن تباين الحقوق والواجبات والطبقة الاجتماعية.

إن هذه المظاهر من التواصل والتراحم تدفعنا للقول بأن إنسان الصحراء ومنذ القدم ركز في تشييد تجمعاته السكانية على ما يحقق الحياة الكريمة القابلة للنمو والتطور ضمن الفضاء الجغرافي بغض النظر عن الاختلاف العرقي، فقد اضطلعت القصور من خلال بنيتها ونظامها الاجتماعيين بهمة تحقيق العيش الكريم من خلال التكيف مع المناخ والارض.

فالنمط العمراني في الصحراء و طرائق العيش والحياة هي في النهاية علاقة تكيف للإنسان مع طبيعة الارض التي اختارها ثم امتلكها من أجل الاستقرار أولا ثم لتكون رأسماله في الحياة، وعلى هذا الأساس فإن نمط الحياة في الصحراء يتطابق مع نمط السكن وطريقة البناء لأنه يأخذ في الحسبان طبيعة المناخ والرطوبة والرياح ووفرة الماء و الطرق التجارية وطبيعة المحاصيل الزراعية والنشاط الرعوي، وبالتالي فالقصور في الصحراء ليست مجرد أزقة وجدران وأسوار وبوابات وإنما هي حياة متحركة بما تحتويه من مؤسسات حيوية أولها المنازل فالمسجد والمحظرة والزاوية والمتاجر والمشفى والبساتين وغيرها .

وقد أسست منطقة الجنوب الغربي من خلال مقوماتها الحضارية للعديد من التقاليد والممارسات الثقافية المرسخة للمنظومة القيمية التي زادها رسوخا انتشار وقدم الطرق

الصوفية بالمنطقة حيث تعد بهذه الأخيرة بحد ذاتها موروثا وثروة لامادية مهمة للحفاظ على الوحدة والانسجام الاجتماعيين والأمن والاستقرار ومحاربة كل مظاهر الغلو والتطرف.

ثم إن المتأمل في الموروث للموروث الشعبي بالجنوب الغربي الجزائري يجد أنه ارتبط عموديا بكل المراحل العمرية للفرد إنتاجا وإسقاطا، وأفقيا بكل جوانب الحياة والمناسبات والفئات الاجتماعية والفضاءات التي اختطتها الجماعة للإقامة وتوليد التقاليد والعادات وتوريثها كالمنازل والمساجد والبساتين والزوايا .

وعليه فقد أفرزت هذه المحددات منظومة تراثية متكاملة نحاول من خلال المساحة المتاحة الوقوف على أهم تمثلاتها كما يلي:

1/2 الموروث الشعبي المرتبط بنواة المجتمع الأساسية ونعني بها مؤسسة الأسرة ، ويتضمن طقوس الزواج بدأ بالخطبة فتقاليد احتفال العرس وتحضيراته التي يؤطرها المثل المشهور "زواج ليلة تديرو عام"، وتندسم أعراس الجنوب الغربي بمجموعة من العادات والاعراف الموروثة منذ القديم والتي تشكل القاسم المشترك بين أطراف المجتمع على غرار المهر و العروسين ، ومراسيم العرس وعدد أيامه التي تختلف حسب القبيلة و المنطقة والوضعية الاجتماعية. وأمام زخم و تنوع الموروث الشعبي المرتبط بتكوين الأسرة في الصحراء لا يسعنا إلا أن نقول أن هذا الأخير يشكل وحده منظومة ثقافية متكاملة ذات أبعاد دينية واجتماعية وأسطورية.

2/2 الموروث الشعبي المرتبط بالميلاد، ويشمل على غرار الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية عادات وتقاليد راسخة وأخرى تقاوم النسيان والاندثار وسط زحمة العولمة وتغير نمط الحياة، حيث يمتد الموروث المتعلق بالميلاد منذ الحمل وصولا الى الوضع مروراً بمرحلة الوحم التي تكتسي أهمية نفسية كبيرة بحيث يجب مراعاة الحالة المزاجية للحامل حتى لا ينعكس ذلك على جنينها. وبعد الميلاد تأتي عادة التسمية أين يتم إطلاق إسم على المولود وفق تقاليد محلية

يختلط فيها العرف بالموروث الديني (طقوس التسمية والعقيقة وأخذ شعرات من رأس المولود). وقد يسبق يوم التسمية الذي يكون في اليوم السابع من الوضع عادة الثلاث أيام التي تدعى إليها النسوة. وتواكب العادات والتقاليد المواليد في مرحلة الرضاع والفظام للذين تختلف مدتهما وطرقهما، والختان من سنن الفطرة التي جرت بها عادة سكان الجنوب الغربي وفق طقوس تتغير من منطقة لأخرى من حيث درجة الاحتفال وطبيعته التي تكون جماعية أو فردية، وتراعى فيها غالبا مناسبة المولد النبوي الشريف أو ليلة السابع والعشرون من شهر رمضان المبارك.

والذي نستنتجه من خلال هذه الصيرورة التراثية المتصلة، أن التنشئة الاجتماعية التي يخضع لها كل إنسان في مجتمعه مؤطره منذ الميلاد بترسانة من الموروث الشعبي القيمي، الذي يشكل ويصوغ بدوره ذهنيان ونفسيات وبالتالي سلوكيات الأناسي فرادى ومجتمعين وفي كل مراحل الحياة، لذلك وجب أن لا يهمل وأن يكون دائما محل تقييم وتقويم.

3/2 بالنسبة للموروث الشعبي المرتبط بحالة القرح ونعني بها الموت أو الوفاة، نجد في الجنوب الغربي الكثير من العادات في هذا المجال، مع الإشارة إلى أن بعض تقاليد هذه المناسبة عرف تراجعاً بفعل العامل الديني خاصة ما يتعلق ببعض الممارسات التي طالها وصف الشرك أو البدعة وإن تفاوتت مناطق الجنوب الغربي في هذه الحثية.

كان من عادة الكثير من سكان الجنوب الغربي إحضار كفنه وحنوطه من البقاع المقدسة خلال أداء مناسك الحج. وقد يبادر ميسوري الحال إلى وقف عقار أو منقول لصالح المسجد أو دار الجماعة أو الزاوية بنية الصدقة الجارية.

ومن عادات سكان القصور في حال حدوث وفاة المسارعة لإشاعة ونشر خبرها عن طريق البراح أو المسجد حتى يتسنى لأكبر عدد من الناس شهود الجنازة. وقبل ذلك يقوم أهل الميت

بمساعدة الاقارب وغيرهم بتجهيزه غسلا وتحنيطا وتكفيينا، وفق طرق تختلف بين حواضر صحراء الجنوب الغربي.

ولانتتهي طقوس الوفاة بالدفن وانما تمتد بعد ذلك لثلاث ايام وحتى الاربعين يوما. وعدة من فقدان ازواجهن تؤطرها بدورها اعراف كثيرة، فالمعتدة تسمى "رابطة" كناية عن مرابطتها بالبيت خلال العدة التي تتلقى فيها الكثير من المؤازرة والتكافل الاجتماعي من أول يوم إلى اليوم الذي تنتهي فيه العدة والذي يسمى "خروج الرابطة" حيث توصف بأنها "بغات تلوح" وفق طقوس تقترن باجتماع النساء لمأدبة غذاء، وفي مطلع فجر يوم خروجها تتجه لمكان خالي بعيد عن القصر مرفوقة بمجموعة من النساء، يحفرن حفرة متوسطة العمق، وتدفن فيها لباس عدتها وتقلّم أظافرها وبقايا شعرها وجواربها وكل ما كانت ترتديه أيام عدتها ويكون النساء المرافقات لها قد جلبن معهن لباس جديد لترتديه (زنقي لطيفة، 2022: ص 387).

4/2 الموروث الشعبي الشفوي: يشمل الموروث الشفوي كل أشكال التعبير الحية التي تلعب فيها اللغة الدور الرئيس والأساسي بوصفها أداة التواصل ووعاء نقل كل أشكال الثقافة غير المادية خاصة اللغة المحكية، والتي تتضمن الأغاني التقليدية والشعبية والقصص والأساطير والألغاز والأمثال والحكم والأقوال المأثورة والسير الشعبية. ولو دققنا القاموس اللغوي لسكان الجنوب الغربي لوجدناه مليء بالعبارات والألفاظ ذات الدلالة المرتبطة بالحياة والطبيعة الصحراوية، ذلك أن اللغة هي أخص خصائص الهوية وعوامل الاستقرار، وتنوع وثرأ تلك الالفاظ ودلالاتها التي راكمها إنسان الصحراء عبر الزمن هو الذي منحه القدرة على أن يجعل من الصحراء فضاء يضارع وينافس بجماله وروعته وبيئته باقي الفضاءات. وقد تفتن ابن خلدون الى أهمية وثرأ الادب الشفوي ودوره في صناعة الذاكرة الجماعية للشعوب، فقال في معرض حديثه عن التراث الامازيغي في بلاد المغرب عموما: "...ذلكم اللسان

الذي سار به من الأمثال وقص من الأخبار ما لو انصرفت إليه عناية الناقلين لمألت الدواوين" (بوتفليقة، 2006: ص 29)

وللإشارة فقد شكل الموروث الشفوي الشعبي ولايزال وعاء للاندماج بين مختلف القبائل والأعراق التي استوطنت الجنوب الغربي وكل صحراء الجزائر عموما، وحيث أنه لا جغرافية تاريخية دون جغرافية اجتماعية وطبيعية كونها تشكل حلقات متماسكة (لوسيان، 1973: ص 128) فقد شكلت المنطقة على مر الزمن حيزا جغرافيا حيويا أثرته اوضاع الاندماج الاجتماعي العميقة التي طالت كل البنيات التقليدية من خلال تداول الموروث الشوي كالشعر الملحون والمدائح الدينية والقصص الشعبي وهي آداب شعبية جرى توظيفها في الرقصات والمناسبات الاجتماعية والدينية لما لها من تأثير قوي ودور فعال في تكوين الذاكرة الجماعية وسهولة التداول، كونها نابعة من عمق المجتمع ومتداولة بين فئاته.

5/2 - الفنون الشعبية : وهي مختلف أشكال التعبير الجمالية الفردية والجماعية كاللألعاب الشعبية مثل الفروسية، ألعاب السيف والعصي و المطرق ، المبارزة والفنون التشكيلية الشعبية كالأشغال اليدوية، على شاكلة النسيج، النقش على الخشب، صناعات الطين والفخار، الخزف، الزجاج... علاوة على صناعة الأزياء الشعبية بأنماطها المتنوعة حسب المناطق. والحلي بمختلف تشكيلاتها، وأدوات الزينة، الأثاث والأواني، الوشم، الرسوم وغيرها (بلحضري بلوفة، 2013: 44).

ويندرج ضمن الفنون الشعبية المحلية كذلك الموسيقى و الأغاني الشعبية، المصاحبة لعادات التوزيع و البذر والحصاد والغزل والأفراح والمدائح والابتهالات والأناشيد إلى جانب فن الرقص الفردي والجماعي المرتبط بالمعتقدات الصوفية.

6/2 - الاسواق الشعبية : لأن الحياة في الصحراء عموما تتميز بكثرة التجمعات من أجل التعاون والتآزر لمقاومة قساوة الطبيعة من خلال مظاهر الجفاف و التصحر وغيرها ، وهو

ما يفسر كثرة المواسم التي تقام فيها الأسواق الشعبية والأعمال الجماعية، منها خاصة عادة "التوزيع" كونها نشاط اقتصادي بالدرجة الأولى يقوم أساسا على الجهد التطوعي الجماعي في الأشغال الكبرى التي يعود نفعها على المجتمع ككل ، مستغلا في ذلك تجمع والتقاء الناس في إطار التظاهرات الاقتصادية (الأسواق) الشعبية . لبناء المرافق العمومية كالمساجد والزوايا ودور العلم، وكذا دور الخدمات العامة الخيرية كدار الضيافة ودار " الجماعة" ، فضلا عن حفر الآبار وشق قنوات السقي وإصلاحها و جز أصواف الماشية والحصاد، حيث تصاحب هذه الأعمال أغان شعبية خاصة بكل عمل، إلا أن الغالب عليها هو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، و حكاية مولده وتربيته، مما يساعد على الحركة السريعة والتنافس بين الأقران(عبد القادر خليف، 2006: 15).

7/2-الشعر الشعبي : الشعر الشعبي من التراث اللامادي الذي لم يكن في مساره الطويل منفصلا عن الثقافة العربية والإسلامية، فبعض الشعراء كانوا على قدر كبير من العلم. والشعر الملحون من صميم الفنون الشعبية كونه يعبر عن تاريخ الجماعة المحلية، ويصور الأحداث الهامة لها عبر قصائده. وهو بذلك يعكس هويتها ويربطها بخلفيتها الثقافية مشيرا إلى المعاني والدلالات الخاصة بتلك الأحداث. وهو بذلك سجل تاريخي وخزان للمعارف والشواهد والبراهين التي لا غنى عنها في تأكيد حدث أو مناقضة الآخر(لمياء مرتضى نفوسي، 2013: 238-244). وقد تمكن الشعر الملحون عبر العصور من تعزيز وظيفة اندماج الأفراد على اختلافاتهم داخل الجماعة، باعتبار الاندماج يحدد حركة الفرد أو الأفراد نحو الجماعة.

- الأهازيج والاحتفالات الشعبية و اللباس التقليدي وطرق الزراعة والري كنظام الفقار في منطقة نوات والالعب التقليدية والطبخ التقليدي.

-العادات والطقوس الاحتفالية ذات الصلة بالمناسبات الدينية والتي البأ ما يخالط فيها الموروث التقليدي الجانب التعبدي كإحتفالات عيدي الاضحى والفطر ، ومناسبة عاشوراء التي

تنظم فيها رقصة بركايشو، طقوس الالتماس، إحياء المولد النبوي الشريف، ليلة السابع والعشرون من رمضان، وداع واستقبال حجاج بيت الله الحرام.

-الصناعات التقليدية وهي متعددة بالجنوب الغربي كصناعة الجلود والفضة والأفرشة التقليدية (الزربية، الحنبل...)

- موسيقى ورقصة "أهلل" بمنطقة تيمون في إقليم قورارة وغيرها من أنواع التراث الغنائي والموسيقي .

-عادة استقبال فصل الربيع في منطقة كرزاز من خلال طقوس " خروج الحضرة" وقبلها طقوس استقبال الشتاء " دخول الشتاء"، حسب الطريقة الموسوية المنسوبة لسيدي أحمد بن موسى الكرزازي المتوفي بين سنتي 1607-1608 م.

-عادة الاحتفال بالناير أو راس السنة الأمازيغية المصادف ليوم 11 و12 يناير من كل سنة ميلادية والتقاليد المرافقة لهذا الاحتفال .

-الطقوس المتعلقة بالماء وطرق استخراجة وتخزينه، فبسبب مناخ المنطقة الحار والجاف في أغلب شهور السنة، بات الماء أعز موجود وهو ما تدل عليه الأغاني الشعبية التي تربط بين الماء و كل مظاهر الحياة فهو: " غراس الغروس...وهو عناق النفوس...وهو رواح العروس...وهو الخارج من الفردوس"(عبد القادر خليف،2006: 34)(محاييب نور الدين،2015: 232-239).

8/2 - الألعاب الشعبية التقليدية: لأنها ترتبط بالحركة والايقاع والأغاني الشعبية تعد الألعاب التقليدية من أهم وسائل اكتشاف واكتساب الهوية والثقافة الاجتماعية فضلا عن دورها في تنمية مهارات التفكير والأداء وروح التعاون. وبذلك فالألعاب الشعبية أحد أهم

عناصر الموروث الشعبي، يتداولها جيل بعد جيل دون تنظيم مسبق، وغالبا ما ترتبط بمناسبات معينة كالأعياد والعطل الأسبوعية (masand pas.com/traditional-gmes,2024)

وفي ظل تزايد ظاهرة ارتباط الأطفال والمراهقين المفرط بالإنترنت ووسائل التواصل و كل ماله علاقة بالصورة (هاتف نقال، إيفون، تلفزيون...) وهو ما يؤثر سلبا على نموهم العقلي والنفسي والاجتماعي، وأمام هذه الظاهرة التي يعنها ناشئة الجنوب الغربي الجزائري كما هو الحال في كل أنحاء المعمورة، تزداد أهمية إحياء الألعاب الشعبية لدورها الفعال في تنمية القدرات الشخصية والمساعدة على اكتساب مهارات التواصل وروح الجماعة، من خلال اشتراك اللاعب مع زملائه في اللعب وفق قوانين وشروط تكسب الطفل الصبر والمثابرة والاعتماد على النفس وبقظة الذهن(نفادي، 2023: 295) بدل حالة التوحد والخمول التي تورثها الألعاب الإلكترونية الحديثة والتي يمكن أن نسميها بالألعاب الوهمية (Play Stition) الفاقدة للمتعة وروح التعاون والمنافسة الحقيقيين.

هذا وعلى الجنوب الغربي تنتشر وتشتهر العديد من الألعاب التقليدية المستمدة من البيئة والوسائل المادية التي توفرها الطبيعة، لذلك نجدها تتميز بالبساطة والميل إلى تنمية مهارات التواصل، بخلاف الألعاب الإلكترونية التي تروج لقيم العنف وتحقيق الانتصار بأية وسيلة كانت.

فمن الألعاب التقليدية نجد لعبة "الدومنو" التي يمارسها الكبار والصغار، لعبة الغميضة للصغار، لعبة الخانات أو المربعات التي تلعبها البنات بشكل كبير وتعرف شعبيا بـ "لاماري"، لعبة الدق وتاشكوم المنتشرة في قصور توات بشكل كبير، لعبة خريقة، لعبة صرعة، لعبة البيي أو النبيلي، لعبة المعقال، لعبة الورق، لعبة الطبخ والدمى التي تمارسها البنات، لعبة الحصى الصغيرة المعروفة بـ "قريدة" وغيرها من اللعب الشعبية الكثيرة التي تعتمد في معظمها على الحركة والسرعة وبقظة الذهن وتهدف الى ترسيخ ثقافة التعارف والتواصل، من خلال

عناصر اللعبة المرنة والبسيطة وهي مكتسبات تنمي قدرات اللاعبين الذهنية والعقلية فضلا عن مكنوناتها الثقافية والقيمية.

وإلى جانب الألعاب الشعبية يتمتع الجنوب الغربي بموروثات زاخرة في مجال المطبوعات والمشروبات نذكر منها: الحريرة وهي أنواع منها الحساء العروق محليا ب "الحسا" في بلاد توات، و الشربة التي تختلف باختلاف مادتها الأساسية، أكلة المردود، خبزة المخلع أو خبزة البصل أو الشحمة الشعبية، خبز المطلوع، المسمن والبغير، أكلة الكسكسي والسفة. أما المشروبات فنذكر منها خاصة الشاي الذي يأتي في أعلى هرم المشروبات المحلية المفضلة ويخضع في تحضيره لأعراف متوارثة تخلف بين مناطق الجنوب الغربي (توات، تندوف، الساورة، قصور الشمال...). بالإضافة إلى أنواع الحليب واللبن ومشتقاتهما.

أما في مجال اللباس والزينة فتشتهر المنطقة بالحناء وأنواع البخور و منه الجاوي، والسواك، ويعد الصوف المادة الأولية للكثير من أنواع الألبسة والمنسوجات المحلية التقليدية، بالإضافة إلى الكتان والجلد الذي يستعمل في الحقائق والنعال والسجاد. ولا بد من الإشارة إلى أن الصناعة التقليدية والحرف التي تعتمد المواد المحلية عرفت ولا تزال الكثير من التراجع والجهل بقواعدها خاصة من طرف الشباب في ظل نقص ثقافة التوريث وعزوف الناشئة عنها.

ومن الرقصات الشعبية المتوارثة والمنتشرة عبر حواضر الجنوب الغربي نجد رقصة البارود والطبل التي تستعمل فيها القراقيب أو القرقبو كما يسمى لدى العامة، ورقصة هوبي بمنطقة العبادلة، إيقاعات الحضرة التي يمارسها مريدي الطرق الصوفية المنتشرة بالمنطقة، والتي تكون مواتية للمدائح الدينية و الأوراد الصوفية. أيضا هناك رقصات مرتبطة بإيقاعات مثل إيقاع إيشو والتندي، إيقاع صارة، إيقاع الحسانية، إيقاع التوية، إيقاع برزانة وإيقاع الركبية (جعفري: 2018، 120-126).

هذا وتبقى الكثير من أنواع الموروث الشعبي القولية والعملية التي لا تسعها المساحة المتاحة وحسبنا ما تطرقنا إليه فهو غيض من فيض، يشهد بعمق وأصالة منظومة الثقافة الشعبية وتنوع أشكالها التعبيرية وحيويتها التي منحها القدرة على الاستمرار والصمود عبر الزمان والمكان من خلال تناقلها عبر الأجيال إدراكا منهم لأهميتها في مسار التضامن الاجتماعي و التكوين الهوياتي.

3/ الجنوب الغربي في مرآة الموروث الشعبي، تحولات الصورة والواقع:

يعد الموروث الشعبي بكل أشكاله التعبيرية مرآة عاكسة لتطور منظومة التقاليد والعادات والأعراف المنتجة للقيم الاجتماعية، وبالتالي فإن فهم أنساق ومسارات التحول الاجتماعي مرتبط بشكل مباشر بالعودة إلى الموروث الشفوي والممارسات العملية التي تحتفظها الذاكرة الجمعية عبر العصور والأجيال، فهي إبداع شعبي يعكس ثقافة وخيال المجتمع ومختلف مظاهر العلاقات البينية.

وفي الجنوب الغربي يحتضن المجتمع والمحيط بما يوفره من خصائص، العديد من الموروثات التي تعد مرآة حقيقية للتاريخ المحلي الذي كتبه وسطه المجتمع بجميع فئاته من عمق المعاناة والتجارب المتراكمة.

وفي محاولة استقراء تاريخ حواضر الجنوب الغربي وقراءة الصورة التي يعكسها، تسعفنا الكثير من صنوف الفنون والطقوس الشعبية (القصص الشعبي، الشعر الشعبي، الرقص الشعبي، الأمثال والحكم والأساطير، الفلكلور والمواسم والألعاب الشعبية...) في فهم طبيعة الأنشطة المتناسكة والمتسقة والمجتمعية التي حفظت وحدة الجماعة، وكذا مختلف أشكال التعبير في الثقافة المحلية ومحطات تغير البنى والعلاقات الاجتماعية. والفنون الشعبية في الجنوب تعكس ثقافة التسامح والتآزر في السراء والضراء والاحترام المتبادل وكرم الضيافة وبذل القرى.

وللشعر الملحون دور كبير في حفظ قيم المجتمع ولحمته من خلال القصائد التي تدعو إلى التحلي بالشجاعة الأدبية والنبيل وعدم الخضوع أو الخوف من الظالم خاصة الاحتلال الفرنسي، كما تصف المواطن الصالح من خلال القيم الاجتماعية التي يتحلّى بها، ودورها في توثيق عرى المواطنة والتماسك الاجتماعي.

ولأدب المائدة والضيافة في الجنوب الغربي أعراف منظمة وعريقة أساسها الكرم والتواضع والجلود بالموجود، وهي إلى جانب عادات وتقاليده إعداد الطعام ونظافة البيت وتدوير النفايات وغيرها، تشكل أساليب وقواعد مهمة في علاقات الحياة العامة المرتبطة بالبيئة وخصائصها الصحراوية.

ولأن لغة الكلام المحلي أهم وسائل نقل الموروث الثقافي فهذا يطرح تحديين مازال يعاني منهما الموروث الشعبي خاصة الشفوي منه (اللامادي كالأمثال و الحكم والقصص والشعر الشعبي...) أحدهما ضياع الكثير من العناصر التراثية تحت طائلة الإهمال وعدم التدوين و التسجيل، والثاني هو حصيلة الأول فيتمثل في خلخلة العلاقات الاجتماعية وتأثيرها سلبا نتيجة التراجع الكبير في تداول وتدوير الألفاظ والحكم والأمثال والحكايات الشعبية ذات المغزى التربوي التهذيبي الموطد والمرسخ لتلك العلاقات . فطالما كانت اللغة المحكية خزاناً لكل أشكال التفاعل والتواصل الاجتماعي الإيجابي على غرار تبادل التحية والسلام بين الكبار ومبادرة الصغير السلام على الكبير بعبارات الاحترام والتوقير " آسيدي، آبا، ألحاج..."، ومنادات الكبير للصغير بعبارات المرحمة " ياولدي، يابني..." ، وهكذا في كل ألفاظ وعبارات التواصل بما يكرس شعوراً بالأمن والانتماء للجماعة ونوعاً من التراتبية القائمة على التراحم والتضامن والثقة. وهي ذات العوامل التي تشهد تراجعاً في ظل التوظيف الشكلي لمكونات التراث الشعبي، مقابل الإخفاق في استيعاب روحه وجوهره.

ويشكل الحضور القوي للدين في مختلف مفاصل الحياة عاملا مهما في مزج ودمج الموروث الديني بالموروث الاجتماعي الى درجة التماهي، وهو ما نلاحظه بسهولة في الكثير من السلوكات والممارسات الاعتيادية سواء تلك المرتبطة بالمناسبات الدينية كالأعياد والحج وشهر رمضان والمولد النبوي، أو المرتبطة بالمناسبات الاجتماعية كالزواج والطلاق و الميلاد والعزاء والوفاء والختان، الأمر الذي يضفي طابع القداسة على مجموع الممارسات الاجتماعية ويمنحها صلاحية صياغة القيم وضبط محددات السلوك الفردي والجمعي. وهنا تجدر الإشارة إلى الدور المحوري الذي أدته وتؤديه مؤسسة الزاوية والطرق الصوفية الموجودة بالجنوب الغربي وعموم الصحراء الجزائرية في توجيه الحياة العامة و ترسيخ القيم الجمعية بما يحفظ نسيج الجماعة ومناعتها ضد حالة السيولة في الهويات والقيم التي باتت تهدد المجتمعات.

وكان لنجاح الطرق الصوفية في الانتقال من تقديس الأفراد إلى تقديس المؤسسة والفكرة دور هام في ارتباط المقدس بالحياة الاجتماعية والعمرانية والسلوكية والظواهر المرتبطة بها.

إن هذه المقدمات تفضي إلى نتيجة فحواها خضوع الموروثات الشعبية على اختلافها إلى قواعد ناظمة أهمها الارتباط بالجماعة فكرة وفعلا، وبالتالي فإن أدائها واستمراريتها يطلب الطاعة الصارمة والامتثال المطلق لطقوسها زمانا ومكانا، فأغلب الممارسات مرتبطة بمناسبات دينية واجتماعية مثل عادات الزواج والميلاد والعزاء والمولد النبوي، موسم الحج، عادات استقبال ووداع شهر رمضان.

وباعتبار الدين الحاضنة المؤطرة والموجهة لذهنيات وسلوكيات السكان، فقد لعبت طريقة التدين من خلال تبني العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي وهما مسلكان سنيان في العقيدة والفقهاء دورا كبيرا في ترسيخ وانتشار ثقافة وسطية شكلت صمام أمان في أزمنة الفتن، وسدا منيعا زمن الاحتلال الفرنسي الذي استهدف مقومات الهوية والوحدة.

ومن المظاهر ذات الصلة بثقافة السلم والثقة لدى سكان الجنوب الغربي، عادة التدخل للصالح بين المتخاصمين سواء كانوا أفراداً أو عوائل، وهي عادة حميدة يتحملها الأعيان والوجهاء والأئمة لفض الخصومات في بدايتها والحيلولة دون تطورها إلى صراع سنعكس سلباً على استقرار المجتمع. والملاحظ أن هذه الظاهر وكغيرها من مظاهر التكافل باتت تهددها ثقافة العولمة المكرسة للفردانية والاستقلال الشخصي بعيداً عن تحمل عبئ المسؤولية الاجتماعية.

ومن مظاهر التكافل الاجتماعي كذلك إلى جانب السعي للإصلاح وفض النزاعات، تأقلم مجتمع الجنوب الغربي عبر مختلف الحواضر في المدن والبوادي مع صعوبات البيئة الصحراوية وتذليلها من خلال التضامن والتآزر، وهو ما خلدته لنا الروايات والقصص والحكم والأمثال ومختلف أنماط الفنون الشعبية. فالمثل القائل "العرضة سنة والطعام أرزاق" يخبرنا برسوخ سلوك الكرم والضيافة، وحمل ذا الحاجة والخصاصة في الأفراح والأقراح والمناسبات الخاصة والأزمات تضامناً ومواساة أو تشجيعاً وتحفيزاً.

وفي هذا السياق تتوارث حواضر الجنوب الغربي ما يعرف بـ "الدار الكبيرة أو دار الجماعة" وهي نوع من الوقف الجماعي المخصص لاحتضان مختلف المناسبات الاجتماعية الجماعية. وإلى جانبها نجد عادة التوزيع المشهورة، وهي عمل جماعي ينخرط فيه الجميع لإنجاز أعمال أو مشاريع ذات الطابع العام، وبطبيعة الحال فقد ساعدت هذه المظاهر التكافلية على تأطير حياة السكان ضمن الشروط والأبعاد الاجتماعية والبيئية والاقتصادية التي لا يمكن مقارنتها من حيث معايير الجودة بما يعرفه عالم اليوم الذي بات الفرد فيه والجماعة (مؤسسة الأسرة النووية والممتدة، القبيلة) ينزعون على حد سواء نحو المزيد من الاستقلالية في السلوك والفردانية في القرار والانعزال في طرق العيش، وهنا يأتي دور مؤسسات التنشئة الاجتماعية وجمعيات المجتمع المدني في ضرورة العمل على تعويض تراجع دور المؤسسات الاجتماعية

التقليدية ، فرغم زخم الموروث الشعبي لمنطقة الجنوب الغربي وعمق أثره إلا أن تأثير سنن التغيير والتطور يبدو أكثر وقعا، وهو ما تثبته الكثير من الظواهر السلوكية والعمرائية والعلاقاتية التي تؤثر لحدوث انشقاقات في الصورة العامة التي تعكسها مرآة الموراث الشعبية.

وقد كان من نتيجة هذه الانشقاقات تغير اتجاهات وأولويات الحياة لدى السكان كأثر مباشر لحالة السيولة التي يعرفها كل العالم في الثقافة والاعلام، لنجد أنفسنا أمام صورة ترسمها ثقافة العولمة من جهة ورسوخ العادات والتقاليد المركوزة في عمق الذاكرة الجمعية والطقوسية من جهة أخرى.

وقد أفرز هذا المعطى واقعا يحاول التوفيق والمزاوجة بين موراث السكان خاصة التي لاتزال تحظى بالممارسة، وبين الحاجة الى فهم ومسايرة واقع الحياة المنفتح من خلال مداخلة الرئيسية المتمثلة في الإعلام وثقافة الاستهلاك وخدمات الاتصال والرقمنة. ولعل أهم تحدي تطرحه محاولة المزج هذه هو فقدان البوصلة في ظل الضغوط التي يفرضها واقع متطلبات العيش وتدفع نحو الاستقلالية والانكفاء، وبين متطلبات الحفاظ على الموروث القائمة أساسا على الاتصال والتواصل الدائم بين مكونات وبنى المجتمع.

ونقترح لمواجهة هذا التحدي الضاغط تبني خيار قوة التبادل الثقافي من خلال احتضان وتوجيه التنوع الثقافي والانفتاح عليه بما يخدم مكونات الخصوصية ويطورها دون طمسها أو تمييعها، فمنطقة الجنوب الغربي تتميز بتنوع وتعايش عناصرها السكانية إلى جانب منظومة تراثية صارمة، وذلك بفضل الأسس المكونة للبنية الاجتماعية القائمة على العلاقة بالأرض والمقدس وتوزيع الأدوار الاجتماعية بناء على المكانة والثقة.

4/ خاتمة : في ختام هذه الجولة القصيرة بين ثنايا الموروث الشعبي بالجنوب الغربي يمكننا استخلاص النتائج التالية: - يشكل الموروث الشعبي إطارا للكثير من القيم الأخلاقية

الأساسية التي يظهرها أفراد المجتمع إما اقتناعاً أو إتباعاً للجماعة. فالموروثات بكل مكوناتها تجسد العقل الجمعي للمجتمع، وهي تاريخ حاضر في تفاصيل الحياة الاجتماعية.

الموروث أوسع معنى من التراث لأنه حي متجدد، أما التراث فتراكم أعمال السلف، و للمورث الشعبي عموماً وفي الجنوب الغربي خصوصاً دور استراتيجي في الحفاظ على وحدة المجتمع وتماسك نسيجه بفضل التجانس الذي يتمتع به كونه نتاج تراكمي لنفس البيئة والمجتمع. وهوما يجعله من مرادفات الهوية وأحد مقومات الشخصية. كما يشكل الموروث أحد أهم المداخل لدراسة المجتمع وفهم خصوصياته وتوجهاته.

يمثل الموروث الشعبي مرآة عاكسة لتاريخ وثقافة حواضر الجنوب الغربي، وقد باتت المحافظة عليه عبر بوابة العصرية تشكل تحدياً لا تكفي المتاحف والأنشطة الجمعوية المناسبة و الأبحاث الجامعية النظرية لتغطيته و تجليته، بل يجب ابتكار وسائل وآليات لبعثه، وفتح نقاش معمق إزاءه. ومن ذلك إحياء لغة الكلام المتوارثة و منها المسميات القديمة وعصرنتها من خلال إطلاقها على المشاريع والمنتجات القريبة لطبيعتها ومفهومها. وكذا استغلال المدارس ودور التنشئة المختلفة لتعريف الناشئة بتراثهم مفهوم وممارسة.

5/ قائمة المصادر والمراجع :

- 1- ابن منظور ، محمد ابن مكرم، (2003)، لسان العرب، ط1، مجلد2، بيروت: لبنان، مادة (و.ر.ث).
- 2- الابراهيمى، محمد البشير، (2010)، التراث الشعبي والشعر الملحون في الجزائر، (تحقيق عثمان سعدي)، ط1، الجزائر: شركة دار الأمة.
- 3- الجبوري، محمد عبد الرحمان وآخرون، (2009)، مستويات توظيف الموروث الشعبي في العمل الشعبي، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بغداد، العدد 59/ 2009
- 4- إبراهيم، محمود عبد الباقي، (2008)، الخطاب العربي المعاصر، ط1، أمريكا: المعهد العالي للفكر الإسلامي.
- 5- إبراهيم، منصور محمد ياسين (2006)، استحياء التراث في الشعر الاندلسي، ط1، أريد، الأردن: عالم الكتب الحديثة.
- 6- اليونسكو، (منظمة)، (2016)، صفحة الصناعات الثقافية، تاريخ المراجعة 2021/03/24 ، الموقع الإلكتروني : <https://ar.unesco.org/themes>
- 7- بلحضري، بلوفة (2013)، الممارسات الثقافية الجزائرية في زمن التقنية، ضمن مؤلف جماعي "الموروث الشعبي والهوية الوطنية"، ط1، وهران، إصدار دار AGP.
- 8- بوتغليقة، عبد العزيز، (2006)، مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، كلمة افتتاحية ضمن كتاب جماعي من منشورات المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر.
- 9- بويغيو، بوجمعة وآخرون، (2007)، توظيف التراث في الشعر الجزائري الحديث، ط1، غنابة، الجزائر: مطبعة المعارف.

- 10- بوشيبة، عبد القادر، (2003)، الظواهر الأرسطية في المسرح العربي المعاصر 1964-1989، أطروحة دكتوراه علوم، جامعة وهران، الجزائر.
- 11- جعفري، عز الدين، (2018)، أطلس العادات والتقاليد بمنطقة توات، أطروحة دكتوراه علوم، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.
- 12- جبران، مسعود، (1981)، معجم الرائد، مج 1، ط 4، بيروت، لبنان: دار العمل للملايين.
- 13- حباش، فاطمة، (2009)، الوضع في منطقة الجنوب الغربي وبداية الاحتلال الفرنسي، مجلة عصور، المجلد 8، العدد 1، جامعة وهران 1، الجزائر.
- 14- خليف، عبد القادر، (2006)، من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي (منطقة العين الصفراء نموذجاً)، دون طبعة، وهران الجزائر: دار الأديب للنشر والتوزيع .
- 15- خليفة، عبد القادر، (2018)، تحولات المدينة الصحراوية الجزائرية، ج 1، ط 1، الاغواط الجزائر: مطبعة مركز البحوث الإسلامية والحضارة.
- 16- زنقي، لطيفة، (2022)، حفريات الموروث في الرواية الجزائرية المعاصرة، مجلة آفاق علمية، مجلد 14 عدد 03. جامعة تامنغست.
- 17- عباد، صالح، (1984)، المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر 1870-1900، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- 18- لوسيان، فيفر، (1973)، الأرض والتطور البشري، ترجمة محمد السيد غلاب، القاهرة: دار المطبوعات الجديدة.
- 19- محابيب، نور الدين، (2015)، الأطر الثقافية للهوية ومرجعيات المقدس دراسة أنثروبولوجية لطبيعة التكتل السكاني في الجنوب الغربي الجزائري، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة وهران 2.
- 20- نفوسي، لمياء مرتضى، (2013)، واقع التراث اللامادي بالجزائر ودوره في ترسيخ الهوية الثقافية، ضمن مؤلف جماعي "الموروث الشعبي والهوية الوطنية"، ط 1، وهران: إصدار دار AGP
- 21- نفاذي، دنيا أحمد، (2023)، الألعاب الشعبية التقليدية مصدرا لتصميم أقمشة ملابس الأطفال الصناعية، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، المجلد 08، عدد 37.
- 22- الموقع الإلكتروني: masand.pas.com/traditional-gmes، تاريخ المراجعة 2024/05/12.
- 23- Marcel Emerit, Histoire de l'Algérie et du Maghreb - Etudes et documents (1939-1977), Bouchéne éditions ;Paris, 2015.

جهود الأستاذ الدكتور محمد برشان في خدمة تاريخ منطقة بشار من خلال كتابه "الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في منطقة بشار (1903-1962)"

Professor Mohammad Barshane's Contribution to the History of the Bashar Region: A Study of Social, Economic, and Cultural Life in Bachar (1903-1962)

أ.د. العيد علاوي: المركز الجامعي نور البشير – البيض (الجزائر)، l.allaoui@cu-elbayadh.dz

ملخص:

إن هذه الدراسة عبارة عن إعادة قراءة لعمل أكاديمي للباحث الأستاذ الدكتور محمد برشان، عُني فيه بالتأريخ لمنطقة بشار. وتأتي الدراسة في سياق الإفادة من المؤلفات والأبحاث، وذلك بإخراجها من رفوف المكتبات واستثمار ما جاء فيها من رؤى وأفاق استشرافية سواء أكانت صريحة أم مضمرة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى توجيه الباحثين إلى الدراسات التاريخية الإقليمية التي تُسهم في خدمة الهوية وتعزيز الوحدة الوطنية، والهدفان الأول والثاني ينخرطان في مجال تحقيق التنمية المستدامة. كلمات مفتاحية: بشار، الجنوب الغربي، محمد برشان، الكتابات التاريخية، التنمية المستدامة.

Abstract:

This study undertakes a critical re-examination of an academic work authored by researcher Professor Mohammad Barshane, which delves into the historical narrative of the Bashar region. It situates itself within the scholarly context of leveraging literature and research, extracting latent perspectives and forward-looking trajectories inherent within them. Moreover, the study aims to direct scholarly attention towards regional historical inquiries that play a pivotal role in shaping cultural identity and fortifying national cohesion. Central to its objectives is the endeavor to advance sustainable development agendas through scholarly engagement and knowledge dissemination.

Keywords: Bashar, Southwest, Mohammad Barshan, historical writings, sustainable development.

1. مقدمة:

يكثُر، اليوم، الحديث عن دور البحث العلمي في تحقيق التنمية المستدامة، وقد ينصرف اعتقاد بعض الناس أن المقصود ههنا بحوث العلوم التقنية، وأن النظر مصروف عن

بحوث العلوم الإنسانية، وما من شك أن الأمر غير ذلك، فالتنمية ترتبط بجميع جوانب الإنسان، ويفترض في العلوم أن تكون خادمة للإنسان.

إن الاشتغال في هذا البحث المعنون ب: جهود الأستاذ الدكتور محمد برشان في خدمة تاريخ منطقة بشار من خلال كتابه " الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في منطقة بشار(1903-1962)"، يقوم على تثمين مخرجات المُصنّف واستثمار ما جاء فيه من رؤى وآفاق استشرافية سواء أكانت صريحة أم مضمرة، ويهدف أيضا إلى توجيه الباحثين إلى الدراسات التاريخية الإقليمية التي تُسهم في خدمة الهوية وتعزيز الوحدة الوطنية.

وتأسست معالجة الموضوع على مهاد نوّه بمحدد من محددات قياس أهمية البحوث، ونعني هنا محدد الدلالة الاجتماعية للبحث، وتلا ذلك ترجمة موجزة للكاتب محمد برشان، وتعاقبت المحاور التي تبرز قيمة المدونة المدروسة، فضمّت الحديث عن أهميتها المنهجية، وأهميتها في التأريخ للجنوب الغربي، واحتفائها بالتاريخ الثقافي للمنطقة، وأهميتها في حقول معرفية مختلفة نحو: علم الاجتماع، والدراسات اللسانية، وبحثها قضايا تتعلق بالأمن المجتمعي وآليات تحقيقه.

2. مهاد:

أوردت "آمنة بلعلی"، في سياق حديثها عن محددات امتحان الموضوع البحثي، محدد "الدلالة الاجتماعية"، (آمنة بلعلی، 2005، صفحة 48) ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن المُصنّف المدروس والموضوعات التي طرقها تنخرط في هذا الإطار، ويتساق مع التوجهات الراهنة للوزارة الوصية التي تحرص على ربط الأبحاث بالمحيط الاجتماعي والاقتصادي، فالمُصنّف عُنِيَ بالتأريخ الثقافي للمنطقة إلى جانب التاريخ الاجتماعي والاقتصادي....، فهو بذلك يُسهم في المحافظة على الذاكرة الوطنية؛ إذ يقيم جسور الوصل بالتراث والحضارة والمجتمع ويبرز مظاهر التميّز فيها، ويسهم في تعزيز الأمن المجتمعي، من خلال مقابلة المكتوب عن

المنطقة بأقلام مغربية التي هدفت إلى إعطاء الشرعية التاريخية قبل السياسية لما عُرف بـ"الجنوب الشرقي المغربي المغتصب". (برشان، 2015، صفحة 07)

3. ترجمة الكاتب: (جلاب، 2004)

الأستاذ محمد برشان أستاذ التعليم العالي بجامعة طاهري محمد بشار الجزائر، باحث مختص في التاريخ الحديث والمعاصر، مهتم بتاريخ الصحراء، نشر العديد من الأبحاث في المجالات والدوريات الوطنية والدولية، من مؤلفاته:

- النشاط السياسي وبدايات العمل الثوري بمنطقة العين الصفراء.
- المعتقلات ومراكز التعذيب في الجنوب الغربي الجزائري.
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمدينة بشار، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015.

4. المُصنّف مقدمة منهجية للباحث:

يعد هذا المُصنّف العلمي مقدمة منهجية مهمة للباحث في الدراسات التاريخية ولغيره من الباحثين مثل: الباحث في علم المكتبات والباحث في اللسانيات، فيعد(المُصنّف) مهما للباحث في التاريخ من حيث توجيهه إلى الاهتمام بالتاريخ المحلي، ولفت نظره إلى العقبات التي قد تعترض طريقه، وهي العقبات التي واجهت المؤلف نفسه، ومنها:

- ندرة الوثائق، وإن وجدت فهي غير منظمة ولا مصنفة،(برشان، 2015، صفحة 09)
- وهذا باب أو مجال جدير أن تشتغل به الأبحاث والدراسات التي ينبغي أن تعيد الاعتبار لهذه الوثائق جردا وتصنيفا ودراسة...

- ما تميزت به بعض الوثائق من كثافة وتكرار وتناقض ووجود ثغرات، (برشان، 2015، صفحة 10) وهذا يكشف على الجهد الذي اضطلع به المؤلف في مقابلة الوثائق ومقارنة ما جاء في بعضها بما جاء في بعضها الآخر.

- الحالة المزرية التي يشهدها أرشيف منطقة ولاية بشار رغم أهميته العلمية، (برشان، 2015، صفحة 11) ونرى في هذا أيضا توجيها إلى القائمين على الأمر للعناية بهذه الوثائق التي تمثل جزءا من ذاكرة الأمة.

- ونقف أيضا على بعض العبارات التي تُوجّه إلى الاحتراز من بعض الروايات الشفوية، وهذا في الحقيقة صمام أمان للمجتمع، وسيأتي بيان ما يُستفاد من الدراسة من سبل تحقيق الأمن المجتمعي في الحاضر والمستقبل.

5. المُصنّف مقدمة تاريخية مهمة للجنوب الغربي الجزائري:

سبقت الإشارة إلى أن المُصنّف يقابل بعض الأقلام المغربية التي راهنت على إعطاء الشرعية التاريخية قبل السياسية لما عُرف بـ"الجنوب الشرقي المغربي المغتصب" (برشان، 2015، صفحة 07)، فقد بيّن الكاتب أن الكتابة المنوغرافية في الجزائر، خاصة المتعلقة بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية لم تمتد إلى المناطق الواقعة في الجنوب الغربي إلا نادرا، وذلك بالنظر إلى ما تمتاز به من حساسية تاريخية بالغة. (برشان، 2015، صفحة 07)

وتبرز أهمية المُصنّف من جوانب كثيرة منها: أنه ركّز على دراسة التغيّر الاجتماعي، من خلال رصد التحولات التي طرأت على المجتمع البشاري (الديمغرافيا، الهجرة، التمدن) في مراحل مختلفة، ومن مظاهر التمدن أنشأ إقامة المستشفيات، الفندق الأوروبي، المقهى، ظهور مدارس الذكور والإناث، مقر الشرطة، حديقة الحيوانات، وبَحَث المُصنّف أيضا في باب التحولات أسباب ضعف الزوايا، ودرس جوانب أخرى سنعرضها في بابها وموضعها.

فالكتاب لا يؤرخ لمنطقة بشار فقط، بل إن القارئ يجد فيه جوانب تاريخية تتعلق بالإقليم العسكري للعين الصفراء الذي كان يُعرف بالجنوب الوهراني أو تتعلّق، إن جاز التعبير، بالجنوب الغربي عموماً، على نحو ما جاء في الشكاوى المودعة لدى المحاكم العسكرية بالإقليم العسكري للعين الصفراء 1944م، الذي شمل كل من ملحقة البيّض، المشرية، العين الصفراء، بشار، أدرار. (برشان، 2015، صفحة 147)، ومحاكم السلم بمنطقة بشار، حيث امتدت محكمة بشار إلى توات وقورارة. (برشان، 2015، صفحة 144) ووحدات النخيل بولايات الساور (الأبيض سيد الشيخ، بشار، الساور، تندوف، توات، قورارة) سنة 1959م (برشان، 2015، صفحة 239)، وعدد المسجلين في السجل التجاري 1939-1940م. (برشان، 2015، صفحة 278)

6. المصنّف مقدمة مهمة في حقول معرفية عدة:

إن المصنّف دراسة اجتماعية اقتصادية ثقافية في المقام الأول، فقد بيّن الكاتب أن المطّلع على الدراسات يسجّل تركيزها على الجانبين السياسي والعسكري، وإغفالها الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، (برشان، 2015، صفحة 09) ومع ذلك قد يقف القارئ أو الدارس على جوانب سياسية أو عسكرية في هذا المصنف، ولا غرابة في ذلك، فالجوانب أو المجالات تتداخل ويؤثر بعضها في الآخر، فقد يتأثر الاجتماعي بالسياسي أو العسكري، وقد يتأثر السياسي أو العسكري بالثقافي وهكذا.

ونذكر أن الكاتب أوماً إلى هذا التأثير في بيانه للمنهج الشكلي الذي اعتمده ف البدء بالحياة الاجتماعية راجع إلى أن الدراسات التاريخية الإقليمية تقتضي معرفة وإدراك بنيات المجتمع وخصائصاته، وبناء على هذا تتحدد الملامح الأولى للحياة الاقتصادية والثقافية. (برشان، 2015، صفحة 09)

ومن جهة أخرى، فالمُصنّف مقدمة مهمة في لحقول معرفية عدة؛ فعلى مستوى علم الاجتماع يرتبط المُصنّف بتخصصات عدة تندرج ضمن هذا العلم، نحو: علم الاجتماع الديني، علم اجتماع العمران، علم اجتماع الأسرة، علم اجتماع التربية، علم الاجتماع الثقافي، علم الاجتماع اللغوي، علم الاجتماع الحضري، علم اجتماع الصحة...

ويشتمل على معلومات منجمية يستفيد منها القارئون على قطاع الطاقة والمناجم، ومعلومات لسانية يستفيد منها المشتغلون في مجال اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات الجغرافية، واللسانيات التقابلية، ومن الأبعاد الحضارية التي يُوقف عليها المُصنّف بالدور الذي اضطلعت به الوديان التي شكّلت مجالا حيويا في المنطقة، وفي هذا المقام نوجّه عناية الباحثين إلى إقامة ملتقى يبحث موضوع: وديان منطقة بشار في الماضي والحاضر والمستقبل.

7. المُصنّف وثيقة مهمة في التاريخ الثقافي:

يُحكم على حياة أي أمة وتجذرها بالنظر إلى ثقافتها وتراثها الفكري، ونذكر أن الأستاذ الدكتور المؤرخ "أبو القاسم سعد الله" أجاب الصحفي الذي نقل له وصف رئيس الجمهورية "عبد العزيز بوتفليقة" كتاب "تاريخ الجزائر الثقافي" بأنه قراءة الماضي بمنظور ثقافي، (مراد وزناجي، 2008، صفحة 109) بقوله: « التاريخ تخصصات وفروع مختلفة. فمنه السياسي والاقتصادي... وقد كان التاريخ إلى وقت قريب كتلة واحدة يكتب من يكتب فيه عن عصر الأدب والأحداث الخارجية وتراجم الأشخاص... ولكن الأمم بدأت من عصر النهضة والقومية تهتم بتاريخها الثقافي وتراثها الفكري والعلمي، دون إهمال التاريخ السياسي أو تاريخ الملوك والحكام... لقد رأى الباحثون في تاريخ الشعوب والأمم أن الثقافة هي علامة الحياة لأي شعب وأمة وقد تختفي الأمة سياسيا بتغلب القوي عليها ولكنها لن تختفي إذا ما كان لها تراث ثقافي يمثل روحها وديمومتها...» (مراد وزناجي، 2008، صفحة 110)

ولقد أسلفنا أن الكاتب "محمد برشان" سار على هذا المنهج، فعَلَّل اختياره للجانب الاجتماعي والاقتصادي ثم الثقافي، ويلحظ المتتبع أن مُصنّفه مدونة مهمة تُضاف إلى سلسلة المدونات التي عُنيَت بالتاريخ الثقافي، فقد قدّم الكاتب نماذج عن التراث الأدبي للمنطقة نحو: شعر هوبي، (برشان، 2015، الصفحات 408-409) ورواية "مريم في النخيل" لمؤلفها "محمد ولد الشيخ"، (برشان، 2015، الصفحات 428-429) وتقديمًا للواقع الثقافي والعلمي للمنطقة قبل الاحتلال وخلالها، والمؤسسات التعليمية التقليدية والجديدة، وأهم الأعلام الذين شاركوا في الحياة الثقافية، ومن الجوانب الثقافية أيضًا نذكر: دور الهجرة الهلالية في نشر اللغة العربية بين الأمازيغ، وكذا تعداد جملة من الموروثات الثقافية بنوعها؛ المادية واللامادية نحو: أسماء الأطعمة، أنظمة السقي، السهول، أنواع التمور...

8. المُصنّف مقدمة للصناعة المعجمية:

يشكل المعجم أداة تواصلية بين القارئ والمستجدات الحضارية والعلمية واللغوية... ويختلف منظور المحدثين للمعجم ودوره ووظيفته، باختلاف مناهجهم ومشاربهم؛ فالمعجم عند بعضهم يمثل الهوية اللغوية والثقافية والحضارية للأمة... (صافية زفني، 2007، صفحة 05)، وقد يكون المعجم أداة تواصل بين القارئ والماضي، من خلال ربطه بتراث أمته. ونرى أن المُصنّف يمثل أرضية خصبة ورافداً لوضع معاجم في المجالات التالية:

- معجم أعلام الثقافة في منطقة بشار (في الفقه، القضاء، الأدب والشعر..).
- معجم الأعلام المكانية (الجبال، الوديان، الحمادات...).
- معجم ثقافة منطقة بشار (القبائل، المواقع الأثرية، العادات والتقاليد، النباتات، أسماء التمور، الحيوانات...).

وتظهر الحاجة الماسة لاستئصال معجم من هذا العمل وأمثاله، ذلك أن بعض تلك الألفاظ مندرج في فقرات المتن، وبعضها الآخر في الهامش، وقد يجد القارئ صعوبة في الوصول أو الالتفات إليها.

9. المُصنّف مدخل لبحث الأمن المجتمعي وآليات تحقيقه:

تقدّم الذكر أن المُصنّف قام على ربط جسور الوصل بالتراث والحضارة والمجتمع وإبراز مظاهر التميّز فيها، والمساهمة في تعزيز الأمن المجتمعي، من خلال مقابلة المكتوب عن المنطقة بأقلام مغربية هدفت إلى إعطاء الشرعية التاريخية قبل السياسية لما عُرف بـ"الجنوب الشرقي المغتصب"، وجاء أيضا في بيان القيمة المنهجية للمُصنّف أن الدراسة نهّيت إلى الاحتراز من بعض الروايات الشفوية التي قد تضر بأمن المجتمع.

ذهب "خالد كاظم أبو دوح" إلى أن الأمن المجتمعي يرتبط بالحماية الضمنية للقيم العامة والمشاركة والمتفق عليها بين أفراد المجتمع وجماعاته، والتي تضي على هذا المجتمع أو ذاك هوية واضحة ومميزة... وأن المجتمع الذي يفقد هويته لن يكون قادرا على البقاء الآمن. (خالد كاظم أبو دوح، 2022، الصفحات 01-02)

ويمكن للمتتبع أن يرصد أشكالا مختلفة للأمن في المُصنّف، ويرصد آليات تحقيقها في الماضي، والإفادة من ذلك في الحاضر والمستقبل، ومن تلك الأشكال التي وقفنا عليها نذكر الأمثلة التالية: الأمن الفكري، الأمن اللغوي، الأمن الغذائي، الأمن البيئي.

1.9. الأمن الفكري: فعلى مستوى الدين والتدين والتربية مثلت الزاوية مؤسسة حضارية شاملة في المنطقة، فكان لها دور بارز في التعليم، والصلح والاستقرار. ولقد عدّ المُصنّف مبادرات الصلح التي قامت بها الزاوية الزيانية، ويُستفاد أيضا من هذه الدراسة في المقومات التي تمكّن هذه المؤسسة من القيام بدورها الريادي.

2.9. الأمن اللغوي: تعرّض المُصنّف إلى التعدد اللغوي الذي عرفته المنطقة (العربية،

الممازيغية)، هذا التعدد والتعايش الذي يبعث على الاعتزاز بالتراث.

3.9. الأمن الغذائي: أشار المُصنّف إلى الأغذية الأساسية لدى بعض الفئات نحو:

أهمية التمر بالنسبة لبني قومي سكان منطقة تاغيت.

4.9. الأمن البيئي: شكّلت الوديان كما أسلفنا مجالا حيويا في المنطقة تجلّت آثارها

على المناخ والإنسان والتراب.

10. خاتمة:

اشتغلت الدراسة على تثمين مخرجات مُصنّف الأستاذ الدكتور محمد برشان، وذلك

بإعادة قراءته؛ بحثا عن الدلالات المضمرة والآفاق البحثية التي يعلنها، وخُلّصت الدراسة إلى

النتائج التالية:

-يتمتع المُصنّف بدلالة اجتماعية، فقد بذل صاحبه جهدا في تقديم صورة عن

المجتمع والاقتصاد والثقافة في منطقة بشار، وعن الجنوب الغربي. والمُصنّف مفيد في حقول

معرفية عدة نحو: علم الاجتماع الديني، علم اجتماع العمران، علم اجتماع الأسرة، علم

اجتماع التربية، علم الاجتماع الثقافي، علم الاجتماع اللغوي، علم الاجتماع الحضري، علم

اجتماع الصحة، القانون، الآثار...

-يفتح المُصنّف آفاقا بحثية عديدة، فهو يمثّل أرضية خصبة للدراسات اللسانية،

والصناعة المعجمية نحو وضع معجم أعلام الثقافة في منطقة بشار (في الفقه، القضاء، الأدب

والشعر...)، ومعجم الأعلام المكانية (الجبّال، الوديان، الحمامات...)، ومعجم ثقافة منطقة

بشار (القبائل، المواقع الأثرية، العادات والتقاليد، النباتات، أسماء التمور، الحيوانات...)...

-يكتسي المصنّف أهمية بالغة في بحث مسألة الأمن المجتمعي وآليات تحقيقه، ومن الأشكال الأمنية المستشفّة نذكر: الأمن الفكري، الأمن اللغوي، الأمن الغذائي، الأمن البيئي. وعموما ينبغي الرجوع إلى المصنّف والإفادة منه فيما يخدم الأمن المجتمعي في الحاضر والمستقبل.

المصادر والمراجع:

1. آمنة بلعلی. (2005). أسئلة المنهجية العلمية في اللغة والأدب. تيزي وزو-الجزائر: الأمل للطباعة والنشر والتوزيع.
2. خالد كاظم أبو دوح. (1 3, 2022). الأمن المجتمعي. أوراق السياسات الأمنية <https://doi.org/10.26735/EWGZY632> ، 02-01.
3. صافية زفنيكي. (2007). التطورات المعجمية والمعجمات اللغوية العامة العربية الحديثة. دمشق: مطبعة الهيئة العامة السورية للكتاب.
4. محمد برشان. (2015). الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمدينة بشار. الجزائر: منشورات الشؤون الدينية والأوقاف.
5. محمد جلاب. (18 11, 2004). قراءات. (قراءات-قناة الجزائرية- <https://www.youtube.com/watch?v=qx5Xy-t57a4> t=159s&https://www.youtube.com/watch?v=qx5Xy-t57a4 الثالثة، المحاور)
6. -مراد وزناجي. (2008). حديث صريح مع أ.د. أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ. الجزائر: منشورات الحبر.

مساهمة أبي عبد الله محمد الإدريسي في التأريخ للجنوب الغربي الجزائري من خلال كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

The contribution of Abu Abdullah Muhammad Al-Idrisi to the history of southwestern Algeria through the book Nuzhat Al-Mushtaq fi Penetrating the Horizons

ط.د. العرابي نجاة: جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)، Larabinajat@gmail.com

ملخص:

لقد اعتبرت كتابات الرحالة والمؤرخين مصدرا هاما في تزويد الباحثين بمعلومات جمة ومتنوعة عن حضارة الشعوب وثقافتها عبر التاريخ، وفي إبراز بعض جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للشعوب التي زاروها أو دونوا عنها ملاحظاتهم، ونجد المؤرخ والرحالة أبا عبد الله محمد الإدريسي الذي يعتبر أحد أكبر الجغرافيين في التاريخ، و من مؤسسي علم الجغرافيا الحديثة، كما كتب في الأدب والشعر والنبات ودرس الفلسفة والطب والنجوم في قرطبة، كما تميز الإدريسي بكثرة أسفاره وتعدد رحلاته التي دونها في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الذي يعتبر من أشهر الآثار الجغرافية العربية و ما يهمننا في هذه المداخلة إبراز مساهمة الإدريسي في التأريخ لمنطقة الجنوب الغربي و كيف و وصف شعوبها.

Abstract:

The writings of travelers and historians have been considered an important source in providing researchers with great and varied information about the civilization and culture of peoples throughout history, and in highlighting some aspects of the political, economic, social and cultural life of the peoples they visited or wrote about. Among them, we find the historian and The traveler Abu Abdullah Muhammad al-Idrisi, who is considered one of the greatest geographers in history, and one of the founders of the science of modern geography, as he wrote in literature and poetry and studied philosophy, medicine and astrology in Cordoba. Which he wrote down in his book Nuzhat al-Mushtaq fi Ikhtiraq al-Afaq, which is considered one of the most famous Arab geographical monuments, and what concerns us in this intervention is highlighting al-Idrisi's contribution to the history of the southwest region, how he described it and described its peoples.

Keywords: Al-Idrisi - Al-Mushtaq tendency - Western attraction - History.

1. مقدمة:

لقد كان لمحمد الشريف الإدريسي شأن كبير في الحضارة العربية إذ يعد من رواد الجغرافيين العرب الذين ظهوروا في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي كما كان له دور مهم في تطور علم الخرائط في العصور الوسطى والحديثة كما نجد أن مؤلفاته قد تركت أثرا كبيرا عند الباحثين الذين اهتموا بدراسة وتحقيق مؤلفاته العديدة وكان أشهرها كتابه "نزهة المشتاق في اخراق الآفاق" وقيل "اختراق الآفاق" الذي كان عوناً للجغرافيين الغربيين في توسيع معارفهم حيث ظل مصدراً لأوروبا أكثر من أربعة قرون .

وكذلك يعتبر كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق محاولة جريئة في الجمع بين الجغرافية الوصفية والجغرافية الفلكية مما يدل على براعة الإدريسي وتفوقه في النواحي الرياضية والطبيعية والجغرافية وحسن استغلاله لهذه العلوم وتفهمه إياها.

1.1 أهمية الدراسة:

1. تسليط الضوء على الجنوب الغربي الجزائري من خلال كتاب نزهة المشتاق.
2. قلة الدراسات التاريخية العلمية التي تناولت الموضوع على الرغم من أهميته.

2.1 منهج الدراسة:

استخدمت الباحثة المنهج التاريخي التحليلي.

3.1 تقسيمات الدراسة:

قسمت الدراسة إلى مقدمة وعدد من النقاط الرئيسية ثم خاتمة احتوت على أهم نتائج الدراسة.

2. التعريف بالإدريسي:

(أ) مولده ونشأته: هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى بن علي بن حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن

الحسن بن علي بن أبي طالب الشريف الإدريسي "مؤلف كتاب روجار (صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، 2000: 138) ولد أبو عبدالله محمد بن محمد بسبته سنة 493هـ (الوافي نواحي، 2002: 124) الموافق لـ 1100م ودرس في جامعة قرطبة ثم طاف في الاندلس وشمال إفريقيا وأسيا الصغرى ويقال أيضا إنه زار فرنسا وإنجلترا، (زكي محمد حسن، 1981: 24) وقد توفي الإدريسي سنة 562هـ/1166م. (م.ق. مينورسكي، 1985: 20)

أما المؤرخ الوافي نواحي يقول: "أحب الإدريسي الرحلة والتجوال فجاب عدة أقطار. إلى أن حل بصقلية عام 533هـ ضيفا على حاكمها روجر الثاني الذي طلب منه أن يضع له شيئا على شكل صورة العالم وقد حقق له ذلك في كتابه المشهور نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وأقام الإدريسي في صقلية حتى روجر ومن بعده ولده وخليفته غليوم الأول إلى وقت لم تحدده الروايات وقد عاد الإدريسي أواخر حياته إلى سبته وتوفي عام 560هـ/1164م. (الوافي نواحي، 2002: 125)

إن كل ما لدينا عن حياة الإدريسي لا يخرج عن سطور قليلة أدارها عليه بعض المؤرخين وفيما عدا هذه السطور لم يظفر الإدريسي بترجمة مفصلة في أي من كتب التراجم في المغرب أو المشرق، وسبب ذلك حسب رأي الباحثين هذا الإهمال إلى أن المسلمين أغفلوا ذكر الإدريسي لأنهم لم يرضوا عن اتصاله بملك نصراني ودخوله في خدمته. (حسين مؤنس، 1986: 168)

(ب) رحلاته وأسفاره : بدأ الإدريسي أسفاره في سن مبكرة إذ استطاع أن يزور مناطق قل من عرفها في ذلك العصر، وإذا كانت معرفته الواسعة بإسبانيا والمغرب ليست بالأمر المستغرب، فإننا نستشف من خلال مطالعة كتابه أنه زار لشبونة وسواحل فرنسا وبعض مدنها الهامة بل و أوغل حتى الجزر البريطانية بعد أن سبق له زيارة أسيا الصغرى وهو لم يتجاوز السادسة عشر من عمره، (عبد الرحمن حميدة، 1984: 388) إضافة إلى رحلاته

الاستكشافية التي دعمها الملك روجار بكل الوسائل المادية والمعنوية، وما فيها من صعوبات خصوصا عندما يريد الحصول على معلومات من دول نصرانية وهو مسلم، فكان لروجر الفضل في تسهيل المهمة. (غسان محمود وشاح، 2021: 248)

ج) مصنفاته : لقد أورد جل الذين تحدثوا عن الإدريسي ستة عشر عنوانا لمؤلفاته غير أنها لا تعني في الأخير سوى ثلاثة من كتبه، أو مختصرات لبعضها. (الوافي نواحي، 2002: 126) وهذه الكتب هي:

1- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، او الكتاب الرجاري أو رجار، تم تأليفه سنة 549هـ/1154م. (حسين مؤنس، 1986: 225)

2- روض الأنس ونزهة النسف : وقد ألفه الإدريسي لنجل روجر، وهو غليوم الذي خلفه على عرش صقلية (1154-1166)، والكتاب لم يصل إلينا كاملا. وبهذا العنوان إنما عثر فقط أوائل هذا القرن في مكتبة حكيم أو غلو علي باشا بإسطنبول على مخطوط يظن أنه مختصر لهذا الكتاب، ويحمل عنوانين، واحد في مقدمته أنس المهج وروض الفرج الثاني في خاتمته روض الفرج ونزهة المهج، وكان أول من نبه إلى وجود هذا المخطوط المستشرق يوسف هو روفيتزو بعده هزم سيبولد على نشره. (الوافي نواحي، 2002: 127)

3- الجامع لأشتات النبات ويعرف كذلك باسمي المفردات والأدوية وهو مؤلف دال على علم واسع بالنباتات والأعشاب والأدوية، امتاز بالدقة في رسم أسماء العقار و وصف خصائصه. (غسان محمود وشاح، 2021: 237)

3. كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق:

أ) أسباب تأليف الكتاب : لقد جاء سبب تأليف كتاب نزهة المشتاق على لسان مؤلفه الشريف الإدريسي حيث قال في مقدمة الكتاب : "فإن أفضل ما عني به الناظر واستعمل فيه الأفكار و الخواطر ما سبق إليه الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية و

إيطالية والكبردة و قلورية ... فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم أهل دولته واطاعته البلاد الرومية ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقية ويقتلها يقينا وخبرة ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفي أي إقليم هي وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة لها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار في الأقاليم السبعة التي اتفق عليها المتكلمون وأثبتها في الدفاتر الناقلون والمؤلفون وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوي عليه ويرجع إليه .. قلم يجد في ذلك فيها مشروعا مستوعبا مفصلا بل وجده فيها مغفلا فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علما أكثر... بعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فسألهم عنها بواسطة جمعا وأفرادا فما اتفق فيه قولهم وصح في جمعه نقلهم أثبتته وأبقاه وما اختلفوا فيه أرجاه وألغاه وأقام على ذلك نحو من خمس عشرة سنة لا يخلي نفسه في كل وقت من النظر في هذا الفن والكشف عنه والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريده ... وأن يؤلفوا كتابا مطابقا لما في أشكالها وصورها ... وأن يسمى هذا الكتاب بكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وكان ذلك في العشر الأول من يناير الموافق لشهر شوال الكائن في

سنة ثمانية وأربعين وخمس مائة". (أبي عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002، 07)

لقد ألف الإدريسي كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق لحاكم صقلية روجر ونال الكتاب شهرة عالمية، وعرف باسم كتاب روجار أو كتاب الرجاوي حظي باهتمام الدارسين وطبع في روما في عام 1592م، ولم تنقل فيه خرائط نزهة المشتاق، ثم ترجم إلى اللغة اللاتينية بعناية جبرائيل صهيوني وحنا الحصري ونشر في باريس عام 1619م وتعددت الأجزاء المطبوعة منه بعد ذلك في أوروبا ثم قام المعهد الإيطالي للشرق الأدنى والأقصى في روما بإعداد نشرة جديدة وكاملة من الكتاب، قام بتحقيقها مجموعة من الأساتذة المختصين صدرت في بين عامي 1970 و 1984. (عبد الله يوسف العتيم، 1999:48)

وقد قامت دار عالم الكتب في بيروت بإعادة نشرها في مجلدين عام 1989م ويعتبر كتابه هذا، وما به من خرائط وأوصاف، أثرا علميا خالدا، وقد قام احد المستشرقين الألمان كونراد مولر بنشر خرائط الإدريسي عام 1926 كما أعاد نشرها المجمع العلمي العراقي عام 1951، وقد تيسر لشيخ العروبة أحمد زكي باشا الحصول على أربع نسخ من مخطوط هذا الكتاب. (سعيد عبده، 2022: 122)

(ب) ما تضمنه كتاب نزهة المشتاق: لقد صنع الإدريسي للملك روجر الثاني كرة ارضية من الفضة كتب عليها بالأحرف العربية كل ما كان يعرفه من البلدان المختلفة ولكن هذه الكرة قد فقدت. (محمد صبحي عبد الكريم، وماهر عبد الحميد الليتي، 1996)

اما الخريطة الثانية فقد رسمها الإدريسي على شكل مستطيل من الفضة تبلغ ابعاده 10x14 اقدام ووزنه 400 رطل في كل رطل مائة درهم اثنا عشر درهما وهي في ذلك تكاد تكون اكبر الخرائط في العالم. (سعيد عبده، 2022: 126)

وحسب قول الإدريسي: "وأن يؤلفوا كتابا مطابقا لما في أشكالها وصورها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومسافاتهما ومزروعاتها وغللاتها وأجناس بنائها وخواصها والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تنفق بها والتجارات التي تجلب إليها وتحمل منها والعجائب التي تذكر عنها وتنسب إليها وحيث هي من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزبهم وملابسهم ولغاتهم. (ابو عبد الله محمد الشريف الادريسي، 2002:

(07

وقد تضمن الكتاب ما يلي:

1- مقدمة الكتاب التي شملت على ذكر دافعه إلى تأليف هذا الكتاب، وهو رغبة رغبة رجار الثاني ملك صقلية في الوقوف على حقيقة العالم وهذا بعد صنع الكرة الفضية، وكذلك

بين الإدريسي في هذه دور الملك روجار الذي ساندته في إعداد هذه الدراسة وكذلك ذكر الإدريسي المصادر التي اعتمد عليها في بحثه.

2- ذكر مفاهيم وشروح عن صورة الأرض وهيئتها ومقدار السكون منها، وعن كروية الأرض، والأرض مقسومة إلى قسمين بينهما خط الاستواء حيث يقول "والأرض مقسومة بقسمين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق إلى المغرب وهذا طول الأرض وهو أكبر خط في الكرة" (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 08)

3- لقد أخذ الإدريسي من الجغرافيين العرب بفكرة الأقاليم وتقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم، كما قسم هذه الأقاليم السبعة إلى عشرة أجزاء طويلة ليظهر له سبعون جزءا وهذا ما ذكره بقوله: "ولما أوردنا رسم هذه المدن في الأقاليم ومسالكها وما تحتوي عليه أممها قسمنا طول كل إقليم منها على عشرة أقسام أجزاء مقدرة من الطول والعرض" (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 13)

4- لقد وضع الإدريسي في كل إقليم أبرز المعالم الجغرافية الطبيعية متمثلة بالجبال والأنهار والعيون والمعادن والنباتات والمدن والقرى وهذا ما أشار إليه قائلا: "وفي كل إقليم منها عدة مدن وحصون وقرى وأمم لا يشبه بعضها بعضا وأيضا فإن في كل إقليم منها جبالا شامخة ووهادا متصلة وعيونا وأنهارا جارية وبركا راكدة ومعادن ونباتات وحيوانات مختلفة." (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 09)

5- كذلك وضع الإدريسي في كل إقليم أبرز المعالم الجغرافية البشرية التي حددت مفهوم جغرافية السكان في كل إقليم حيث أظهرت جانبين هما: نمو السكان وتوزيع السكان فوق الأرض، إذ أشار الإدريسي أن الأمم تزداد نسلا بزيادة النكاح بين أفرادهم وهذا ما بينه في وصفه للأمم الواقعة في نهر النيل يقول في ذلك: "ومع نزوله إلى أن يقع في النيل أمم كثيرة سودان عراة لا يستترون بشيء وهم يتناكحون بغير صدقات ولا حق وهم أكثر الناس نسلا"

(أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 22)، أما توزيع السكان فوق سطح الأرض فقد ربطهم بتوزيع الحرارة وشدة البرودة وهذا ما نستدل عليه من وصفه لتوزيع السكان على الأرض ما يسميه بالمعمورة، إذ يرى أن المناطق الجنوبية لا تصلح للسكن لشدة الحر والمناطق الشمالية لا تصلح للسكن لشدة البرودة وهذا ما أشار إليه بقوله: "غير النهايتين اللتين أحدهما نهاية المعمورة في جهة الجنوب وأكثرها خلاء لشدة الحر وقلة المياه والنهية الثانية نهاية المعمورة في جهة الشمال وأكثرها خلاء لشدة البرد". (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002، ص 13)

6- لقد وصف الإدريسي في كتابه مناخ كل إقليم وتطرق إلى عناصر المناخ التي تتمثل في درجة الحرارة والرياح والتساقط فمثلا بالنسبة لدرجة الحرارة يقول: "وهذه البلاد كثيرة الحر حامية جدا ولذلك أهل هذا الإقليم الأول والثاني وبعض الثالث لشدة الحر وإحراق الشمس لهم كانت ألوانهم سوداء وشعورهم متفلفلة بضد ألوان أهل الإقليم السادس والسابع" (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 18) فهو بذلك يرى أن شدة حرارة الشمس تؤدي إلى جعل لون بشرة الإنسان أسود. وأما الرياح فقد كان على يقين من أن حركة الرياح تنشأ نتيجة لوجود اختلافات جوية بين أجزاء سطح الأرض وذلك ما جاء في قوله: "وهذا البحر عاصف الرياح كثير الأمطار وريحه بحرية تجري ستة أشهر دائما ثم تتقلب إلى ريح أخرى" (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 87)

أما تساقط الأمطار فقد ذكر الإدريسي أثر السحب في حدوث تساقط الأمطار هذا ما أشار إليه فيما يلي: "وليس في كل البحار التي ذكرنا أكثر منه مطرا ولا أعصب منه رياحا وربما أقامت السحاب تمطر اليوم واليومين لا تنقطع" (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 88)

- 7- لقد تناول الإدريسي في كتابه وبين التركيب الطبيعي لصخور قشرة الأرض واحتوائها على المعادن ومن ذلك معادن الحديد بقوله "وفي جبال كابل معادن حديد مشهورة كثيرة النفع وحديدها قاطع حسن" (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 196) وكذلك بين الثروات الباطنية لكل إقليم حفر عليه وجد قريبا معينا كثيرا وبه معدن الذهب والفضة وإليه تجتمع طوائف من الطلاب لهذه المعادن. (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 40)
- 8- لقد ذكر الإدريسي في كتابه سببين لتكوين الأنهار وهما ذوبان الثلوج والمياه الجوفية حيث يقول في ذوبان الثلوج: "ومدينة أغمات مدينة تكتنفها جبل درن كما قلناه فإذا كان زمن الشتاء تحللت الثلوج النازلة لجبل درن فيسيل ذوبانها إلى نهر غمات" (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 231-232)
- أما عن المياه الجوفية فيقول: "إن المياه الجوفية لها أثر العيون على تكوين إحدى الأنهار وهو ما أشار إليه: "ومن مدينة سلا إلى مدينة فاس أربع مراحل ومدينة فاس مدينتان بينهما نهر كبير يأتي من عيون تسمى صنهاجة" (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 242)
- 9- لقد وصف الإدريسي البحار المحيطة باليابس حيث ذكر أنها سبعة بحار ستة منها متصلة والسابع منفصل: "وتخترق هذه الأقاليم السبعة سبعة أبحر تسمى خلجانا ستة منها متصلة وبحر واحد منفصل لا يتصل بشيء من البحور المذكورة" (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 09) ثم بدأ بسرد أسماء هذه البحار ليبين بعد ذلك أهمية هذه البحار كونها تمثل مناطق نشوء البلدان ومناطق توجد بها أنواع الحيتان والحيوانات فيقول: "وعلى كل بحر من جميع البحور التي قدمنا ذكرها بلاد وأمم...وفي هذه البحور أيضا انواع من الحيتان والحيوانات المختلفة". (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 13)
- 10- لم يعقل الإدريسي في ذكره لكل إقليم وجود الحيوانات المختلفة أو ما نسميها بالثروة الحيوانية فقد وصف بكل دقة ما يحتويه كل إقليم من الأرض من الحيوانات وما لهذه

الحيوانات من أثر في اقتصاد السكان كما وصف أهمية الاسماك والألبان على اقتصاد إحدى المدن.

11- ذكر الإدريسي أن بعض المدن تقوم بصناعة النسيج والسفن إضافة إلى صناعة الصابون.

12- ذكر كذلك الإدريسي الزراعة وأهمية لسكان المدن حيث يقول " وماؤهم من النيل وشربهم منه وبه يزرعون الشعير والذرة وسائر بقولهم من السلجم والبصل والفجل والقثاء والبطيخ. (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 38)

13- وصف الإدريسي في كتابه أجناس البشر وعاداتهم وأديانهم و ملبسهم وحتى ذهنياتهم.

14- لقد ذكر الإدريسي أهمية التجارة لكل من الأقاليم السبعة وارتباطها الوثيق بالنقل البري أو النقل البحري.

15- لم يكن مصطلح الخريطة متداولاً بين الجغرافيين القدامى بل جاء بمصطلحات أخرى حددها الإدريسي في كتابه بمصطلح المصورة حيث يقول "ومبلغ أعداد هذه المصورات الآتية بعد هذا سبعون مصورة (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 13)، كذلك مصطلح الرسم في قوله: « ولما أردنا رسم هذه المدن في الأقاليم ومسالكتها وما يحتوي عليه أممها قسمنا طول كل إقليم منها على عشرة أقسام أجزاء مقدرة من الطول والعرض ورسمنا في كل واحد من هذه الأجزاء ماله من المدن والأطوار والعمارات، " (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 13) وكذلك مصطلح لوح الترسيم بقوله " ثم أراد أن يستعلم يقينا صحة ما اتفق عليه القوم المشار الترسيم وأقبل يعتبرها بمقاييس من حديد" (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 06)، كذلك أشار إلى الخريطة إليهم في ذكر أطوال مسافات البلاد وعدد منها فأحضر إليه لوح الترسيم و أقبل يختبرها بمقاييس

من حديد. بمصطلح الجغرافيا بقوله : « وأول ما ابتدئ له من ذلك الكلام على صورة الأرض المسماة بالجغرافية كما سماها بطليموس ووصفها به (أبو عبد الله محمد الشريف الادريسي، 2002: 07)، ونبه إلى احتواء الكتاب على الذين وسيعين ريسي ذات وصف أدق لما بحسب على خريطة توضيحية .

16- لقد جاءت المدن في كتاب الا. تضمنه من وظائف لسكانها كالدينية والصناعية والتجارية والسياسية وحتى العسكرية، وتتنوع هذه الوظائف في المدينة أهميتها لذي السكان، كما تظهر المدينة بوصفه ي هذه الهدن بما يقوم به سكانها من صيد في البر والبحر واستخراج الجديد وبيعه أو تجارة سواء داخلية أو خارجية.

17- لقد جاءت الأقاليم السبعة مقسمة في كتابه كالتالي :

الإقليم	درجة العرض	عدد الصفحات
الإقليم الأول	من صفر إلى 23°	يتكون من 85 ورقة من صفحة (1-100)
الإقليم الثاني	24° - 29°	يتكون من 112 ورقة من صفحة (101-213)
الإقليم الثالث	30° - 35°	يتكون من 306 ورقة من صفحة (215-521)
الإقليم الرابع	36° - 41°	يتكون من 198 ورقة من صفحة (523-721)
الإقليم الخامس	42° - 47°	يتكون من 128 ورقة من صفحة (723-851)
الإقليم السادس	48° - 53°	يتكون من 104 ورقة من صفحة (853-939)
الإقليم السابع	54° - 59°	يتكون من 22 ورقة من صفحة (963-941)

جدول 1: تقسيم خريطة العالم عند الإدريسي (سعيد عبده، 2022: 126)

ثم أضاف إلى الإقليم السابع 5 درجات فأصبح المجموع 64° شمال خط الاستواء وتصل الأجزاء القاسية في خارطة الإدريسي إلى 72° وبعدها وحتى القطب لم يضع أي شيء لأنها شديدة البرودة وجنوب خط الاستواء غير مسكونة كذلك لشدة الحر وليس هذا التقسم علاقة

بتقسيم بطليموس ولكنه أخذ من المدرسة الإقليمية فكرة ربط المتن بالخارطة. (سعيد عبده، 2022: 127)

18- لقد وضع الإدريسي خرائط شاملة الأجزاء العالم كلها المكتشف في عصره إذ عدها الباحثون حديثاً أطلّس للعالم وأطلقوا عليه بأطلّس الإدريسي، ونظر الأهمية هذا الأطلّس فقد عدت خرائطه أهم أثر للكاتوغرافيا العربية والكاتوغرافيا في العصور الوسطى بأجمعها حيث أنها لم تقتصر على العالم الإسلامي فقط بل شملت العالم كله وتسمت كذلك بأنها أكثر دقة ووضوحاً وقلت في الأخطاء، وهذا ما جعل الإدريسي ينظر إليه على أنه أعظم جغرافي في ظهر في الدنيا إلى مطلع العصر الحديث. (رائد راكان قاسم الجواري، 2011: 382)

19- لقد استخدم الإدريسي الألوان في خرائطه فاستخدم اللون الأزرق للبحار والأخضر للأنهار واللون الأحمر والبنّي والأرجواني للجبال رسم المدن على شكل دوائر مذهبة وقد وضع اتجاه الشمال في أسفل خرائطه. (سعيد عبده، 2022: 127)

4. الكتب التي اعتمد عليها الإدريسي:

لقد كان أهم إسهامات الإدريسي الجغرافية وهو نموذج الكرة الأرضية، وكتابه نزهة المشتاق، ومجموعة الخرائط التي تضمنها (عزيزة زايد مصطفى: 128)، كل هذا يدل على اعتماده لكتب الجغرافيين القدماء بل تعدى ذلك إلى استعانتة بما أفاده من رحلاته الخاصة، وبما جمعه من الرواد والرحالة الذين أوفدهم الملك روجار إلى الأقاليم المختلفة لاستطلاع أوصافها و تحقيق مواضعها، وكذلك بما كتبه وقيده من التجار و الحجاج في السفن التي كانت تمر على موانئ صقلية، إلى جانب ما استطاع الحصول عليه من بيانات البلاد المسيحية بفضل رعاية الملك روجار. وكل ذلك جاء ذكره في مقدمة الكتاب.

5. منهج الإدريسي:

أدرك العرب المسلمون خلال العصور الوسطى (القرن العاشر الهجري) أهمية المنهج في الدراسات العلمية . فقد شهد القرن الثاني (التاسع الميلادي) تطور المعرفة العلمية وتكامل العلم العربي الإسلامي مادة ومنهجاً وفكراً وتشابكت مادة هذه العلوم وطرق بحثها وفتحت أبواب وطرائق علمية جديدة لم تعرف من قبل ، فقد كان علماء العرب والمسلمين أول من طور الجغرافية ونبغوا فيه وذلك لتمكنهم من العلوم النظرية والتطبيقية. (رائد راكان قاسم الجوّاري، 2013: 30)

لقد ظهر المنهج الذي اتبعه الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق فلم يقتصر على منهج واحد بل تعددت المناهج حسب طبيعة الكتابة، فقد كان منهجه وصفياً أحياناً وتحليلياً أحياناً أخرى، فأما المنهج الوصفي الذي يقصد به الوصف و رصد و تسجيل ما يلاحظ من مظاهر فقد اعتمده الإدريسي حينما قال " وأول ما ابتدئ به من ذلك الكلام على صورة الأرض المسماة بالجغرافية كما سماها بطليموس ووصفها به ومن الله نستمد المعونة والتوفيق والتسديد في كل منهج وطريق فهو جلت قدرته بذلك جدير وعليه قدير (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 07) ، لقد وصف الإدريسي طبيعة الأرض وهيئتها وصفاً دقيقاً وقد انبنت في معظمها على مفاهيم علمية صحيحة خاصة عندما تحدث عن كروية الأرض، والأرض في ذاتها مستديرة، لكنها غير صادقة الاستدارة، وخط الاستواء يقسم الأرض بقسمين . ولم يكتف الإدريسي في وصفه بل تعد ذلك إلى أن وصف أن أقصى الشمال وأقصى الجنوب غير مسكون لشدة البرودة وكذلك شدة الحرارة. كذلك نجده قد واصل منهجه الوصفي بوصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها و بحارها وجبالها و مسافاتها و مزدروعاتها و غلاتها وأجناس بنائها وخواصها والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تنفق بها والتجارات التي تجلب إليها وتحمل منها العجائب التي تذكر عنها وتنسب إليها وحيث هي من

الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم .
(أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 07)

أما المنهج التحليلي فظهر فيه قوله " وأمعن النظر في جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها " (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 07) ما يدل على أن الإدريسي قام بتحليل ونقد كل المعلومات التي حصل عليها من كتب المؤلفين القدامى والرواد و الرحالة والبحار ليتبين اليقين من الخيال وهذا ما يدل على علمه الواسع بالجغرافية والفلك والحساب والتاريخ وكذلك لديه علم واسع بالأدوية والأعشاب . لقد أراد الإدريسي من المنهج التحليلي التجريبي الانتقال من المعلومات المكتوبة المقروءة إلى تجسيدها على أرض الواقع بصنع مجسم لخريطة العالم في كرة من الفضة وهذا ما نستشفه من قوله " ثم أراد أن يستعلم يقينا صحة ما اتفق عليه القوم المشار إليهم في ذكر أطوال مسافات البلاد و عروضها فأحضر إليه لوح الترسيم وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئا فشئيا مع نظره في الكتب المقدم ذكرها وترجيحه بين أقوال مؤلفيها ... فأمر عند ذلك بأن تفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن أربع مائة رطل بالرومي في كل ركل منها مائة درهم واثنى عشر درهما فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة. (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 06)

6. التأريخ للجنوب العربي الجزائري من خلال كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق:

1.6 تعريف الجنوب الغربي حاليا:

الجنوب الجزائري جزء من الصحراء الكبرى الافريقية التي تمتد من ويحدها من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا،
ويحدها من الشمال الشرقي ساحل البحر الأبيض المتوسط، أما من الناحية الجنوبية فيحدها ما يعرف ببلدان الساحل، (إبراهيم مياشي، 1996: 19) أما منطقة الجنوب الغربي

الجزائري تمتد من جبال القصور التي تشكل حلقة من سلسلة الأطلس الصحراوي شمالاً إلى الحدود مع موريتانيا و مالي جنوباً، ومن العرق الغربي الكبير وهضبة تادميت شرقاً إلى الحدود مع المغرب و الصحراء الغربية غرباً. (برشان محمد، وسباعي سيدي عبد القادر، 2022: 852)

2.6 التاريخ للجنوب الغربي الجزائري من خلال كتاب نزهة المشتاق :

قبل أن نذكر كيف أرخ المؤرخ والجغرافي الإدريسي للجنوب الغربي الجزائري يجب ذكر أوضاع المغرب العربي قديماً وخاصة خلال القرن الذي كتب فيه كتابه نزهة المشتاق وهو القرن السادس هجري / الثاني عشر للميلاد 6هـ / 12 م، فلم تكن حدود الجنوب الغربي الجزائري موجودة ولا موضحة المعالم حيث كان المغرب وإفريقية حسب ما ذكره ابن خلدون في كتابه ديوان المبتدأ والخير حيث يذكر أن قبائل من العرب من قبائل أعمال بني هلال و سليم الذين دخلوا المغرب وتولهم أعمال إفريقية بأمر من المستنصر ووزيره أبو محمد الحسن علي اليازوي، حيث أشار هذا الأخير على مشايخ هؤلاء القبائل وإعطائهم المغرب وتولهم حكم إفريقية لنصرتهم وطاعته، ودفعهم بالحرب ضد المعز بن باديس صاحب إفريقية و صنهاجة . وكان ذلك سنة 441 هـ، حيث هزمت قبائل بني هلال المعز بن باديس الذي فر بنفسه وخاصته إلى القيروان. واقتسمت العرب بلاد إفريقية سنة 446 هـ، ثم حاربوا قبائل زناتة من بعد صنهاجة وهزمهم على ضواحي إفريقية والزاب، ولم تتوقف الحروب بين العرب من قبائل بني هلال وبين زناتة تارة ومع صنهاجة تارة أخرى ولما غلب الموحدون سائر الدول بالمغرب في سنة 541 هـ فدخلت قبائل العرب في طاعة الموحدين طوعاً وكرهاً. (عبد الرحمن بن خلدون، 2006: 28)

لقد كانت أفريقية والمغرب تحت طاعة الدولة الموحدية التي قامت بحركة توسع كبيرة ضمت عدة مدن ومناطق وبذلك يكون الموحدون أول من وجد المغرب العربي طلب عدا برقة وما يليها شرقاً إلى حدود مصر. (حسين مؤنس، 1987: 181)

لقد جاء تأريخ الجنوب الغربي الجزائري من طرف الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق من خلال وصف هذه المنطقة فالإدريسي لم يذكر مصطلح الجنوب الغربي الجزائري ولكن بعد دراسة و تحليل كتاب نزهة المشتاق حصرنا حدود الجنوب الغربي الجزائري قديماً وإلى أي إقليم ينتمي من الأقاليم السبعة التي ذكرها الإدريسي، لقد جاء الجنوب الغربي الجزائري في إقليمين وهما الإقليم الثاني و الإقليم الثالث حيث أن جزءه الشرقي كان ضمن صحار متصلة إذ يقول في ذلك الإدريسي عن الصحار المتصلة: "صحار متصلة غير عامرة و جهات و حشة و جبال حرش جرد لا نبات فيها و الماء بها قليل جدا لا يوجد إلا في أصل جبل أو في ما اطمأن من سباحها و بالجملة إنه هناك قليل الوجود يتزود به من مكان إلى مكان إلى و أهل تلك الأرضين يدلون في أكنافها و طرقاتها و يجولون في ساحاتها و وهادها و جبالها. وفي هذه الصحاح المذكورة يقع أقوام رحالة ينتقلون في أكنافها و يرعون مواشهم في أدانها و أطرافها و ليس لهم ثبوت في مكان و لا مقام بأرض و إنما يقطعون دهرهم في الرحلة و الانتقال"، (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002: 109) وأما جزؤه الغربي فينتهي إلى حدود مدينة سجدلماسة التي أرخها الإدريسي بكل دقة حيث يقول فيها: "و أما مدينة سجدلماسة فمدينة كبيرة كثيرة العامر و هي مقصد للوارد والصادر كثيرة الخضر و الجنات رائقة البقاع و الجهات و لا حصن عليها و إنما هي قصور وديار وعمارات متصلة. (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، 2002:

(225)

لقد حاولنا قدر المستطاع و بعد تحليل كتاب نزهة المشتاق و دراسة الخرائط التي رسمها الإدريسي أن نحدد موقع الجنوب الغربي الجزائري و ذكر ما أرخه الإدريسي له. وتبقى هذه الدراسة بداية لبحوث طويلة عن منطقتنا (منطقة الجنوب الغربي الجزائري).

7. الخاتمة:

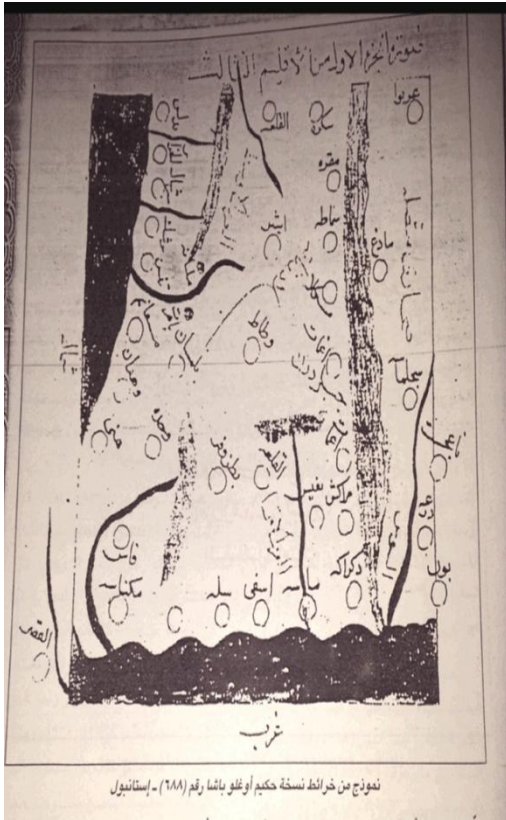
لم يكن الإدريسي جغرافيا فقط بل تعددت علومه ومعارفه لتشمل فروعاً أخرى من العلوم مثل الطب والصيدلة والنباتات كما كان أديبا و شاعرا، وترك في كل علم مؤلفات متعددة، لقد كان الإدريسي مهتما بالكتابات القديمة للجغرافيين اليونان والرومان والعرب مما دل عليه كتابه نزهة المشتاق على سعة معرفته وتراكمها وكان أهم كتاب جغرافي طيلة قرون الأولى، لذلك أردنا أن نسهم في إيضاح وصف وحدود الجنوب الغربي الجزائري .

قائمة المراجع:

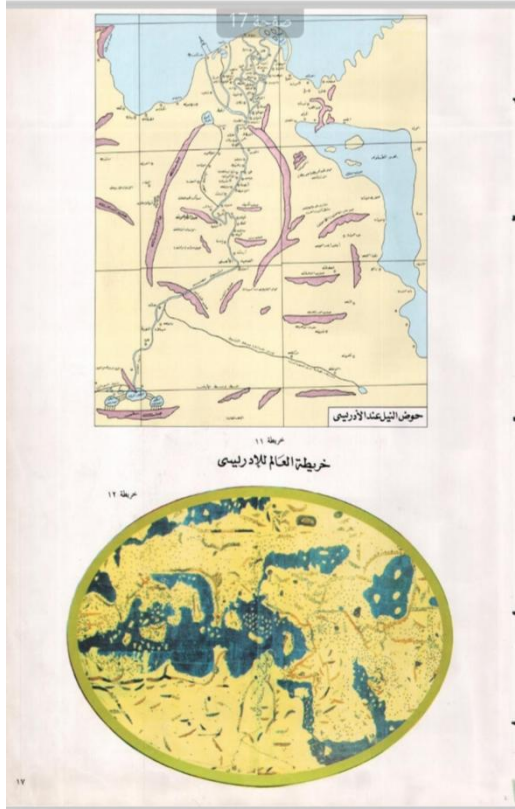
1. إبراهيم مياسي ، توسع الاستعمار الفرنسي من الجنوب الغربي الجزائري ، د-ط، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، 1996.
2. أبي عبد الله محمد الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
3. برشان محمد و سباعي سيدي عبد القادر ، تخطيط القصور في الجنوب الغربي الجزائري-مقاربة سوسيو تاريخية، مجلة المعيار، مجلد26، عدد 4، 2022.
4. حسين مؤنس، تاريخ لجغرافية والجغرافيين في الاندلس، ط2، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، 1986.
5. حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ط1، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، 1987.
6. رائد ركان قاسم الجواري ، جهود الشريف الإدريسي في الفكر العربي، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، المجلد 11، العدد3، جامعة الموصل ، 2011.
7. رائد ركان قاسم الجواري، الأصالة و الإبداع الخرائطي في الحضارة العربية الإسلامية ، ط1، دار الكتب و الوثائق القومية ، بغداد، 2013.
8. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، د.ط. بيروت.
9. سعيد عبده تطور الفكر الكارتوجرافي عند الجغرافيين العرب في العصور الوسطى، مجلة المجمع العلمي المصري ، مجلد97 ، 2022
10. صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق تركي مصطفى، ج1، دار إحياء التراث العربي ، ط1، بيروت، 2000.
11. عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج6، د-ط، دار الفكر، بيروت، 2006.
12. عبد الرحمن حميدة ، اعلام الجغرافيين العرب ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق ، 1984 .
13. عبد الله يوسف العتيم، المخطوطات الجغرافية العربية في المكتبة البريطانية ومكتبة جامعة كامبردج ، ط1 ، مكتبة الأمل ، الكويت، 1999

14. عزيزة زايد مصطفى، إسهامات العلماء العرب و المسلمين في العلوم الجغرافية و البحار ، مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد 46، دت.
15. غسان محمود وشاح ، منهج الإدريسي من خلال كابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والإجتماعية ، المجلد 12 العدد 1 ، 2021 .
16. م.ق. مينورسكي، الجغرافيون والرحالة المسلمون، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، العدد73، يناير 1985.
17. محمد صبحي عبد الكريم وماهر عبد الحميد اللبتي، علم الخرائط ، د-ط، مكتبة الأجلو المصرية، 1996.
18. الوافي نواحي، مخطوط انس المهج وروض الفرج للشريف الإدريسي، مجلة آفاق الثقافة والثرات، السنة التاسعة، العدد 36 يناير 2002

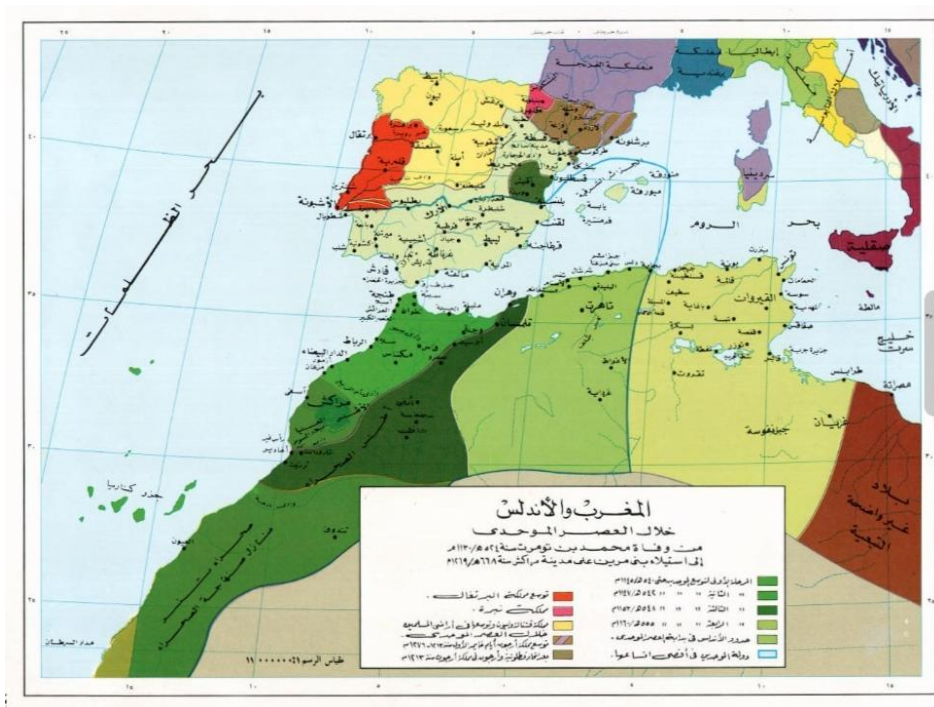
الملاحق:



الملحق 02: خريطة العالم الإدريسي



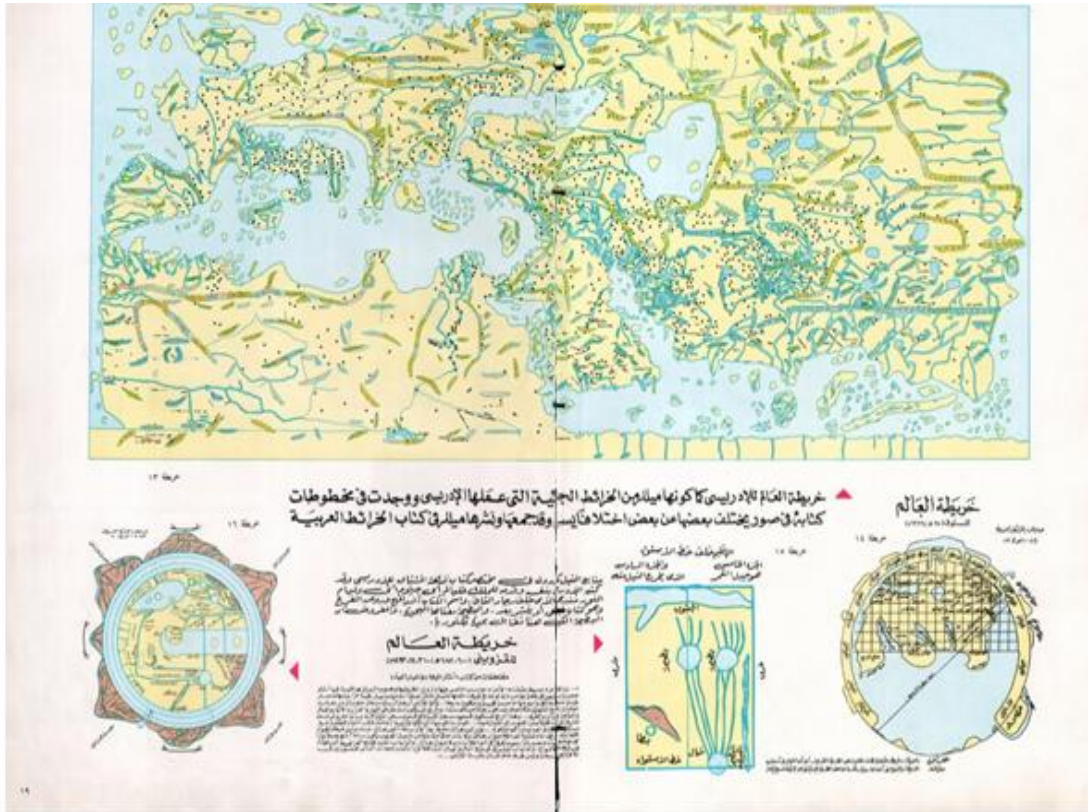
الملحق 01: خريطة من كتاب أطلس تاريخ الإسلام (حسين مؤنس)



الملحق رقم 03: خريطة المغرب والأندلس في العصر الموحد- كتاب أطلس تاريخ الإسلام-حسين مؤنس



الملحق رقم 04: صورة الأرض للإدريسي من كتاب أطلس تاريخ الإسلام- حسين مؤنس



الملحق رقم 05: خريطة العالم للإدريسي – كتاب أطلس التاريخ الإسلام- حسين مؤنس

الموروث الثقافي بنوعيه من خلال الكتابات عن الجنوب الغربي وإشكالية التعدي عليه في التشريع الجزائري

Cultural heritage of both types through writings about the southwest and the problem of its infringement in Algerian legislation

ط.د دحوان رشيد: جامعة طاهري محمد -بشار (الجزائر)، dahouane.rachid@univ-bechar.dz، مخبر الدراسات الإنسانية والاجتماعية بشار

ملخص:

ترتكز العادات والتقاليد على الموروث الثقافي الشعبي، الذي ينبع من أصالة المجتمع، وتمتد قيمته الإنسانية في أعماقه، ويقتبس منها (المجتمع) المقومات السامية من الأسس المكونة للهوية الإسلامية بصفة خاصة، ومن ثم رفع شعار التقدم والحضارة حتى لا تتفسخ هويته الوطنية وتعصف به العادات المستوردة، بفعل رياح العولمة والتطور والتحضر الزائف لتنفيذ مشروع يعاكس العادات ويحارب التقاليد التي تحمل معاني السمو والرفعة المتأصلة في السلوك الذي يضمن الحماية من الوقوع في شباك الانحراف، ولقد تفتن المجتمع إلى مقومات هويته الثقافية بصفة عامة والإسلامية بصفة خاصة. ونسجل في مجتمع العبادة وجود جهود لحماية هويته بحسب القيم الاجتماعية التي توارثها الأبناء عن الأجداد، وبالمقابل موقف المُشْرِع من التعدي على هذا التراث وسن القوانين الرادعة حفاظا على هذا الإرث الحضاري والتاريخي. الكلمات المفتاحية: التراث المادي واللامادي، السياحة الصحراوية في الجنوب الغربي، الموروث الثقافي.

Summary:

Customs and traditions are based on popular cultural heritage, which stems from the originality of society and extends its human value into its depths. From this, society writes the sublime elements of the foundations of Islamic identity in particular, then raises the slogan of progress and civilization so that its national identity does not dissolve, nor do imported customs penetrate it with the winds of globalization, development, and adaptation. The most important thing is to implement a project that opposes customs and combats traditions that carry meanings of transcendence and elevation inherent in behaviors that ensure protection against falling into the trap of deviation.

The community has become aware of the elements of its cultural identity in general and its Islamic identity in particular. Within the community, there are sufficient efforts to protect its identity according to the social values inherited by children and ancestors. In return, the legislator's position on the violation of this

heritage is clear, as well as the enactment of deterrent laws to preserve this cultural and historical heritage.

Keywords: Tangible and intangible cultural heritage, desert tourism in the southwest, cultural heritage.

مقدمة

التراث في مجمله يعتبر مجموعة من الخبرات التي اكتسبها الفرد في حياته ، وأساس هذه الخبرات التجارب مع البيئة المحيطة به وبمن هم حوله من الأفراد والجماعات، ويرتبط التراث بماضي الإنسان ارتباطا وثيقا كما يرتبط بالواقع الذي يعيشه بمستقبله، ويعد اللبنة الأساسية التي تقوم عليها ثقافة الأمم في تاريخها وحاضرها، والتراث المادي واللامادي هو عنصر من عناصر تحديد هوية الفرد وانتمائه إلى جماعة معينة.

وقد اختارت العديد من الدول التراث بديلا اقتصاديا ينافس في بعض المراحل الاقتصادية الصناعية ويتجاوزها في بعض الأحيان ، وهذا من خلال توظيفه في المجال السياحي. وعلى هذا الأساس حاولنا إظهار حقيقة استفادة قطاع السياحة الصحراوية من التراث الثقافي المادي واللامادي كدافع للتنمية والبعث السياحي في الجنوب الغربي وعلى سبيل المثال قصور بني عباس ، كرزاز، وتاغيت الساحرة ، وسلطان الضوء على منطقة العبادلة باعتبارها منطقة تزخر بالتراث المادي واللامادي ، ولعل من أبرز أنواع السياحة التي تطمح الجزائر إلى تطويرها وتفعيلها هو ما يعرف بالسياحة الصحراوية ، إذ تمتلك الجزائر مجموعة من المقومات الطبيعية اللازمة لقيام هذه السياحة ، فهي تتربع على صحراء شاسعة تزخر بإمكانات ضخمة مصنفة على المستوى العالمي .

ولعل من أهم الدراسات السابقة التي تعرضت لموضوع التراث المادي واللامادي دراسة اليونسكو والمعونة ب: إدارة التراث الثقافي العالمي ، والتي نشرت (شهر نوفمبر 2016) ، التي تطرق فيها جملة من الباحثين والمتخصصين في الحقل الثقافي العالمي وأهميته في حياة المجتمعات ونادوا بالحفاظ عليه وتنميته للأجيال القادمة ، واضعين بذلك حلولاً ومقترحات

لحماية وحفظ هذا النوع من الممارسة والتجربة والخبرة الإنسانية، ونذكر أيضا الدراسة القيمة التي قام بها الأستاذ: محمد حمزة بن قرينة، والأستاذة يمينة مفاتيح تحت عنوان: واقع السياحة في الجزائر للفترة ما بين (1990-2014)، والتي نشرت بتاريخ (2017/12/31)، حيث أكد فيها على أهمية السياحة بوصفها قطاعا حيويا دافعا للتنمية.

وعلى هذا الأساس وجب المحافظة على التراث المادي واللامادي من خلال وضع العقوبات اللازمة للمعتدين عليه لأن الاعتداء عليه يعتبر اعتداء على كرامة الشعوب وتاريخها. مما دفع بالمشرع الجزائري إلى الاهتمام بهذه الممتلكات من خلال تلك النصوص التشريعية والتنظيمية التي تحدد معالم الحماية القانونية المقررة. فقد تختلف صور الاعتداء على تلك الممتلكات بحسب طبيعتها، إلا أنها تصب مجملها في دائرة التجريم والعقاب على مرتكبيها. فالحماية الجنائية لتلك الممتلكات تعد ضرورة حتمية لا بد من العمل على تطويرها وفق أسس ومبادئ قانونية صارمة، تهدف إلى محاولة الحد من تلك الأفعال الماسة بسلامة التراث الثقافي عامة، و الممتلكات العقارية خاصة، باعتبار أن الممتلكات الثقافية ليست حقا خالصا لفرد من أفراد المجتمع، فمن هنا يكون المجتمع هو المجني عليه في جرائم الاعتداء، وليس الفرد أو مجموع من الأفراد بذواتهم.

وبناء على ما سبق، فقد كُتِف التعدي على الممتلكات الثقافية العقارية بين الجنح والمخالفات، وهو ما يُوجب ضرورة تطوير التشريعات الوطنية من أجل وضع قواعد أكثر تشددا للحماية عن طريق إيجاد نوع من التناسب بين خطورة الجرائم المرتكبة، و قيمة و مكانة تلك الممتلكات الموجودة.

ومما سبق، يمكننا عرض مشكلة الدراسة في التساؤل التالي :

- ما حقيقة التراث المادي واللامادي في منطقة الجنوب الغربي وما موقف المُشرّع

الجزائري من جرائم التعدي عليه؟

وقد تفرع عن هذا التساؤل مجموعة الأسئلة التالية :

- ما حقيقة التراث المادي واللامادي وأهم مركباته وخصائصه؟

- ما أهمية التراث المادي واللامادي في الجنوب الغربي؟

- ما موقف المُشرّع الجزائري من جرائم التعدي على الموروث الثقافي؟

وتهدف الدراسة إلى ما يلي :

- التعريف بالتراث المادي واللامادي الذي تزخر به منطقة الجنوب الغربي.

-التعريف بالسياحة الصحراوية في الجزائر.

أ- مفاهيم الدراسة:

2/تعريف التراث: وتدل كلمة التراث في معاجم اللغة العربية على كل ما ورثناه عن الأجداد ، وأصلها من وِث (الإِث) ، جاء في لسان العرب: الإِث والميراث في المال ، والإِث في الحسب ، والتراث ما يخلفه الرجل لورثته، والإِث أصله من الميراث "1" (ابن منظور، 2001).

ومن ناحية أخرى، التراث عبارة عن ذلك النمط المعيشي الذي ينتهجه مجتمع ما، ثم يتوارثه أفراد المجتمع أبا عن جد، وهذا النمط يشمل مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية والفنية، والعلمية، والعمرانية .

وقد عرف مضمون مصطلح التراث الثقافي تغيرا كبيرا في العقود الأخيرة خاصة من لدن منظمة اليونسكو، حيث إنه لا يقتصر على المعالم التاريخية، ومجموعات القطع الفنية والأثرية، وإنما يشمل أيضا التقاليد وأشكال التعبير الحية الموروثة من أسلافنا، التي تداولتها الأجيال الواحد تلو الآخر وصولا إلينا مثل التقاليد الشفهية، والفنون الاستعراضية، والممارسات الاجتماعية، والطقوس، والمناسبات الاحتفالية "2" (علي ، التراث المادي والتراث المعنوي).

2-1 التراث الثقافي المادي :

يشمل قسم الثقافة المادية كثيرا من الأشياء المادية، والخبرات المتوارثة المتعلقة بشؤون العمل، وتنقسم الثقافة المادية إلى عدة فروع مثل: الحرف، والمهن والعمارة، والأدوات المنزلية، وأدوات الطعام، الأدوات الزراعية، والفلاحة والأسلحة "3" (محمود، 2009). كل هذا التراث المادي جدير بالحماية والحفاظ عليه بشكل أمثل لأجيال المستقبل، ويشتمل هذا التراث على الميزة وخصوصيات المجتمعات، ويصبح ذلك التراث من الأهمية بمكان ليكون دافعا لدراسة تاريخ البشرية، ويدل الحفاظ عليه على اعتراف ضماني بأهمية الماضي، والدلالات التي تسرد قصته وتؤكد صحة الذاكرة الجمعية، وصلاحية تلك المادة، حيث يدلنا في الأخير إلى التواصل السليم مع التاريخ والحقائق "4" (التراث الثقافي المادي المشترك، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة).

2-2 الموروث الثقافي غير المادي :

أما الموروث الثقافي غير المادي، فهو كل ثروة ثقافية منقولة تنتفي فيها صفة المادية، لكن يمكن أن تحفظ في أوعية مادية ويشمل الموروث الشفاهي الذي هو ما جرى تناقله شفاهيا من غير تحديده بنظام كتابي عبر الزمن ومن جيل إلى آخر، ويشمل الموروث الثقافي غير المادي أيضا اللغات واللهجات، والحكايات الشعبية، والأمثال والشعر والأهازيج، والغناء والموسيقى، وكذلك من الرقص، والعادات والتقاليد، وظهر مفهوم الموروث الثقافي غير المادي بداية سنة 1990، بعد التوصيات التي قدمت لليونسكو سنة 1989 حول حماية الثقافات التقليدية، وفي عام 2001 قامت اليونسكو بالتحقيق لدى الدول والمنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية بهدف تحديد مفهوم التراث اللامادي، وفي سنة 2003 تبنت الدول الأعضاء في اليونسكو اتفاقية لصون وحماية التراث الثقافي، وقعت المصادقة عليها في 20 من حزيران 2007 من قبل أكثر من 78 دولة "5" (مصطفى، مجلة الزمان، 2014).

3/السياحة الصحراوية في الجنوب الغربي:

تتوفر الجزائر على صحراء شاسعة حوالي 2 مليون كلم موزعة على خمس مناطق كبرى تتمثل في : أدرار ، إيزي ، وادي ميزاب ، تنمراس تيندوف ، ومن أهم المناطق السياحية فيها نجد : توات ، القورارة ، تيديكلت ، حيث تعد الصحراء من أحسن المساحات الشاسعة العذراء في العالم ، بها كل المقومات الضرورية لإقامة سياحة ناجحة ، ومن هذه المكونات واحاتها المنتشرة عبر أرجائها ، ومبانيها المتميزة بهندستها ، والسلاسل الجبلية ذات الطبيعة البركانية في الهقار ، حيث تتجلى عظمة الطاسيلي الشاهد على الحضارة الراقية ، والمجسدة في الرسوم المنقوشة على الصخور المتواجدة في جنوبنا الكبير "6"(صالح،2010-2011)

إضافة إلى هذا تتميز مدينة بشار بقصورها التاريخية كقصر موغل ، وتاغيت ، وبني عباس ، ولحمر ، والقنادسة ، وقصر ولاد عايد ببلدية مشرع هوارى بومدين التابعة لدائرة العبادلة ، وتتميز أيضا بسدودها الشاسعة ، كسد جرف التربة ، وقير لطفي ، وبشعراها المحليين خاصة في منطقة العبادلة المضيفة.

3-1 التراث المادي واللامادي والتنمية الصحراوية :

تعتبر الجزائر من أهم الدول التي تمتلك مخزونا تراثيا وثقافيا عريقا ، على صعيد بلدان العالم العربي والإسلامي وحتى العالمي ، ناهيك عن تعاقب الحضارات عليها ، من الأمازيغية ، والفنيقية ، إلى البيزنطية والرومانية وأخيرا الإسلامية ، هذا الموروث الثقافي يمكّن الجزائر ، من ولوج عالم السياحة على المستوى العالمي ليصبح حلقة مهمة ضمن الجولات السياحية للمدن العتيقة والمواقع الطبيعية المتواجدة عبر مختلف ربوع الوطن ، ومن أهم هذه المناطق منطقة الجنوب الكبير ، التي تتسم بالتنوع في الإمكانات الطبيعية والممارسات والمشغولات خاصة اليدوية منها والتي تعبر عن التقاليد المحلية المتميزة "7"(عبد القادر ، أطروحة دكتوراه،2015-2016).

3-2 أهم مظاهر التراثية المادية واللامادية لمنطقة العبادلة (قير-بشار):

إن من خلال هذه المظاهر التراثية يمكن التعرف على صورة المجتمع ومدى تأثير الثقافات الوافدة والبيئة الطبيعية، وما يحب وما يكره من المآكل والمشارب، واللباس والصنائع، والحرف، والسلوك والممارسات، وجانب التحولات في العادات والتقاليد والأشكال التعبيرية التي ميّزت هذه الثقافة عن تلك، على المستوى المحلي أو الإقليمي، أو الوطني أو على مستوى الأمة.

ومن يغوص في عمق الذاكرة الشعبية للمجتمع الجزائري الغربي، يدرك غناها وثرائها بفنونها الأدبية الشعبية، وحضورها الدائم في كل التحوّلات التي شهدتها هذا المجتمع، أو شهدتها العالم عبر مختلف الأحداث، فعبرّ الناس من خلال هذه الفنون الشعبية، عن مواقفهم وذواتهم وهمومهم، وقد نجد فيها ما يماثل بعض المناطق الأخرى، كما نجد فيها ما يخالفها، والشيء المميّز لسكان منطقة بشار، الجزائر، وبالأخص منطقة العبادلة التي تتواجد بها قبيلة ذوي المنيع "8" (بركة، 2002).

قبيلة ذوي المنيع تميزت بارتباطها الوثيق بالبيئة، وقرب لغتها من اللغة العربية الفصحى، لأن الفضاء الذي تدور فيه عقب بروح الصحراء ورائحتها، خاصة في الشعر الشعبي في شكله ومضمونه، وفي تشابه الصور وبناء القصائد: كاعتماد المقدمة، وتشبيب القصائد، وغير ذلك "9" (المرجع السابق، ص49).

غير أن حياة البداوة التي عاشتها هذه القبيلة، وارتباطها بحياة الحلّ والتّرحال، كانت أحد أسباب الحفاظ على كثير من خصوصيات الإنسان العربي في العصور الغابرة (العصر الجاهلي)، كالتزام أفرادها بالقيم العليا أي المروءة المتميزة بالشجاعة والكرم وحسن الجوار.....، ومحافظةهم على لغتهم ومعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وتوارثهم الشعر أبا عن جد إيماناً منهم بأنّ الشعر ديوان القبيلة، فسارعوا إلى حفظه وتغنّوا به في مناسبات كثيرة، فكشفوا به عن الطموح والآمال التي كانوا ينشدونها، واعتمدوا في نظمه إيقاعاً دقيقاً قائماً

على طرائق مختلفة لها مسمياتها. وكانت تشهد ليالي سمرهم، واحتفالات زواجهم وخاصة بعد رقصة "هوبي" المفضلة.

إنّ رقصة "هوبي" هي أحد مظاهر هذه الأشكال التعبيرية الشعبية التي تشكّل جزءا هاما في المنظومة الفكرية للإنسان، كغيرها من الأشكال الأخرى (الشعر، الأمثال، الألغاز، الرقص، الأغاني، الأناشيد، الحكايات، الأساطير، المعتقدات، العادات، التقاليد، وفي غيرها من الصنائع والحرف واللباس وطرق الأكل، والشعائر وما يرافقها من طقوس)، التي تحدد الأسس العقائدية والمعرفية والثقافية والتاريخية، والأيدولوجية التي راهن عليها الإنسان، وتشكل المجتمع في أي منطقة، ثم تطوّرت بتطور هذا الإنسان حتى اكتملت في صورتها المعروفة اليوم.

ومن يتبع هذه الرقصة يجد لها جذورا في الماضي البعيد ، ولا يستطيع فصلها عن التراث العربي، خاصة إذا علمنا أنها تشبه رقصات شعبية في بلدان كثيرة لها ارتباط باحتفاليات الزواج، لكنها حملت ، دون شك ، إضافات كثيرة عبر مراحل التاريخ الطويل ، وأمّا سبب تسميتها برقصة "هوبي" فلأنّ الكلمة تتردد أثناء الرقص ، ولا يعرف واضعها إلى اليوم ، وينسبها بعض المتعلّمين إلى كلمة "هبي" الواردة في مطلع معلّقة الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم¹⁰ (الروزني ، 1985) :

ألا هبيّ بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا.

غير أنّ الشاعر في هذا البيت يدعو الجارية لتنهض من نومها ، وتجدي في خدمته وتسقيه خمرًا ، وهذا يوافق المعنى المعجمي لكلمة (هبيّ) من هبّ هبوبا وهبيبا ، وهبّ عن نوم ، استيقظ وانتبه ، وأسرع ونشط¹¹ (ابن منظور ، 2001) .

وهو معنى بعيد كل البعد عن المعنى المتداول بين الناس ، لأنّ سكان المنطقة لم يعرف عنهم شرب الخمر ، ولم تذكر الخمر في أشعارهم ، وإن ذكرت فبدعوة تجنّبها والابتعاد عنها كونها من المحرمات ، ويرى آخرون أن معناها : قرّبي وارقصي ، غير أنه لا وجود لصلة بين هذه

الكلمة والمعاني السابقة لاشتغالها على بعض الغموض ، وقد تكون الكلمة منحوتة من كلمات أخرى تحمل قصة في الذاكرة الشعبية ، مثل (هو ، بي) أي هو من أحب أو من أهوى أو من أعشق ، واستعمال ضمير المذكر للتعبير عن المؤنث أحيانا أسلوب معروف في لغة السكان إذا أريد منه الستر والتكتم ، وقد لاحظت ذلك أثناء أداء هذه الرقصة ، إذ تردد الفرقة هذه العبارة : (هوبي) مرة بتخفيف حرف الواو ، وأحيانا تردد كلمة "هو" فقط بفتح الهاء وسكون الواو ، أو كسرهما ويحذف الجزء الثاني "بي" وذلك في نهاية جولة من الرقص ، كما قد تكون مجرد كلمة للإثارة والتهيج ، كونها لا تردد إلا عندما يشتد الانفعال والحماس ، وتزداد سرعة التصفيق والضرب بالأرجل ، ثم تتحول في بداية الجولة الموالية إلى أهات أو زفرات تردد تعبيرا عن ارتياح ، هكذا (أها ، أها ، هما).

3-3 الشكل الهندسي للرقصة :

تؤدي هذه الرقصة عادة في احتفالات الزواج في شكل خط نصف دائري من الرجال يضيق ويتسع كلما اشتد الرقص ويتفاعل أعضاء المجموعة مع إيقاعه ويندمجون فيه ، وتشاركهم الراقصة أو الراقصات ، كلما حان دورهن الذي يقوم على التحوار الإيقاعي ضمن مجموعة من العلامات الإشارية المتعارف عليها.

إن الشكل الهندسي الذي يرسم لهذه الرقصة في بداية العرض ، المتمثل في اصطفاف الرجال في شكل القوس المتراس البنيان ، كأنه كتلة واحدة تتماوج تبعا لدرجات الإيقاع ومستوياته بين الشدة والقوة من جهة ، أو بين الرخاوة واللين من جهة ثانية ، قد يكون له ارتباطا بشطحات الصوفية في التعبير الديني ، غير أنّ البعض اليوم يرى في هذا الشكل الهندسي برسم الهلال رمزا للإسلام ، ويرى آخرون في شكل الهلال والنجمة التي ترسمها حركة المرأة أثناء الرقص رمزا للعلم الجزائري ، ومنهم من يرى في محافظة هذه الرقصة على طابعها المتميز تأكيدا على الخصوصية الثقافية الأصلية المتحدية للثقافات الوافدة ، وقد نراها تعبيرا

عن الوجود الإنساني في هذه المنطقة، وستظل كذلك مثل نظيراتها في مختلف المجتمعات عامة ، والمجتمع العربي بصفة خاصة 4- دلالة اللون في اللباس :

للون قدرة على الإيحاء والتعبير عند الشعوب ، يمكن ملاحظتها من خلال اللباس المستعمل في العروض الاحتفالية الجماعية ، فاللباس يقدم الجسد في الصورة المثلى لتذوقه لأنه يشكل مادة خامة لتحليل البنية الثقافية من خلال لونه وشكله وطرأه المحدد وقدرته على الإثارة بحسب الجودة والأصالة ، وهو لا يخفي حقيقة الجسد الفعلية فقط ، بل يعيد تركيبها من خلال التواصل مع لونه وشكله المميز وتأكيد الانتماء إلى المجتمع الذي يضمه والتاريخ الذي لا ينفصل عنه ثقافيا .

وتصبح الصورة هكذا معكوسة من حيث الأسلوب المتبع ، في إخفاء ما في داخل الجسد إلى قلب الجسد وجعله ظاهرا ، ثم معرفة الخطاب الذي يمرره الراقص عبر مختلف الألوان المستعملة في العرض ، ومدى ارتباط هذه الألوان بالجذور البدائية لفن الرقص ، لأن الفن مرتبط باللون منذ القديم ، فهل للباس المفروض ، في رقصة "هوبي" بألوانه المختلفة عند كل من الرجل والمرأة ، دلالة مصاحبة إلى جانب الدلالة الاصطلاحية في جميع جوانب العرض ؟ كما هي في المنظر والجسد والحركة والخطاب ؟

لا شك في أنّ الأشياء تكسب دلالة تخالف وظيفتها الواقعية والنفعية ، عندما تستعمل داخل نظام علاماتي يستثمر لمعرفة الخطاب الذي يمرره الفنان واللباس أحد هذه الأشياء ، لألوانه دلالات ترتبط بقيم المجتمع وتقرأ من مظاهر الاحتفال القائمة على التواصل الإشاري وهي دلالات مصاحبة ، ولباس المرأة هو الأصفر والأسود أو الأبيض والأحمر ، ومن الحلي الفضة في الغالب والذهب ، وأما لباس الرجل فالأبيض والأسود والأحمر ، ولكل لون دلالاته عند الرجل والمرأة ، وإذا كانت الألوان قد اعتمدت كنظرية في عدة مجالات للكشف خبايا النفس ، واتخذت رموزا في التحليل النفسي ، فإن ارتداء اللون الأبيض عند الرجال في العبادة والعمامة تعبير عن الفرح والسرور والخير والبركة والأهبة ، ويتناسب ولون البشرة السمراء ،

ويتقاطع مع اللون الأسود في السراويل عند الرجال، فيحقق اجتماع هذين اللونين مبدأ الانسجام الذي يمثل إحدى جماليات العرض في الرقصة، كما أنه أكثر الألوان العاكسة للحرارة واللباس التقليدي لسكان المنطقة، وأما اللون الأسود فله دلالة إيحائية ترتبط بمظاهر التعوذ من الأرواح الشريرة، وتحصينا من العين، خاصة عند العريس الذي يرتدي برونسا أسود ليلة الزفاف بدل السروال، أما العباءة فهي رمز السعادة والفرح، وأما المرأة الراقصة فالأنسب لها هو الأسود في الإزار الشفاف كي يظهر ما يكون تحته من لون أصفر في العباءة، فيعطي انسجاما تاما متكاملا، وتكون به أكثر فتنة عندما تجمع بين الجمال واللباس وجودة الرقص "12" (بركة، 2002)

ومن خلال هذه الرقصة نفهم أن دلالة اللون الأسود التشاؤمية قد غيرت اجتماعيا من رمز الحزن والكآبة والشر والعدوان إلى رمز الجاذبية والافتتان، خاصة إذا كانت المرأة التي ترتديه جميلة، ولعل هذا يذكرنا بقول الشاعر العربي الدارمي "13" (الزوزني، 1985):

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بزاهد متعبد

قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى خطرت له بباب المسجد

ردي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق دين محمد.

والقصة معروفة في كتاب الأغاني للأصفهاني، ورأي المدرسة الجشطالية الألمانية في الألوان، أن اللون كلما كان بارزا زاهيا فرض نفسه على الذات، واللون الأصفر أحدها، ولذلك نجد سيارات الأجرة مثلا، اختير لها اللون الأصفر في أمريكا أولا، حتى تثير الانتباه ثم صارت لونا عالميا، واختيار هذا اللون لعباءة المرأة الراقصة، يكون أكثر إثارة لتناسبه مع اللون الأسود الشفاف والبشرة البيضاء النقية، كما يعبر عن كل ما هو غال لاشتراكه مع لون الذهب المعدن الثمين، والمرأة كذلك أغلى شيء لدى العرب، فهي رمز الشرف، لا يقبل أن يحاط بها أو تهان أو تمس بأذى.

وأما اللون الأحمر فيشترك فيه النساء والرجال ، فقائد الفرقة يحمل حمالة من الحرير الأحمر وأحيانا اثنتين في نهاية إحدهما سكين ، والمرأة في الحزام الذي تتمنطق به ويدعى (البترور ، أو الجديلة) ، وهو رمز الشرف عند المرأة والطهر ، وعلامة العفاف في يوم زفافها ، كما أنه تعبير عن الحب والعهد والتحالف ، وله رموز أخرى عرفت في العصور القديمة. وأما الحلّيّ (الخلاخل والدمالج والخواتم وأشياء أخرى توضع على الرأس والصدر) ، فتكون من الفضة في الغالب ، ولعل في اختيارها هو مناسبتها للون البشرة التي تميل إلى السمرة أحيانا ، وأن الفضة لون القمر الذي شبهت به المرأة ، ومن الناحية الاعتقادية ، فهي حصن من العين والشياطين ، لذلك يوصي كثير من المشعوذين وكتبة (الحرور) بالتحلي بها ، خاصة في مظاهر الاحتفال أو التجمع لأن الأرواح الشريرة تشاركهم فيها ، وقد تتعرض لهم بالشر ، ومن الناحية الاجتماعية فهي أقل تكلفة من الذهب في استطاعة الغني والفقير اقتناءها ، وهذا ما يجعل كثيرا من الناس اليوم يقبلون عليها بكثرة في الجزائر ، في القبائل وفي الجنوب خاصة ، وفي بعض البلدان العربية .

وتبقى هذه الرقصة الشعبية كغيرها من الرقصات في حاجة الى رؤية علمية ودراسة جادة على المستوى الصوتي والوظيفي وما يتبع ذلك من دراسات للأجناس البشرية بمناهج حديثة تساعد على الفهم الحقيقي لبنية المجتمعات ، ولا تبقى مجرد تشكيلات وممارسات تؤدي في مختلف المناسبات ، كسلعة رائجة يزج بها عند كل احتفال.

3-5 الفنون الشعبية لمنطقة العبادلة (قير):

يعد الشعر الشعبي والرقص من بين أهم أشكال التراث الشعبي لمنطقة العبادلة باعتبارهما جزءا من التراث الوطني القومي ، الذي لا يخلو من التعبير عن مظاهر الحياة في شتى مجالاتها ، في تصوير هموم أفراد المجتمع من آلام وآمال ومعاناة وطموح ، كما يعرف بمميزات الشعر الشعبي في هذه المنطقة ، وخصائصه الفنية ، وجملته الرؤى والتفكير السائد لدى السكان وما يعكسه من حياتهم بخيرها وشرها وما كان يحذوا دون ذلك من آمال وطموح

وأفكار راودت الكثير منهم وما يحمله هذا الشعر من مظاهر اجتماعية وروحية ، وكل ما كان يحيط بها من ظروف عصيبة وواقع متردٍ .

وبهذا يقدم للقارئ شيئا قليلا من ثقافة سكان هذه المنطقة ويتيح له فرصة الاطلاع على هذا الشعر وبطريقة نظمه التي لا نجد لها مثيلا في الشعر الشعبي الجزائري للجهات الأخرى ، بل أرى أنهم أسسوا لأنفسهم مدرسة انفردت بقواعدها وخصائصها ، وقسموا النظم إلى قسمين : "الرسم والدهكيل أو الماية" وجعلوا جودة الشعر ما نظم على إيقاع القسم الأول "الرسم" لارتباطه بالغناء والإنشاد وذكر المرأة والتغني بجمالها.

1/ بنية القصيدة وخصائصها :

إنّ المتصفح لتراث المنطقة، يقف حائرا مندهشا أمام شكل القصيدة الشعبية بهذه المنطقة وتزداد دهشته حين يعرف أنواع الإيقاع الموسيقي الذي تعتمد عليه ، فما طبيعة هذا الإيقاع الشعري ، وما هي أوزانه وجذور نشأته ومبرراته ؟

لعل الذي يأخذ الأمور بمنطق الأشياء والتلازم بين بنية الوجدان العربي "14"(بركة، قبيلة ذوي المنيع) ، الذي يتسم بحس موسيقي ، ويزن الكلام ويقوم معوجّه ويتركب للمستقيم منه ويبين البنية الاجتماعية ، وما تضيفه حوادث الدهر التي ساهمت في تأليف الذاكرة الشعبية عبر الزمن ، وما رافقها من ممارسات غنائية جماعية وفردية في مختلف الاحتفاليات ، نجد أن هذين الجانبين قد لعبا دورا هاما في تشكيل هذا الإيقاع – على صعيد الأداء الوظيفي – في مختلف وجوهه وصوره الروحية والاجتماعية والمعرفية والإنسانية في طوره الأول " فجاء وعاءً فنيا مصورا لحياتهم بأفراحها وأفراحها "15"(محمد. الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق ص 17).

وبذلك تصبح الأغنية الفلكلورية المصدر الأول لهذا الوزن ، وبها تبدأ حكاية الأنغام الشعرية مع الأدب الشعبي ، كما قال ميشال عاصي : "حكاية الأنغام الشعرية هي حكاية الأدب

الشعبي أو الفلكلور العريق في مختلف الأعمال الإبداعية لكل شعب ، وهي هنا في آثار اللغة أبقى الحكايات وأقواها على الاستمرار "16" (ميشال، الفن والأدب ص92).

وقد تكون الأغنية الفلكلورية المصدر الوحيد للإيقاع الموسيقي كما قال سليم الحلو: "لا يجب أن تقلل من قيمة هذه الأغنية الشعبية المتواترة الشائعة في جميع الأقطار العربية تقريبا ، فهي المصدر الصحيح والوحيد المنظور ، الذي لأول هذه الأغاني لما كنا عرفنا شيئا عن ماضي موسيقانا وسلّمها وطرّاز ألحانها "17" (سليم ، تاريخ الموسيقى الشرقية ، ص182).

هكذا تبدع الشعوب فنونها الفلكلورية في مختلف المجالات ، كما تبدع حكمها ، وتوضحها احتفاليات الرقص الجماعي أو الفردي والأزجال الشعرية المغناة والتقاليد والعادات لدى الجماعات ، فكل جماعة تختلف عن الأخرى في رقصها وأنغام شعرها وتتطور بتطور الأجيال عبر العصور ، وتسايروها حركة الفلكلور باستمرار ، تلك هي سنة الحياة وقاعدتها العامة.

والشعر الشعبي أحد هذه المظاهر ، يغنى به ويهزج به ، ويوقع إيقاعات نغمية خاصة يرافقها إيقاع بعض الآلات الموسيقية وتنقلها الأجيال ، مثل ما تنقل لغتها العامة الشفهية ، وتتطور بتطورهم ، وهو شديد الارتباط والتلاحم بهذه اللغة وأنغامها ، ويمثلان نتاج عمل شعبي جماعي خلال مسيرته الطويلة ، ليس للفرد فيها من سياسة الرفض أو الشذوذ لكل ما يأخذ به أبناء قومه : من لغة ومن نغم شعري " لأن الأغنية الفلكلورية جماعية ، أي غير ثابتة ، تطرأ عليها تعديلات وإضافات عبر هجرتها وتواترها زمانا ومكانا ، ثم أنها جماعية من حيث أن بعض أنواعها ومنها أغاني الرمي والهجاء الانتقادية يضعها مؤلفون متعددون "18" (عبد الحكيم ، الشعر الشعبي الفلكلوري ، ص11).

تلك هي حال الشعر الشعبي بمنطقة وادي قير – العبادلة –؛ حضور كامل لكل مميزات وخصائص القصيدة العمودية في الشعر العربي الفصيح ، بما فيها من سعة الخيال وبعد التصوير ، وإدراك العلاقات بين الإنسان والمحيط ، إدراك لصراعه الدائم مع كل ما يحيط به

استطاع أن يحقق نجاحا فنيا بما لديه من عبقرية في الإيقاع ، واستحضار الصورة الخيالية المبدعة ، وإرسالها عبر شبكة من الرموز ، فتأسر من يطالعها بروعتها الفنية النابعة من روح العربي المليئة بالمغزى والفكاهة المثيرة ، وهو ما تنبه إليه المستشرقون وخاصة ، الفرنسيون الذين أبرزوا هذا الفن الشرقي ، فيما ترجموه من أدب شعبي إلى لغاتهم ، واتخذوه "مصدرا روحيا للفن والموسيقى والشعر والمسرح" (سليمان، 1983).

لكن المتتبع لأشكال الإيقاع في القصيدة الشعبية ، يلاحظ أن صفة الغنائية بارزة فيه ولها علاقة وثيقة بالملاح الصوتية للغة المتداولة في المنطقة ، وأن الوزن في هذا النوع من الشعر يماثل الموسيقى : أي الإيقاع الموسيقي ، ويستحيل ربطه بالبحور الخليلية المعروفة ، وقد ذهب إلى هذا الحكم العربي دحو في قوله : "إن متابعة هذه الأشعار عن طريق بحور الخليل ، ضرب من التجني على هذه النصوص وإقحام لها فيما لم تخلق له أصلا" (20) (العربي ، الشعر الشعبي والثورة التحريرية، ص94).

والنتيجة التي يمكن استخلاصها ، هو أن الشعر الشعبي يقوم على الإيقاع الموسيقي "اللحن" الذي وحدته النغمة ، لا الإيقاع الشعري "الوزن" الذي وحدته الذي وحدته التفعيلة ، وهي مسألة تنبه إليها ابن سينا في التفريق بين الإيقاع الموسيقي والإيقاع الشعري حين قال : " الإيقاع لحنيا ، وإذا اتفق إن كانت النقرات محدثة للحروف المنتظم منها كلام كان الإيقاع شعريا" (21) (عصفور، 1978)

2-الرسومات الحجرية:

بصمات الإنسان الذي عمر المنطقة على مر العصور هي كثيرة نذكر منها النقوش الصخرية : ولعل أشهرها تلك الموجودة في وادي قير ، وزوزفانة فيها عدة رموز وإشارات تعكس الحياة القديمة للإنسان "غالبيتها ترمز للبقر والغزال والخيول.

3- وادي قير (العبادلة) :

يعتبر هذا الوادي من أهم الوديان وهو أطول أودية المغرب العربي مسافة وأكثرها مخافة من احتمالات الفيضان إذ يبلغ طوله أكثر من 600 كلم كما جاء في بعض كتب المؤرخين والرحالة العرب والأعاجم كابن حوقل وابن خلدون ، يقع هذا الوادي بين جبال الأطلس وبين القصور الشمالية لمنطقة زادي النعام ببوذيوب بالمغرب ويمتد إلى الصحراء الجزائرية في ولاية أدرار .

4- سهل العبادلة :

المحيط الفلاحي هو واحد من المشاريع التنموية الكبرى للزراعة التي قامت بها الدولة الجزائرية ، تم إنجازه عام 1971 من خلال تهيئته وربطه بسد جرف التربة الذي يزود السد الصغير بماء السقي على طول السنة "22" (موقع واي باك مشين، 2011).

وبالنظر إلى ما تطرقنا إليه من ذكر للتراث المادي واللامادي في الجنوب الغربي لمنطقة العبادلة ، أدركنا بأن المنطقة غنية بتراثها وعاداتها وقيمها ، فما يجب العمل به في هذا الجانب هو المحافظة على هذا التراث وذلك بعدم المساس بخصوصياته ، ولهذا وضع المشرع الجزائري ضوابط تضبط سلوكات الأفراد وتمنعهم من التعدي على التراث الجزائري بشتى أنواعه سواء كان عقارا أو منقولا ، وسن قوانين رادعة في انتظار تشديد العقوبات في تعديلات القوانين مستقبلا ، ولعل من أهم الاعتداءات على هذه الموروثات نجد ما يلي:

1-الاعتداء المباشر على الممتلكات الثقافية العقارية:

تتعرض الممتلكات الثقافية العقارية لعدة أنواع من الاعتداءات تمس كيانها، وتعدد هذه الجرائم الماسة بها حسب القانون 04/98 وقانون العقوبات إلى عدة أنواع، والتي تعتبر في بعض الأحيان أفعالا إيجابية كالإصلاح والترميم ، وأخرى سلبية كالإتلاف والتشويه والتخريب ، التي من شأنها أن تؤثر عليها ، إلا أن القانون اعتبرها جرائم كونها تخضع لترخيص مسبق من المصالح المعنية ، حيث تتمثل هذه الجرائم فيم يلي:

1. 1. الإلتلاف أو التشويه العمدي والتخريب للممتلكات الثقافية العقارية:

حرص المشرع الجزائري على محاربة كافة صور الإلتلاف من خلال المواد 405 وما يليها قانون العقوبات ، كما نص على جريمة تخريب الممتلك الثقافية العقاري في نفس القانون . في حين تناول جريمة الإلتلاف أو التشويه العمدي للممتلك الثقافية العقاري بموجب القانون 04/98 المتعلق بحماية التراث الثقافي ، سنوضح ذلك من خلال ما يلي:

1-2 جريمة الإلتلاف أو التشويه العمدي:

تعتبر جريمة الإلتلاف أو التشويه العمدي لأحد الممتلكات الثقافية العقارية المقترحة للتصنيف أو المصنفة أو المسجلة في قائمة الجرد الإضافي ، وكذا الإلتلاف أو التدمير أو التشويه العمدي لأشياء مكتشفة أثناء أبحاث أثرية المنصوص عليها في المادة 96 من القانون 04/98 ، من أخطر الجرائم المرتكبة ضد التراث الثقافي ، باعتبار أن له أهمية خاصة من حيث ذاكرة الأمة وتاريخها وهويتها ، لأن الممتلك الثقافي فريد وخاص ، لا يمكن تعويضه في حالة إلتلافه أو تشويهه أو تدميره ، لذا نص القانون في الكثير من نصوصه على ضرورة صيانة وحماية وحراسة الممتلك الثقافي.

1-3 عقوبة جريمة الإلتلاف أو التشويه العمدي للممتلك الثقافية العقاري:

تناول المشرع الجزائري العقوبات في القانون 04/98 ضمن الباب الثامن واتجهت إرادته إلى تجريم الأفعال المرتكبة ضد الممتلك الثقافي ، كما يتضح من خلال الاطلاع على هذه المواد أن هناك أفعالا تشكل جنحا وأخرى تعتبر مخالفة ، سواء كانت هذه الأفعال بحسن نية أو بغير ذلك.

وإثر ذلك يعاقب المشرع بالحبس مدة سنتين إلى خمس سنوات وبغرامة مالية من 20.000 إلى 200.000 دج

كل من يتلف أو يشوه عمدا احد الممتلكات الثقافية العقارية المقترحة للتصنيف أو المصنفة أو المسجلة في قائمة الجرد الإضافي ، مع الاحتفاظ بحق التعويض عن الضرر في حالة وجوده (المادة 96 من القانون 04/98).

و بذلك اعتبرت هذه الأفعال جنحة رغم خطورتها لما قد ينتج عن تلك الأفعال من طمس لهوية و قيمة الممتلك الثقافي مهما كان . ما يدعونا إلى الإلحاح على إعادة النظر في تلك العقوبة و تكييفها مع قيمة التراث الثقافي عامة والعقاري خاصة.

1-4 جريمة التخريب العمدي (التدمير) للممتلك الثقافي العقاري

إن المُشَرِّع الجزائري لم يذكر جريمة التخريب في جرائم الأموال فقط، وإنما استعمله في عدة مناسبات في القسم المتعلق بجرائم ضد الشيء العمومي، ولذلك فإن المفهوم العام للتخريب نجده مبعثرا في نصوص كثيرة في قانون العقوبات، أهمها في القسم الخاص من المواد 160 إلى 160 مكرر 8، ولكن ما يميز أعمال التخريب في هذا القسم أنها تتعلق أساسا بالمعالم التاريخية والمعالم الأثرية المنقولة كتخطيط التماثيل أو لوحات فنية موضوعة في متاحف أو في مباني مفتوحة للجمهور (طباش ، 2018ص163) .

كذلك تضمن نص المادة 400 من قانون العقوبات بعض الأمثلة عن جريمة التخريب بواسطة المتفجرات ، أين أشار المُشَرِّع فيها إلى تخريب العقارات. ويمكن تعريف التخريب على أنه الإتلاف العشوائي و تدمير الشيء و تغيير شكله، بحيث يصبح غير صالح للغرض الذي أُعدَّ له، أو تنقص قيمته، وممكن القول بأنه إفساد الشيء أو تعطيله كلياً أو جزئياً بحيث لا يصلح استخدامه مرة أخرى ، مما يؤثر على فاعليته لتحقيق الغرض منه (الفاضل خمار، 2878، ص 12).

أما عن معالجة المُشَرِّع للتخريب الذي يخص الممتلكات الثقافية العقارية بموجب قانون حماية التراث الثقافي، فنجد في ذلك نص المادة 96 منه في فقرتها الثانية تذكر مصطلح

التدمير... " كل من... أو يدمر"... ، و هو المفهوم القانوني للتخريب الذي يمكن أن يقع على الممتلكات الثقافية العقارية.

1-5 عقوبة جريمة تخريب ممتلك ثقافي عقاري:

تعددت العقوبات التي فرضت على مرتكب جريمة التخريب تبعا لاقتران الفعل بظرف مشدد أو بوقوعه بصورته العادية، والظاهر أن المشرع في قانون العقوبات تناول عقوبة جريمة التخريب بحسب الشيء الواقع عليه فعل التخريب. ويتبين أن جريمة التخريب هي جريمة عمدية وتشكل جنحة أما إذا اقترنت مثلا بالحرق أو التفجير فهنا تشكل جنائية.

في حين نجد العقوبة المقررة لجريمة التخريب أو الإتلاف أو الهدم أو التشويه العمدي للنصب أو التماثيل أو اللوحات أو أشياء فنية موضوعة في المتاحف ، أو في المباني المفتوحة للجمهور أو ألواح تذكارية ومغارات وملاجئ، بالإضافة إلى مراكز الاعتقال ، سواء كانت هذه الممتلكات مصنفة أو مقترحة للتصنيف، والمقررة بموجب قانون العقوبات، فهي تتراوح من شهرين حبس إلى 10 سنوات سجن وبغرامة مالية من 500 دج إلى 50.000 دج (المادة 160 مكرر4، مكرر5، مكرر6، الأمر 156/66، المتضمن قانون العقوبات

أما عن تلك التي جاء بها المشرع في قانون حماية التراث الثقافي 04/48 فهي الحبس من سنتين 2 إلى خمس 5 سنوات، و غرامة مالية من 20.000 دج إلى 20.0000، و هو ما يؤكد تكيف هذه الأخيرة بجنحة قد لا تتناسب عقوبتها مع الجرم المرتكب أبدا

2-الأشغال الواقعة على الممتلكات الثقافية المخالفة للارتفاقات المحددة:

تنص المادة 25 من القانون 04/48 على أنه " : يخضع شغل المعلم الثقافي أو استعماله إلى التقييد بالترخيص المسبق الصادر عن الوزير المكلف بالثقافة الذي يحدد الواجبات التي تتلاءم مع متطلبات المحافظة عليه .ويجب عليه أن يمثل للارتفاقات المذكورة في قرار التصنيف المتعلقة بشغل العقار أو استعماله، أو العودة إلى استعماله . "و بالتالي في حالة قيام الجاني بشغل أو استعمال الممتلك الثقافي العقاري دون احترامه للارتفاقات الواردة في

الترخيص المقدم من وزير الثقافة عمدا والتحجج بالحرية في ملكيته، فإنه يتابع بموجب المادة 98 من القانون المتعلق بحماية التراث الثقافي .

1-2 عقوبة جريمة الأشغال الواقعة على الممتلكات الثقافية المخالفة للاتفاقات المحددة:

لقد نص المشرع الجزائري في نص المادة 98 من قانون 04/48 المتعلق بحماية التراث

لقد نص المشرع الجزائري في نص المادة 98 من قانون 04/48 الثقافي على معاقبة كل من يسكن أو يشغل ممتلكا ثقافيا عقاريا مصنفا أو تم استعماله استعمالا لا يطابق الاتفاقات المحددة و المذكورة في الترخيص المسبق الذي سلمه الوزير المكلف بالثقافة ، بغرامة مالية من 2.000 دج إلى 10.000 دج دون المساس بالتعويضات عن الأضرار إن وجدت . و هو ما يبين أن المشرع اعتبر ذلك مخالفة ، قرر لها غرامة مالية فقط ، رغم علمنا بأن تلك الأشغال المخالفة للاتفاقات المحددة الواقعة على الممتلك الثقافي يمكن أن تؤثر كثيرا عليه ، خاصة إذا مست بطبيعته القانونية ما يحتم علينا مراجعة تلك العقوبة ، و السعي لتشيدها أكثر.

3-التعديلات المخالفة للقانون الواقعة على الممتلكات الثقافية العقارية:

ألزم القانون 98/04 المتعلق بحماية التراث الثقافي بموجب المادة 31 منه على صاحب الممتلك قبل القيام بأعمال إصلاح أو إعادة تأهيل أو ترميم أو إضافة أو إعادة التشكيل أو الهدم ، ضرورة الحصول على الترخيص أو الرخصة ، سواء كانت العقارات مصنفة أو مقترحة للتصنيف ، والموجودة في المنطقة المحمية أو في محيط قطاعات محفوفة.

ويقصد بالإصلاح إحداث تغيير نوعي على الممتلك الثقافي سواء أكانت هذه الإصلاحات داخلية أم خارجية . أما عن إعادة التأهيل ، فهي عملية انتقاء للمنشآت القديمة بشكل جديد يواكب التطور العصري لاستعمالات جديدة . كما أن الترميم يعني إعادة الملك الثقافي بقدر الإمكان إلى حالته الأصلية من خلال عملية علاج تتضمن التخلص من مظاهر التلف . في حين الهدم ، هي عملية تحطيم وتكسير للأبنية وماشابهها والتي تكون مهددة بالسقوط ، ومن شأنها

أن تشكل خطرا على الأشخاص . وقد قيّد المُشرّع بموجب القانون أشغال الحفظ والترميم والتصلّيح والإضافة والتغيير والتهيئة المراد القيام بها على المعالم التاريخية المقترحة للتصنيف أو المصنفة ، أو على العقارات الموجودة في المنطقة المحمية ، بترخيص مسبق من مصالح الوزارة المكلفة بالثقافة . كما أخضع الأشغال المباشرة إنجازها أو المزمع القيام بها كمشاريع ترميم العقارات المشمولة في الموقع، وإعادة تأهيلها، وإضافة بناء جديد إليها، وإصلاحها ضمن حدود الموقع أو منطقته المحمية ، كذلك للترخيص المسبق ، وذلك بمجرد نشر القرار المتضمن فتح دعوى التصنيف في الجريدة الرسمية (المادة 31 من القانون 04/98)

1-3 عقوبة جريمة التعديلات المخالفة للقانون الواقعة على الممتلكات الثقافية العقارية :

نصت المادة 99 من القانون 04/98 المتعلق بحماية التراث الثقافي على أنه ، تخضع عملية الترميم والإصلاح للممتلكات الثقافية العقارية المقترحة لتصنيف أو المصنفة في المنطقة المحمية إلى إجراء الترخيص المسبق من وزارة الثقافة، فتشكل مخالفة كل من مباشر القيام بأعمال الإصلاح أو إعادة التأهيل أو الترميم، أو إضافة إليها أو استصلاحها، أو إعادة تشكيلها أو هدمها دون ذلك . فتقوم الجريمة بغياب الترخيص المسبق من الإدارة المركزية المتمثلة في وزارة الثقافة ، ويعاقب على ذلك بغرامة مالية من 2.000 إلى 10.000 دون المساس بالتعويضات عن الأضرار اللاحقة.

4- التصرف في ممتلك ثقافي عقاري دون ترخيص مسبق:

لقد فرض المُشرّع قيود على سلطة الاستعمال والاستغلال والتصرف المادي في العقار المصنف، كما فرض قيود على التصرف القانوني في العقار ، وهو ما أكدته المادة 49 من القانون 04/98 المتعلق بحماية التراث الثقافي . حيث إن صاحب الممتلك العقاري الثقافي المصنف كمعلم تاريخي والمسجل في قائمة الجرد الإضافي إذا أراد التصرف القانوني في عقاره

بمقابل أو بدون مقابل ، عليه أن يستصدر رخصة من الوزير المكلف بالثقافة، ويكون لهذا الأخير مهلة شهرين للإعراب عن رده، وفي حالة التصرف دون رخصة يعد التصرف باطلا بطلانا مطلقا بقوة القانون.

1-4 الجزء المقرر للتصرف في الممتلك الثقافي العقاري دون ترخيص :

المتعلق بحماية التراث الثقافي على أن التصرف في / نص المادة 81 من لقانون 04/98 ممتلك ثقافي عقاري مصنف أو مسجل في قائمة الجرد الإضافي أو مشمول في قطاع محفوظ دون ترخيص مسبق ، يكون مصيره إلغاء عقد التصرف مهما كان ، و هذا مع الاحتفاظ بحق المطالبة بالتعويض عن الأضرار عند وجودها . حيث لا بد للضباط العموميين إبلاغ الوزير المكلف بالثقافة بكل مشروع تصرف في ملكية الممتلك الثقافي العقاري ، و لهذا الأخير مهلة أقصاها شهران من استلام التبليغ لإبداء رده . في حين يمكن للدولة في حالة كون التصرف بمقابل في الممتلك الثقافي العقاري أن تمارس حقها في الشفعة (المواد 48-49 من القانون 04/98)

لكن ما يمكن ملاحظته أن الجزء المقرر لهذا النوع الخطير من الاعتداء المباشر على الممتلك الثقافي العقاري هو غير متناسب تماما مع حجم الضرر الذي يمكن أن يلحق بالممتلك الثقافي لذا كان على المشرع إقرار عقوبة أكثر ردها ، و هذا من أجل ضمان حماية قانونية أنجع لتلك الممتلكات الثقافية خاصة منها العقارية ذات الأهمية الكبيرة كونها مصدرا للثروة في البلاد.

5- إجراء الأبحاث الأثرية دون ترخيص في ممتلك ثقافي عقاري:

يقصد بهذه الجريمة في مفهوم القانون 04/98 المتعلق بحماية التراث الثقافي "... : كل تقص يتم القيام به بصورة علمية في الميدان، وتستخدم فيه التكنولوجيات الحديثة بهدف التعرف على المخلفات الأثرية بمختلف أنواعها وعصورها، وتحديد مواقعها وهويتها بغية

القيام بعملية إعادة إنشاء أبحاث ذات طابع اقتصادي واجتماعي وثقافي، وهذا لإنماء معرفة التاريخ (المادة 70 من القانون 04/98).

كما حدد المُشَرِّع المناطق التي تعتبر أثرية في القانون 04/98، حيث تتكون المحميات الأثرية من مساحات لم يسبق أن أجريت عليها عمليات استكشاف وتنقيب، ويمكن أن تنطوي على مواقع ومعالم لم تحدد هويتها، ولم تخضع لإحصاء أو جرد، وقد تختزن في باطنها آثارا وتحتوي على هياكل أثرية مكشوفة (المادة 32 من القانون 04/98).

وتبعاً لذلك فقد تستند أشغال البحث الأثري على أعمال تنقيب و بحث مطردة في مستوى مساحة معينة أو منطقة محددة، سواء كانت ذات طبيعة برية أو تحت مائية، أو حفريات أو استقصاءات برية أو تحت مائية، وكذا يمكن أن تجرى أبحاث أثرية على المعالم، وعلى التحف و المجموعات المتحفية (الفقرة الثانية من المادة 70 من القانون 04/98).

1-5 عقوبة إجراء الأبحاث الأثرية دون ترخيص:

باعتبار الترخيص إجراء وجوبيا للقيام بالأبحاث الأثرية، فلا بد لمن يقوم بذلك أن يطلب الرخصة التي تسمح له بممارسة أعماله بصفة شرعية وقانونية، كما يجب أن يرسل طلب الحصول على رخصة البحث إلى الوزير المكلف بالثقافة، وأن يبين في الطلب المكان أو المنطقة التي ستجرى فيها الأبحاث و حتى الطبيعة القانونية للمكان، و مدة الأشغال المزمع القيام بها و الهدف العلمي المنشود، و إذا كانت الأبحاث ستجرى على أرض يملكها أحد الخواص، فيجب على صاحب الطلب و تحت مسؤوليته أن يلتمس الموافقة المسبقة من مالكها، و أن يتحمل و يتكفل بما قد يحدث أثناء تنفيذ الأبحاث. وبعدها يبلغ القرار إلى المعني بالطلب خلال الشهرين اللذين يعقبان استلامه (المادة 72 من القانون 04/98)

لكن في حالة مخالفة كل ما سبق، تنص المادة 97 من القانون 04/98 على أن هذه الجريمة التي اعتبرها المشرع جنحة بالنظر إلى عقوبتها التي تمثلت في غرامة مالية تتراوح بين 10.000 دج و 100.000 دج وبالحبس من سنة إلى ثلاث سنوات، لكل من يقوم بإجراء الأبحاث الأثرية

دون ترخيص مسبق من الوزير المكلف بالثقافة . هذا إلى جانب الاحتفاظ بالتعويض عن الأضرار التي قد تحدث عند تنفيذ تلك الأبحاث ، و هو الشيء الذي قد يعمل على ضمان نوع من الحماية لتلك المعالم التاريخية إلى حد معين .

خاتمة:

إن الدارس لموضوع التراث المادي واللامادي ، والقطاع السياحي الثري في صحرائنا العميقة يلاحظ تكاملا جليا بينهما ، ومن ناحية أخرى نرى أن للجزائر إمكانات سياحية ضخمة تتمثل في التراث الثقافي المادي واللامادي ، لدى فالاهتمام بهذا التراث أولوية ملحة من خلال محاولة إدماجه في سيورة الحياة المعاصرة خاصة التنمية المستدامة باعتباره موردا اقتصاديا مهما.

باعتبار أن القانون رقم 04/98 الخاص بحماية التراث الثقافي قد مر عليه أكثر من 27 سنة و أصبح لا يوالي التطورات الحاصلة ، سواء على المستوى المحلي أو على المستوى الدولي ، خاصة مع ضعف العقوبات المسلطة على مرتكبي الجرائم الماسة بالممتلكات الثقافية العقارية الأمر الذي يشجع على اقتراف مختلف الجرائم في حقها . و أمام سوء التسيير الذي يعاني منه هذا التراث وعدم وجود إرادة لتثمينه ، بات من الضروري تقديم بعض التوصيات و المقترحات الخاصة للعمل على سد النقائص وتطوير الآليات ، والمنظومة القانونية وجعلها مرنة ومتناسبة مع الأوضاع والاحتياجات التي تلازم الممتلكات الثقافية العقارية خاصة ، والتي من خلالها يمكن أيضا المحافظة على الموروث الثقافي بشتى أنواعه، بالنظر إلى ما يزر به الجنوب الغربي من آثار وقصور تعود إلى آلاف السنين ، والتي تعبر في مجملها عن أصالة وتقاليد المنطقة ولعل من أهم هذه الاقتراحات ما يلي:

****** ضرورة التعريف بالتراث المادي واللامادي من خلال المنابر والوسائط المتعددة ، خاصة الإعلامية منها والعمل على توسيع ثقافة السياحة محليا والترويج لها على الصعيد العالمي.

****محاولة إدراج موضوع التراث الثقافي ضمن برامج التدريس للتعريف بالأجيال والمحافظة عليه خاصة في أطوار التعليم. .**

****التأكيد على ضرورة تفعيل الدراسات العلمية والأكاديمية حول التراث وضرورة تفعيله في المخططات الإنمائية. .**

****ضرورة الاهتمام بتراثنا المادي واللامادي واثمينه والحفاظ عليه. .**

****ضرورة تكوين حقيقي لفئة الشباب في كيفية التعامل مع الأجنبي وتعريفه بالتراث المادي واللامادي للبلاد تشجيعا للسياحة الوطنية والدفع بعجلة الاقتصاد نحو الأمام.**

****ضرورة المشاركة في التكوين الخارجي والاحتكاك مع من لديهم الخبرة في مجال الآثار والتراث بنوعيه، لتبادل الأفكار والخبرات وتعريفهم بالتراث المحلي لإيجاد طرق علمية متطورة للحفاظ على هذا الإرث الثمين.**

****إنشاء جمعيات حماية الممتلكات الثقافية خاصة العقارية منها وتشجيع وتطوير السياحة من خلال التعريف بالمواقع التي تحتوي على الممتلكات الأثرية**

**** ضرورة التعجيل بتعديل القانون 04/98 بما يواكب التطورات المحلية والدولية ، و هذا من خلال تحقيق الواقعية في التشريع والصرامة في التطبيق ، مع التأكيد على ضرورة توحيد العقوبات و الإجراءات المتعلقة بالجرائم الماسة بالممتلكات الثقافية ضمن قانون واحد متعلق بحماية التراث الثقافي.**

****تشديد العقوبات في حق مرتكبي الجرائم الماسة بالممتلكات الثقافية عامة والعقارية خاصة ، إلى جانب التركيز على ضرورة التعديل الكلي لنص المادة 97 من القانون 04/98 المتعلقة بحالة التصرف في الممتلك الثقافي العقاري.**

****ضرورة تطوير التشريعات الوطنية من أجل وضع قواعد أكثر تشددا لحماية الممتلكات الثقافية ، عن طريق إيجاد نوع من التناسب و المرونة بين الجرائم والتعدييات المرتكبة.**

المراجع المعتمدة:

1/ ابن منظور. (2000-2001). لسان العرب ببيروت.

- 2/ أسماء مصطفى. (2014). الموروث الثقافي المادي وغير المادي، مجلة الزمان.
- 3/ ابن منظور. (2001). لسان العرب بيروت.
- 4/ بوشيبة بركة. (2002). شعراء ذوي المنيع الشعبيون. الرغاية الجزائر.
- 5/ بوشيبة بركة. (2002). شعراء ذوي المنيع الشعبيون. الرغاية الجزائر.
- 6/ بوشيبة بركة. (2002). شعراء ذوي المنيع الشعبيون. الرغاية الجزائر.
- 7/ جابر عصفور. (1978). مفهوم الشعر. منشورات دار الثقافة القاهرة.
- 8/ سليم الحلو. تاريخ الموسيقى الشرقية. منشورات دار المكتبة الحياة لبنان.
- 9/ شوقي عبد الحكيم. الشعر الشعبي الفلكلوري عند العرب. دار الحداثة.
- 10/ صالح فلاح. (2010-2011). النهوض بالسياحة في الجزائر كأحد شروط اندماج الاقتصاد الجزائري في الاقتصاد العالمي.
- 11/ عوينات عبد القادر. (2015-2016). الإمكانيات والمعوقات في كل الإستراتيجية السياسية الجديدة للمخطط التوجيهي. أطروحة دكتوراه. ط. 141.
- 12/ علي عفيفي. التراث المادي والمعنوي.
- 13/ الزروني. (1985). شرح المعلقات السبع. ط. 5. مكتبة المعارف.
- 14/ الزروني. (1985). شرح المعلقات السبع. ط. 5. مكتبة المعارف.
- 15/ العربي دحو. الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة.
- 16/ ميشال عاصي. الفن والأدب. مؤسسة نوفل بيروت.
- 17/ موسى سليمان. (1983). الأدب القصصي عند العرب. دار الكتاب. ط. 5.
- 18/ محمد السعيد. الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق.
- 19/ محمود مفلح البكر. (2009). البحث الميداني في التراث الشعبي. دمشق. منشورات وزارة الثقافة السورية.
- 20/ التراث الثقافي المادي المشترك. منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة. مكتب اليونسكو بالقاهرة.
- 21/ population. Superficie et dénitrees/37comunes.au31-12-2009.sur le site officiel de la wilaya de bechar.
- الفاضل خمار ، (2010)، الجرائم الواقعة على العقار، ط. 4. الجزائر، دار هومة.
- عز الدين طباش، (2018)، شرح القسم الخاص من قانون العقوبات، جرائم ضد الأشخاص والأموال، دار بلقيس.

دور الزاوية الزيانية القندوسية في نشر العلم

The role of Zawiya el'ziyaniya Kandoucia in the dissemination of science

ط.د. خلف الله عبد القادر: جامعة طاهري محمد-بشار (الجزائر)، abdelkader.khalfallah@univ-bechar.dz

المخلص

شهدت الجزائر كبقية دول المغرب العربي ودول العالم الإسلامي انتشارا واسعا لظاهرة التصوف، فلا تكاد تخلو منطقة من الجزائر من وجود زاوية، وكان لرجال الدين الصوفية الدور الكبير في نشر مذهبهم الصوفي ببلاد المغرب وخارجه، ومن بين الطرق الصوفية التي كانت بارزة في الجزائر الطريقة الزيانية بالجنوب الغربي الجزائري.

أدت هذه الطريقة دورا كبيرا في نشر التعليم وفي تحفيظ القرآن الكريم وفي تنظيم الحياة وسط المجتمع. فقد أصبحت هذه الزاوية منبرا من منابر العلم يقصده الطلبة وملجأ يلجأ إليه الفقراء والمحتاجون وعابرو السبيل. فصيتها لم ينحصر في مقر الزاوية وضواحيها فقط، بل تعداها ليشمل منطقة الجنوب الغربي من الجزائر، ومناطق أخرى خارج الحدود. الكلمات المفتاحية: الزاوية، الزاوية القندوسية، الصوفية، المخطوط.

Abstract:

Algeria, like the rest of the Maghreb countries and the countries of the Islamic world, witnessed a wide spread of the phenomenon of Sufism. Almost no region of Algeria is devoid of a zawiya. Sufi clerics played a major role in spreading their Sufi doctrine in the Maghreb and abroad. Among the Sufi orders that were prominent in Algeria is the Zayani order in the southwest of Algeria.

This method played a major role in spreading education, memorizing the Holy Quran, and organizing life in society. This zawiya has become one of the platforms of knowledge that students come to and a refuge for the poor, the needy, and the wayfarers. Its faction was not confined to the Zawiya headquarters and its environs only, but also extended to include the southwestern region of Algeria, and other areas outside the borders.

Keywords: zawiya ; zawiya al'kondosiya ; sufism ; manuscript.

مقدمة:

شهدت الجزائر كبقية دول المغرب العربي ودول العالم الإسلامي انتشارا واسعا لظاهرة التصوف، فلا تكاد تخلو منطقة من الجزائر من وجود زاوية، وكان لرجال الدين

الصوفية الدور الكبير في نشر مذهبهم الصوفي ببلاد المغرب وخارجه، ومن بين الطرق الصوفية التي كانت بارزة في الجزائر الطريقة الزيانية بالجنوب الغربي الجزائري، فقد لعبت هذه الطريقة دورا كبيرا في نشر التعليم وفي تحفيظ القرآن الكريم وفي تنظيم الحياة وسط المجتمع. فقد أصبحت هذه الزاوية منبرا من منابر العلم يقصده طلبة العلم وملجأ يلجأ إليه الفقراء والمحتاجين وعابري السبيل.

وقد ارتأيت تسليط الضوء على الطريقة الزيانة بالقنادسة، كونها كانت مصدر إشعاع علمي، ومثلا في التكافل والتضامن الاجتماعيين، فصيتها لم ينحصر في مقر الزاوية وضواحيها فقط، بل تعداها ليشمل منطقة الجنوب الغربي من الجزائر، ومناطق أخرى خارج الحدود.

ومن خلال هذا المقال سأحاول التعريف بهذه الطريقة المنسوبة إلى مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمان بن أبي زيان، وابرار الدور الذي لعبته في نشر الدين والعلم، وتتبع لأهم انجازاتها ونشاطاتها خلال الفترة الممتدة من التأسيس (القرن 17م) إلى الثلث الأول من القرن 19م. وصولا إلى وقتنا الحالي.

وقبل التطرق إلى موضوع دراستنا حول الزاوية الزيانية القندوسية، وجب التعريف بمصطلحي الزاوية والصوفية، وتبيان الدور الذي قامت به في سبيل نشر العلم والدين. يعرف الدكتور عبد العزيز شهي مصطلح "الزاوية" في قوله: "لعل لفظ (الزاوية) في الأصل مأخوذ من الانزواء بقصد العكوف على العبادة، أو على تلقين العلم بعيدا عن دنيا الناس ومشاكلهم اليومية، وهي أيضا رباط المجاهد في سبيل الله وحافظ الثغور". غير أنه في وقتنا الحاضر تغير مفهومها فأصبح هذا المصطلح مرتبط بتحفيظ القرآن الكريم وبتلقين تعاليم الدين الحنيف (شهي، د. تاريخ، صفحة 120).

وتعني الزاوية أو المرابطين في لغة المغرب العربي الطريقة الصوفية ومحلها. (بوالصفصاف، 2009، صفحة 170)

كما أن مصطلح الزاوية تعني أيضا "ركن البناء".

ويعرفها دوماً Daumas عام 1847م: "إن الزاوية هي على الجملة مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة" (شهي، د. تاريخ، صفحة 13)

والزاوية تحتوي على مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الدينية ومبادئ اللغة العربية، كما تحتوي على مصلى وقاعة خاصة بتلاوة القرآن وعلى غرف لإيواء الطلبة الذين يدرسون بها، والضيوف الذين يلجؤون إليها من حجاج وعابري السبيل، ويتواجد بالزاوية ضريح الولي الصالح غالباً ما يكون مؤسسها. (شهي، د. تاريخ، صفحة 16)

أما مصطلح "التصوف" فيعرفه عبد المنعم القاسمي الحسني: "هو ذلك الاتجاه الفكري الداعي إلى إخلاص النية لله في العبادة وتطهير النفس البشرية من الأدران والأمراض الباطنة، الداعي إلى الوصول إلى مقام الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه".

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المراد من التصوف في التعريف هو ذلك التصوف الحقيقي المستمد تعاليمه من الشريعة الإسلامية البحتة القائمة على الكتاب والسنة، ويستثنى منها تلك الانحرافات التي تصدر من بعض الطرق الصوفية الضالة والتي تدعي التصوف. (الحسني، 1427هـ، الصفحات 8-9)

يعرف عبد الرحمان بن خلدون مصطلح التصوف فيقول: "... أصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة". (بن خلدون، 1996، الصفحات 59-60)

أما كلمة "صوفي" في نظر علماء الصوفية فهي مشتقة من كلمة "صوف" وهي دلالة على الفقر وعلى الزهد، والذي تتجلى مظاهره في لبس الصوف، ثم أصبحت كلمة "التصوف" تعني التعبد والخلوة والتجرد من ملذات الحياة الدنيا، والتحلي بمكارم الأخلاق والالتزام بما

شرعه الله سبحانه وتعالى والتي تؤدي إلى سمو روح صاحبها والوصول به إلى درجة الإلهام والغوص في عالم مليء بالأسرار. (شهي، د. تاريخ، صفحة 95)

يحدد شيوخ المتصوفة الأذكار والممارسات التي يقومون بها والتي تميزهم عن غيرهم من المتصوفة، وتدعى هذه الممارسات والأذكار بالطريقة، رغم أن كل الطرق تتشارك وتتشابه في نفس الممارسات إلا أنها تختلف في التفاصيل كعدد الأذكار وأوقاتها. كما تدعى الطريقة "وردا" والذي يعني الدخول في الطريقة وهو بمثابة مذهب أو عقيدة الطريقة، فلا يمكن أن يؤخذ إلا من شيخ الطريقة أو خليفته أو مقدمه، فشيخ الطريقة الصوفية هو صاحب البركة وهو من يمكنه إعطائها لخليفته. هذا الأخير الذي يقف على نشر الطريقة والحفاظ على سمعتها وهو الذي يسعى إلى إدخال المريدين إلى الطريقة واعطائهم الأوراد الخاصة بها، كما أن المقدم يعمل على نشر الطريقة واعطاء الورد للداخلين الجدد فيها والذين يكلفون بجمع أموال الصدقات والزيارات. (شهي، د. تاريخ، صفحة 98)

بدايات ظهور الزوايا ببلاد المغرب

يعود تاريخ ظهور الزوايا ببلاد المغرب إلى القرن الخامس الهجري، والتي كانت في المغرب الأقصى تدعى "بدار الكرامة" أو "دار الضيف"، وفي القرن السابع الهجري (القرن 13م) أطلق عليها لفظ "الزاوية" وكانت مرادفة لكلمة "الرباط"، كانت في بداياتها تتميز بالطابع العسكري في المغرب الأقصى قد ذكر "ابن مرزوق التلمساني" أن الزاوية كانت تعرف بالرباط أو "الخانقاه (أنظر التعليق رقم: 1) لتتحول تدريجيا إلى أماكن ذات طابع ديني وتربوي وتعليمي يقصدها الناس من كل حذب وصوب من أجل تلقي التعليم الديني خاصة وأن الإقامة كانت بها مجانية فكانت مقصدا للمتعلم وللمسافر ولعابري السبيل، وقد كتب ابن مرزوق في عصره عن الزوايا قائلا: "من الواضح أن الزوايا عندنا في المغرب تأوي المتجولين وتطعم المسافرين"، وبذلك أصبحت الزوايا تنافس بذلك تنافس كبريات المدارس الدينية كجامع القرويين بفاس". أما في الجزائر -المغرب الأوسط- فقد تأسست العديد من الزوايا منذ القرن التاسع الهجري (القرن 15م) كالزاوية السنوسية بتلمسان والثعالبية بمدينة الجزائر والملاوية

بقسنطينة، لتنتشر الزوايا بعد القرن العاشر الهجري (القرن 16م). لتزداد بشكل واسع خلال الفترة العثمانية، حتى أصبح كل من اشتهر صيته بين العامة يؤسس زاوية ويسمها على اسمه "زاوية سيدي فلان" (شهري، د. تاريخ، الصفحات 16-17-18)

كانت الزوايا قائمة على الأوقاف، فقد كانت هذه الأخيرة تعتبر مصدر عيش طلاب العلم وعابري السبيل ومصدرا لدفع مرتبات المعلمين، ومنذ أن وطئت أقدام المستعمر الفرنسي أرض الجزائر، استولت الإدارة الفرنسية على معظم أملاك الأوقاف مما أجبر الكثير من الزوايا إلى إيقاف نشاطها الديني والتربوي والتعليمي، وبذلك قل عدد الزوايا مقارنة بفترة الوجود العثماني. وأما الزوايا التي كانت لها أملاكها الخاصة فقد استمرت في نشاطها الديني. (شهري، د. تاريخ، الصفحات 22-23) ومن الذين كانوا السباقين لنشر الصوفية في الجزائر نذكر منهم الشيخ عبد السلام التونسي، أبو مدين الغوث، عبد الرحمان الثعالبي، أحمد بن عبد الله الزواوي، ابراهيم التازي، الإمام السنوسي، ابن زكري، أحمد زروق، أحمد بن يوسف... (الحسني، 1427هـ، صفحة 26)

دور الزاوية ومساهمتها في الحفاظ على اللغة العربية والدين

كان للزوايا الدور الكبير في التعليم وفي نشره باعتبارها مكانا يختص في تحفيظ القرآن الكريم واللغة العربية وعلوم الدين، يقول أحمد توفيق المدني في هذا الصدد: "لبعض الطرق الصوفية بقطرنا هذا (الجزائر) مزية تاريخية لا يستطيع أن ينكرها حتى المكابر، تلك أنها استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظلمات، وعمل فيها رجالها العاملون الأولون على تأسيس الزوايا، يرجعون فيها الضالين إلى سواء السبيل ويقومون بتعليم الناشئين، وبث العلم في صدور الرجال، ولولا تلك الجهود العظيمة التي بذلوها، والتي تقف أمامها موقف المعترف المعجب لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثرا للعربية ولا لعلوم الدين"

ويقول الدكتور عبد الله ركيبي مشيدا بدور الزوايا في الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية الإسلامية في قوله: "بقي نوع آخر من التعليم وهو الخاص بالزوايا، والذي يرجع إليه الفضل في الحفاظ على اللغة العربية وعلومها، وهو تعليم كان يسير على المناهج

القديمة التي تعطي الأولوية لعلوم اللسان والدين... وتتلخص طرق هذا النوع من التعليم في تحفيظ القرآن وقراءته ثم حفظ المتون - متون النحو والصرف والفقه والتوحيد". (شهي، د. تاريخ، صفحة 47)

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الزوايا كانت تختلف عن بعضها البعض من حيث تلقين أصول الدين فهناك من كانت تكتفي بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين مبادئ اللغة العربية، وهناك من كانت إلى جانب التحفيظ والتلقين تقوم بتعليم علوم الدين من فقه وتفسير فكانت بمثابة التعليم العالي في عصرنا الحالي، فكانت بذلك الحصن الحصين للغة العربية وللقرآن الكريم.

فمنطقة زاوية مثلا كان الطلبة في الزاوية الأم "زاوية الشيخ عبد الرحمان اليلولي" يحفظون القرآن الكريم أما ما تعلق بالفقه فكانوا يتعلمونه في زاوية تيفريت نايت الحاج" على يد علماء متخصصون كالعالم الفقيه الشيخ الشريف الإفليسي، والشيخ السعيد الزلالي المشهور بتمكنه واضطلاعه في الفقه، وكذلك الشيخ السعيد الجوري النحوي الذي لقبه الشيخ الإمام ابن باديس بـ "شباب الشيوخ"، والشيخ محمد الطيب الأقروبيسي...

وفي نفس الحال كان ببلاد الصحراء إقليم توات، فقد كان الفقهاء يؤسسون الزوايا من أجل التعبد ويخصصون أماكن للدراسة والتعليم، فكانت مقصدا للطلبة لتلقي علوم الدين بالإضافة إلى حفظ القرآن الكريم، وبعد انقضاء فترة الدراسة كانت تمنح لهم إجازات علمية وأدبية.

مصادر تمويل الزوايا

كانت الزوايا تستمد مصادرها من الأوقاف، ومن الطلبة الذين كانوا يقصدونها باعتبار أن أغلبية الطلبة يأتون من مناطق بعيدة عن مقر سكنهم خاصة إذا عرفت تلك الزاوية بشهرة علمائها ومدرسيها، ففي إقليم توات كان الطالب يحضر معه مؤننته من القمح والشعير والتمر وإذا نفذت يتم إمداده من طرف أسرته إلى غاية نهاية مرحلته الدراسية، كما كان الطالب يدفع مصاريف التعليم لفقيه الزاوية، ويستثنى من ذلك الطلاب الفقراء، فكانت

تخصص لهم منحا دراسية من نتاج أملاك الأوقاف التي تم وقفها من قبل سكان توات. (شهي، د. تاريخ، الصفحات 49-50-51-52)

كانت الأموال التي تجمع من أملاك الأوقاف تصرف على معيشة الطلبة من تغذية وإنارة وتنظيف وتأثيث، وكان جزء منها يخصص لدفع أجور الشيوخ المدرسين بالزاوية. إن قوة تأثير شيخ الزاوية على عامة الناس كان لها الدور البالغ في زيادة مصادر تمويل الزاوية، فكلما كان هذا التأثير الروحي قويا كلما زادت عائدات الزيارات للزاوية وكذا الوعود والنذور التي يقدمها الزوار من الأتباع والمريدين سواء أكانت نقودا أو بضائعا متنوعة، بالإضافة إلى جمع أموال الصدقات والزيارات من قبل طلبة الزاوية من المناطق المجاورة أو حتى البعيدة خاصة أثناء جني الزيتون في فصل الشتاء ووقت حصاد القمح والشعير في فصل الصيف، وموسم إخراج الزكاة في مناسبتي عاشوراء والمولد النبوي الشريف. (شهي، د. تاريخ، صفحة 53)

وبفضل هذه الصدقات والهبات تمكنت هاته المؤسسات الدينية والثقافية من الإنفاق على طلبة العلم وعلى إيواء وإطعام عابري السبيل، فالوقف يعتبر من أهم مظاهر التلاحم والتضامن بين أفراد المجتمع، وهو يقوم على مبدأ شرعي وعلى صيغة قضائية ملزمة، يقول الدكتور عبد العزيز شهي في هذا الشأن: "فالقاضي عادة هو الذي يقوم بتحرير الوقف يكتبه بصيغة معينة، وبحضور الواقف والشهود، مع تحديد قيمة الوقف، وتعيين أغراضه، وكيفية الاستفادة منه، وانتقاله، وعوامل نموه، وتخصيص المشرفين عليه وشروطهم، مع ذكر تاريخ الوقف وتوقيع الحاضرين والقاضي. فالوقف إذن وثيقة شرعية، يستند عليها ويلتزم باحترامها الواقف وأهله والمستفيدون منه وكذلك السلطة المسلمة الشرعية" (شهي، د. تاريخ، الصفحات 54-55-56)

ومن فروع الشاذلية في الجزائر الطريقة الكرزائية في الجنوب الغربي كما يطلق عليها أيضا الطريقة "الأحمدية" المنسوبة إلى مؤسسها الشيخ أحمد بن موسى الحسني مولى كرزاز والذي توفي عام 1016هـ-1608م، اشتهر الشيخ بورعه وبغزارة علمه، تتلمذ على يد شيخه أحمد بن يوسف الملياني والزاوية الأم مقرها القنادسة،

تم احصاء حوالي عشر زوايا منتشرة ما بين تلمسان شمالا إلى القنطرة وتوات جنوبا مروراً بوادي الساور، أما أتباعها فبلغ حوالي ثلاثة آلاف مريد وثمانية وسبعون مقدماً حسب احصاء عام 1897م، من فروعها أيضاً الطريقة الشيعية والتي تنسب سيدي الشيخ عبد القادر بوسماحة المتوفي عام 1023هـ-1615م دفين الأبيض سيدي الشيخ والذي كان مقدماً لشيخو الشاذلية كالشيخ محمد بن عبد الرحمان السهيلي الذي أخذها عن أحمد بن يوسف الملياني، (شهي، د. تاريخ، الصفحات 117-118) وبالقنادسة تأسست الطريقة الزيانية وهي فرع من فروع الشاذلية، على يد الشيخ ابن بوزيان، عُرفت الزاوية الزيانية بأنها كانت ملجأً لعباري السبيل وللغارين من الثوار والمقاومين، كان نفوذها يمتد إلى توات والقنطرة وتيديكلت وإلى الطوارق جنوباً حتى بلغت تمبكتو. (شهي، د. تاريخ، الصفحات 123-125)

التعريف بالطريقة الزيانية:

لعبت الزاوية الزيانية دوراً بارزاً في نشر التعليم في منطقة الجنوب الغربي، منظمة الحياة داخلها، فأصبحت بذلك مكاناً للعلم، ساهم في تخريج الكثير من طلبة العلم والذين كان لهم الدور الكبير في حمل راية العلم وتعليمه ونشره.

أطلق على هذه الطريقة بـ"الزيانية" نسبة إلى مؤسسها الحاج امحمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان، ويُعرف بـ"مولاي بوزيان"، (بوابية، د. تاريخ، صفحة 60) وتسمى بالزاوية القندوسية نسبة إلى بلدة القنادسة (أنظر التعليق رقم: 02)، ولد الشيخ حوالي سنة 1062هـ/الموافق ل1651م بقرية بالتحسانية من قصور بني كومي جنوب قصر تاغيت على وادي زوزفانة.

تتلمذ على يد شيخه مبارك بن عزي العنبري والذي أخذ عنه الطريقة الصوفية، كانت وصية شيخه لتلميذه أن يغسله ويدفنه بعد وفاته، فلبى التلميذ وصية شيخه بعد مماته. (علوي، 2018، صفحة 10) توفي والده وهو في سن مبكرة، توجه الشيخ أبو زيان من قريته (التحاتة) القريبة من القنادسة إلى زاوية سجدماسة حيث كان الشيخ بوبكر بن عزة والذي يعتبر زعيم الطريقة الشاذلية. (سعد الله، 1998، صفحة 504)

أخذ الشيخ أبو زيان عن شيوخه علوم اللغة والنحو والفقه والتصوف، فأسس الشيخ بعد عودته الزاوية الزيانية القندوسية عام 1098هـ/1686م، وقد اكتسبت القنادسة شهرة كبيرة بفضل الطريقة الزيانية التي عملت على نشر مبادئها القائمة على التربية والإصلاح في منطقة الجنوب الغربي للجزائر. (علوي، 2018، صفحة 10)

ساهم في نشر العلم والدين في الجنوب الغربي من الجزائر على الطريقة الشاذلية، درس الشيخ بوزيان على شيخه بوبكر بن عزة القرآن الكريم، وأخذ عنه سر الطريقة الشاذلية قبل وفاته، وبناء على نصيحة شيخه توجه إلى فاس طلبا للعلم ومكث بها ثماني سنوات تتلمذ فيها على يد علماء مشهورين كمحمد بن عبد القادر الفاسي، وعبد السلام جسوس وأحمد بن الحاج، ثم عاد إلى مسقط رأسه بالقنادسة. (سعد الله، 1998، صفحة 505)

منذ عودة الشيخ بوزيان إلى مدينته القنادسة بدأت تظهر عليه الكرامات وأصبح الناس يقصدونه ويعتبرونه قطب من أقطاب أهل التصوف. كان الشيخ بوزيان يختفي فجأة عن أعين الناس لمدة أسبوع ثم يعود إلى الظهور، وكان يركب الحمار أو يمشي حافي القدمين، غذاؤه كان من الأعشاب وأوراق الشجر، وكان يغسل ثيابه بنفسه.

يعتبر الشيخ بن بوزيان السابع والثلاثون في سلسلة الطريقة الشاذلية، ومن بين الشيوخ المذكورين في هذه السلسلة شيخه بوبكر بن عزة ومحمد بن ناصر الدرعي، بالإضافة إلى أبي مدين الغوث وأبي الحسن الشاذلي.

بعد تأسيس الشيخ بوزيان للزاوية الزيانية حفر بها وعلى جوانبها الآبار للسكان ولعابري السبيل فأصبحت هذه الزاوية مقصدا لعدد هائل من الزوار بلغ في بعض الأحيان أربعمائة زائر، يأتونه محملين بالقمح والشعير والشحم والعسل. الأمر الذي جعل من القنادسة تشهد نشاطا وحيوية لم تُعرف لها مثل فأصبحت غنية بعدما كانت فقيرة وأضحت معروفة بعدما كانت مجهولة.

كان الشيخ محل احترام الجميع بما فهمه الولاة، فلم يكن يهايمهم ولم يكن يذهب إليهم، وكان الشيخ بوزيان يذهب بنفسه ليزور أضرحة شيوخه بسجلماصة، كزيارته لقبر شيخه ابن عزة وابن ناصر.

تزوج الشيخ عدة مرات وأنجب الذكور والإناث، وكان طعامه وشرابه وملبسه كعامة الناس فلم يكن يبالي بملذات الدنيا وشهواتها.

عُرف الشيخ بوزيان بملازمته للسبحة فكان يقول عنها "السبحة واللوح إلى خروج الروح"، وكان يقصد باللوح قراءة القرآن الكريم، وكانت طريقة الذكر عنده هي التي أوردتها الشيخ محمد بن يوسف السنوسي في العقيدة الصغرى. (سعد الله، 1998، الصفحات 505-506)

التعليم في الزاوية القندوسية:

لم يختلف التعليم في الزاوية الزيانية القندوسية عن غيره من الزوايا الأخرى، فقد أولت هي الأخرى عناية خاصة للتعليم الديني بدءً بتحفيظ القرآن الكريم وانتهاءً بالتصوف. فقد كان الشيخ ابن أبي زيان يحض على قراءة القرآن وعلى حفظه، وكان يحبب الصبيان في قراءة وحفظ كلام الله تعالى، وكان كلما رأى صبيا يحسن القراءة أو ذكر له أنه حفظ جزء من القرآن، يقبل رأسه ويجزيه بالعتاء، وكان إذا نفر أحدهم من التعليم حبه إلى العودة إليه بشق الوسائل والمغريات.

ولم يكتف الشيخ بتعليم وتحفيظ القرآن الكريم فقط بل أعد العدة لمرحلة ما بعد الحفظ، إذ عمل على تهيئة الظروف والأسباب الملائمة التي تساعد على طلب العلم، فأنشأ لذلك مدرسة كبيرة وجامعا أوسع، وبنى بيوتا لإيواء الطلبة الذين كانوا يفدون من أماكن بعيدة، ووفر لهم ما يكفهم من طعام وشراب، وكان كل يوم أربعاء بعد العصر يأتونه من مدارسهم ومن جوامعهم، ويصنع لهم طعاما خاصا بهم. (الغيتاوي، د. تاريخ، صفحة 172)

كما قام الشيخ بإنشاء مكتبة تضم أعدادا هائلة من الكتب، سواء عن طريق شرائها أو قدمت له كهبة أو عن طريق استنساخها، فكان كلما "ذكر له كتاب من كتب الحديث أو كتاب في التصوف إلا تعلق بحبه حتى يقتنيه أو يستنسخه أو يقرأ عليه وهذا مذهبه".

أمام هذه الظروف ازدهرت الحركة العلمية والثقافية فتوافد الشيوخ والعلماء وطلاب العلم من كل مكان على القنادسة، حتى أضحي الجامع في الكثير من الأحيان لا يتسع لهم. "وبهذه المنجزات يكون الشيخ ابن أبي زيان قد حل محل الدولة وأدى ما كان عليها أن تؤديه إزاء سكان هذه المنطقة في مجال الثقافة والتعليم والتكفل بشؤون الطلبة والمدرسين... فأنشأ مركز إشعاع ثقافي في مستوى يفوق المعهود من قبل في بلاد كير، مركزا استوعب عددا لا يستهان به من الطلبة الراغبين في تحصيل علوم ما بعد حفظ القرآن خصوصا منهم سكان المنطقة الجنوبية الشرقية الذين كانوا في ذلك الزمن يتحملون عناء السفر إلى مراكز: تافيلات أو درعة أو سوس، أو يتخطون الأطلس إلى فاس بقصد التزود." (الغيتاوي، د. تاريخ، صفحة 173)

أهم العلوم التي كانت تدرس بالزاوية:

من بين أهم العلوم التي كانت تدرس بالزاوية الزيانية آنذاك نذكر:

-العلوم النقلية: (الشرعية) التي ليس للعقل فيها دخل ما عدا إلحاق الفروع بالأصول، كالتفسير والقراءات والحديث والفقه والأصول والفرائض والتوقيت واللغة...

-العلوم الأدبية: والمتمثلة في العروض والشعر والإنشاء والخط...

-العلوم التجريبية: وتشمل الطب والصيدلة.

-العلوم البحتة: كالرياضيات والهندسة.

-العلوم العقلية: وبالأخص علم المنطق. (الغيتاوي، د. تاريخ، صفحة 174)

ورغم وجود كل هذه العلوم بالزاوية إلا أنها اقتصر في تدريسها على عدد من العلوم الشرعية والأدبية، كقراءة الطلبة لكتاب القاضي عياض المسمى بالشفا، وكتاب الشمائل، ويقرأون الجامع الصحيح للإمام البخاري، والترمذي، والقسطلاني. ومن التفاسير: كتاب

الخازن وذو الجلالين للإمام السيوطي، مع حضور جزء من شرح التسهيل في علوم التنزيل. وكتاب الخازن، والبيان، والتسهيل لعلوم التنزيل... ومن السير: كتاب سيرة سيد الناس، كتاب جليل، كتاب الأنوار، كتاب الحريفيشي، وكتاب التنوير الكبير. ومن كتب التصوف: بحر الدموع، كتاب الجوز الكبير، وشرح ابن عباد على الحكم، ورسالة الإمام أبي القاسم القشيري، وكتاب الطبقات الوسطى للشيخ عبد الوهاب الشعراني، وكتاب العهود الصغرى له أيضا. أما كتب الفقه: كتاب مختصر الشيخ خليل بن اسحاق، وكتاب ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة، وأرجوزة عبد الواحد بن عاشر. ومن كتب النحو ألفية ابن مالك، وكتاب بن أجروم. (الغيتاوي، د. تاريخ، الصفحات 174-175)

أهم المدرسين بالزاوية:

الشيخ محمد بن أبي زيان: يعتبر الشيخ أول من درس بالزاوية القندوسية باعتباره مؤسسها، فالسنوات التي قضها الشيخ في فاس وفي سجلماسة طلبا للعلم والتي دامت الثماني سنوات، جعلته بأن يكون أهلا للتدريس في زاويته، رغم أن الشيخ لم يحز على شهادات من شيوخه الذين أخذ عنهم العلم، بحكم الظروف التي أجبرته إلى المغادرة نحو بلاده الجزائر.

وبحكم أن الدراسة آنذاك كانت في الغالب تقتصر على العلوم الدينية والأدبية، فإن الشيخ ابن أبي زيان حين أضحي معلما كانت أحب العلوم إليه هي علم التفسير، إذ يقول في ذلك: "أحبتني علم التفسير رأس كل العلوم ويتلوه الحديث النبوي، وقرة عينه سيدي الإمام البخاري"، كما كان من أكثر قراءاته في الفقه: الرسالة، إذ كان يسردها ويستشهد بألفاظها ويعرف قواعدها.

لقد خصص الشيخ وقت لطلبته ومريديه ووقت لربه ووقت لنفسه وعائلته، فكان إذا صلى الصبح اشتغل بالأوراد وبالأذكار إلى أن يصلي صلاة الضحى، (الغيتاوي، د. تاريخ، صفحة 191) ليأذن بعدها إلى الإخوان والزوار بالدخول، وحين يقترب وقت الزوال، يعطي حق نفسه وأهله من نوم وشرب وأكل، إلى أن يصلي صلاة الظهر ويتبعها بالنوافل، ويشرع بعدها في قراءة الحديث إلى صلاة العصر، فإذا خلى من صلاة العصر، رجع للخلوة على حالته الأولى مع

الإخوان والزوار إلى حين وقت صلاة المغرب، فيصلي المغرب ويصلي الرواتب، ويجلس لقراءة الحزب، وبعدها يشرع في قراءة الرسالة وكل ما تعلق من أحكام الشريعة، ودأب على هذا الحال طيلة حياته.

طريقة الشيخ في التدريس:

انتهج الشيخ ابن أبي زيان في تدريسه على طريقة المذاكرة، ففي الطريقة الأولى كان يفسح المجال لطلوبته لمناقشة المسائل والقضايا مبرزاً آراء المتقدمين حولها ومحاولة الترجيح بينها، ويستدل في ذلك في كثير من الأحيان إلى آراء شيخه مبارك بن عزى وشيخه العنبري، وفي هذا يقول أحد طلبته: "... وما تداولنا مسألة من مسائل العلم إلا وأتى بدليل من كلام شيخه سيدي مبارك بن عزى الغري ثم العنبري...". كما كان الشيخ يعتمد في تدريسه على طريقة المناظرة في كثير من الأحيان. (الغيتاوي، د. تاريخ، صفحة 192)

أما عن مؤلفات الشيخ فلم يُنبت له إلا تأليف واحد سماه: "قيود الأسرار في الصلاة على النبي المختار" غير أنه لحد الساعة لا زال مفقوداً، ولعل السبب في عزوف الشيخ عن التأليف يرجع إلى انشغاله بالتدريس والاهتمام بشؤون الزاوية على حساب الكتابة والتأليف.

وعرف عن الشيخ أنه كان محباً للعلم ولأهله فكان يدعو دائماً إلى طلب العلم والحث عليه وكان يوصي طلبته بأن الإنسان لا يكتفي بالعبادة دون العلم ودون التفقه في الدين، وقد قال في ذلك: "من اكتفى بالعلم دون الاتصاف بحقيقته انقطع، ومن اكتفى بالعبادة دون العلم والتفقه خرج، ومن اكتفى بالتفقه دون ورع أغر، ومن قام بما يجب عليه من الأحكام نجا". وقال كذلك: "معرفة الله عزيزة لا تدرك بالعقل بل تقتبس من الشرع...". وقال: "عالم واحد أشد على إبليس من كذا وكذا عابد...". (الغيتاوي، د. تاريخ، الصفحات 193-194)

شيوخ قدموا دروساً بالزاوية:

1- الشيخ علي السوسي: كان الشيخ علي السوسي من أقرب الملازمين للشيخ ابن أبي زيان ومن أخص أصحابه، فقد تولى التدريس بالزاوية بعد مرض الشيخ، وقد ذاع صيت السوسي آنذاك إلى مكناس، إذ كان السلطان المغربي يعرفه ويراسله ويطلب منه القدوم إليه.

2- إدريس المنجرة: والذي كان كثير الزيارات إلى القنادسة آخرها عام 1136 للهجرة، قبل وفاته بسنة، كان يشد إليها الرحال رفقة ركب من أهل فاس. (الغيتاوي، د. تاريخ، الصفحات 195-196)

3- محمد بن عبد الله التلمساني: ويعتبر الشيخ أحد أبرز المدرسين آنذاك بحاضرة تلمسان، إذ كان يشد الرحال رفقة أصحابه من العلماء إلى زاوية القنادسة لزيارة شيخها ابن أبي زيان، إذ جاء في أحد الأيام صحبة أربع وعشرون فقيها من المدرسين بالجامع الكبير بتلمسان.

4- محمد المدعو الدقيوق، والشيخ محمد بن عبد العزيز... وغيرهم من الشيوخ الذين ساهموا في نشر العلم بالزاوية الزيانية القندوسية. (الغيتاوي، د. تاريخ، صفحة 197)

وقد سار الصوفية على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فداوموا على أذكار معينة دون انقطاع، وهو ما يسمى عندهم ب: "الورد" -بكسر الواو- أو "الذكر الفردي". جاء في: "لسان العرب" لابن منظور أن: الورد بالكسر، هو الجزء، يُقال قرأت وردي، والورد: النصيب من القرآن. والورد يُطلق عند الصوفية على أذكار يلقيها الشيخ للمريد، منها الصباحية والمسائية، فيكون وقت المريد مملوء بذكر الله سبحانه وتعالى. (بن قادة، 2014)

وقد كانت للطريقة الزيانية أذكارها الخاصة بها فكان وردها كما ذكره الأستاذ طاهيري مبارك (أنظر التعليق رقم: 03) وهو أحد أحفاد الشيخ أبو زيان: ورد الشيخ سيدي أمحمد بن أبي زيان القندوسي قدس الله سره

الحمد لله هذا ورد الشيخ سيدي محمد-فتح-ابن أبي زيان القندوسي نفعا الله به وبأمثاله، وهو الورد الشاذلي المورود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وهو هذا: "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم (ثلاث مرات)، بسم الله الرحمن الرحيم (ثلاث مرات)، لو أنزلنا هذا القرآن على جبل... إلى آخر السورة، وما تقدموا لأنفسكم من خير... إلى آخر السورة. لبيك لبيك لبيك اللهم ربي وسعديك الخير كله بيدك، ها أنا عبدك الضعيف واقف بين يديك تقول بتوفيقك أستغفر الله (مائة مرة)، وعند رأس المائة تقول الحمد لله (سبع مرات) إن الله وملائكته... إلى تسليما، لبيك كما تقدم وتزيد عند قولك تقول بتوفيقك

ممتثلاً لأمرك ومحبة لنبيك. اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه تسليماً
(مائة مرة)، وعند رأس المائة تقول الحمد لله (سبع مرات)، فأنت لهم إذا جاءتهم ذكراهم فأعلم
أنه لا إله إلا الله، لبيك كما تقدم لا إله إلا الله (ألف مرة)، وعلى رأس كل مائة تقول محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتشهد وتزيد في الذكر إلى آخر الألف، فهذه المفاتيح المروية
عن المشايخ إلى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم انتهى.

وأما الخواتم فهي لا إله إلا الله الملك الحق المبين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
الصادق الأمين (مائة مرة). اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير عدد حروفها
(مائة وتسعة وعشرين مرة). سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم (مائة مرة). اللهم صل
على سيدنا محمد وعلى آله وسلم (مائة مرة)."

انتهى الورد المبارك جعل الله النفع به لما سكه دنيا وآخرة. (طاهيري، 2022)

وظيفة الشيخ بوزيان: وهو عبارة عن دعاء يُقرأ بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

هذه وظيفة الولي الصالح قطب وقته شيخنا سيدي محمد بن أبي زيان رحمه الله
ونفعنا به أمين، تُقرأ بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب وهي: "اللهم صلي على سيدنا ومولنا
محمد صلاة تدفع عنا بها البلاء* لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت
وهو على كل شيء قدير* حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم* بسم
الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم* لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول
الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله* اللهم اجرنا من النار* (مرتين) واجر والدينا من النار ومن
عذاب النار ومن عذاب القبر ومن كل قول وعمل يقربان إلى النار بعفوك وادخلنا الجنة
برحمتك يا حلیم يا غفار يا عزيز يا جبار يا علیم يا ستار اللهم ارزقنا دار الفردوس* اللهم
اسكننا دار الفردوس والنظر إلى وجهك القدوس واحشرنا يا مولنا وإياهم مع النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين وكف عنا أيدي المعتدين وحل بيننا وبين القوم الظالمين
وارزقنا السلامة والعافية والنجاة إلى يوم الدين برحمتك يا أرحم الراحمين برحمتك يا أرحم

الراحمين برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين." (طاهيري، 2022)

تعتبر الطريقة الزيانية التي أسسها الشيخ امحمد بن أبي زيان فرع من فروع الطريقة الشاذلية التي ظهرت في تونس، وكانت مسيرة الشيخ حافلة بالعلم فقد كرس حياته لتعليم علوم الدين وتحفيظ القرآن الكريم وتخرج على يده آلاف الطلبة. (بويابة، د. تاريخ، الصفحات 62-63) وافته المنية عصر يوم الخميس من يوم 11 رمضان 1145هـ/1732م، دفن بعد صلاة المغرب ليلة الجمعة. (علوي، 2018، صفحة 10) ليخلفه ابنه محمد الأعرج والذي ترأس الزاوية إلى غاية وفاته عام 1175هـ. ليستمر أولاده وأحفاده يتوارثون إدارة شؤون الزاوية وينشرون منها التعليم ومبادئ الطريقة الشاذلية. (سعد الله، 1998، صفحة 504)

أضحت الزاوية الزيانية القندوسية مركزا علميا وفكريا بفضل خزانها العلمية التي ضمت بين جدرانها آلاف الكتب والمخطوطات العلمية التي تعود إلى مئات السنين، إذ توافد عليها طلبة العلم من كل حذب وصوب الأمر الذي أنعش الحركة العلمية والثقافية بمنطقة الجنوب الغربي الجزائري. (علوي، 2018، صفحة 10)

ضمت الزاوية عام 1950م حوالي 3000 مخطوطة شملت علوم عديدة (بويابة، د. تاريخ، صفحة 63) مما يدل على حرص الزاوية والقائمين عليها على توفير المؤلفات العلمية لطلبة العلم، (طاهيري، 2022)

يصف الرحالة المغربي أبو العباس الهلالي السجلماسي (1114هـ-1175م) في رحلته المسماة (التوجه إلى بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام) خزانة الزاوية القندوسية وما تحتوية من كتب قيمة ومن اعتناء بها من طرف القائمين على شؤونها قائلا: "... وأدخلاني خزانة الكتب، فطللت بها وبت، ورأيت بها من الكتب جملة مرغوبا فيها، منبئة باعتناء جامعها ومقتنيها..." (الهلالي السجلماسي، د. تاريخ)

الأستاذ طاهيري مبارك وفكرة إنشاء الخزانة الزيانية القندوسية وإعادة إحيائها من

جديد:

تعرضت الخزانة القندوسية للنهب والسرقة والإحراق خلال ثورة التحرير 1954م، ولم يتبق منها إلا القليل من الكتب والمخطوطات، وأمام هذه الجريمة التي اقترفها الاستعمار الفرنسي في حق التراث الثقافي والعلمي للجزائر، قرر أحد أحفاد الشيخ أبي زيان الأستاذ: "طاهيري مبارك" إعادة بعثها وإحيائها من جديد، إذ خصص الأستاذ طاهيري جزء من بيته للخزانة الزيانية، فدأب على جمع ما تبقى من كتب ومخطوطات وبدأ في تنظيفها وترميمها، رفقة أصدقائه من الأساتذة من "بشار" منهم من لا زال على قيد الحياة ومنهم من لقي ربه، بالإضافة إلى مساعدة أساتذة مخبر وهران وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور بوباية عبد القادر والأستاذ رابح سبع. (طاهيري، 2022)

كما كان للوزير الدكتور هيشور دفع قوي ودور كبير في مد يد العون، بتزويده الخزانة بخطين للأنترنيت مما سهل عملية البحث عن الكتب والمؤلفات التي تناولت تاريخ منطقة بشار. يذكر الأستاذ طاهيري أن بعض المخطوطات كانت بغاية الروعة لخطوطها الجميلة والألوان الطبيعية المستعملة فيها، حيث يصل سمك الخط في بعض المخطوطات حجم الأصبع، وحجم المخطوط يصل في بعض الأحيان إلى حوالي المتر طولا ويفوق 50سم عرضا، فقد كان أصحابها يستعملون في ذلك الجلد الرقيق كورق، كما توجد بعض المخطوطات محفورة - ككتب البراي حاليا- تستطيع قراءتها بوضع ورقة تحتها. (طاهيري، 2022)

ويتأسف الشيخ طاهيري مما فعله الاستعمار الفرنسي بإتلافه لجل الوثائق والمخطوطات التي كانت تزخر بها الخزانة، فيقول الشيخ أن بعض المخطوطات وجدت مرمية في العراء والبعض منها تم سرقة ونهبه ووضع بالآرشفيف الفرنسي. وصل إلى 700 مخطوط. (طاهيري، 2022)

وبعد جهد كبير دام سنين من ترتيب وتصنيف وتنظيم اكتست الخزانة حلتها الجديدة ليتم تدشينها من قبل السلطات المحلية بحضور والي الولاية يوم الأربعاء 29 نوفمبر 2006م. (طاهيري، 2022) ومنذ هذا التاريخ أصبحت مسؤولية الأستاذ طاهيري أعظم وأثقل، كيف لا وقد أصبح هو المسؤول عن الخزانة وهو الخادم لها.

مرافق الخزانة الزبانية القندوسية:

تتربع الخزانة الزبانية القندوسية على مساحة 30000 متر مربع (3 هكتارات) وتحتوي

على مرافق عديدة نذكر منها:

1- المرافق المنجزة:

* مكتبة تسخر بمئات الكتب القديمة شملت مختلف العلوم والتخصصات، من كتب الأدب والتاريخ والتراجم والسير والحديث والسيرة النبوية والفقه وأصوله لا سيما الفقه المالكي، كما ضمت المكتبة في جنباتها كتب في علم الكلام والتصوف، وفي الطب وطب الأعشاب، وكذا بعض الكتب في العلوم الأخرى كالرياضيات والكيمياء والمعادن وعلم الاجتماع، بالإضافة إلى أكثر من ألفي (2000) كتاب حديث في شتى العلوم والفنون، خاصة مؤلفات أبناء المنطقة.

* قاعة بها مكتب الاستقبال تعرض بها وثائق وصور لتاريخ منطقة بشار، وذاكرتها الثقافية والفنية والرياضية، وصورا للمستشرقين الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها.

* قاعة للمحاضرة بها رواق يشمل صور ووثائق هامة عن تاريخية وثورية لمنطقة بشار، كما تعرض في هذه القاعة صوراً لمشايخ وزعماء وقادة وعلماء المنطقة والجزائر وشخصياتها البارزة. تستغل هذه القاعة مؤقتاً لإقامة الندوات والمحاضرات الدينية والعلمية.

* قاعة حفظ المخطوطات: تضم أكثر من 200 مخطوط، بالإضافة إلى وجود الآلاف الرسائل والوثائق النادرة والعقود والبيوع يعود بعضها إلى القرن 17 م والتي يفوق عددها 3000 وثيقة. (طاهيري، 2022)

* بها قاعتان واحدة مخصصة للإعلام الآلي والثانية تدرس فيها مختلف العلوم. (علوي، 2018، صفحة 12)

* بها متحف بالطابق العلوي يضم مختلف التحف والمعدات القديمة والأدوات التقليدية. إضافة إلى الرسائل والبحوث والمذكرات التي كتبت عن المنطقة باللغتين العربية والفرنسية. تضم الخزانة مدرسة قرآنية لتعليم وتحفيظ القرآن الكريم.

2- مرافق في إطار الإنجاز:

*مشروع قاعة كبرى للمحاضرات بها طابق أرضي يحتوي على أربع غرف وأروقة ووسط القاعة ومطبخ، وطابق أول به قاعتين، بالإضافة إلى السطح الذي يمكن استغلاله كفضاء للمحاضرات في فصل الصيف، تفوق مساحتها الإجمالية 500 متر مربع، والتي يمكن أن تستوعب حوالي ألف شخص. بلغت نسبة الأشغال بها إلى غاية وقتنا الحالي (2022-11-19) حوالي 90%.

3-مرافق قيد الإنشاء:

*قاعة للرقمنة –وهي عبارة عن هيكل فقط-تستغل مستقبلا في رقمنة كل الوثائق والمخطوطات المتواجدة بالخزانة خشية تلفها أو تعرضها إلى السرقة والنهب، وكذا بهدف تسهيل استخدامها من قبل طلبة العلم وكل المهتمين بالبحث العلمي.

*مخبر متعلق بمواد البناء التقليدية والتقنيات المستعملة في البناء والهندسة المعمارية الطينية والهدف من انشاء هذا المخبر جعل الخزانة مصدر دخل.

*تخصيص مساحة لبناء مسجد وهو لا زال كمشروع لم ير النور. (طاهيري، 2022)

أهم نشاطات الخزانة الزيانية:

1-تجديد فهرسة مخطوطات الخزانة: دأب القائمون على شؤون الخزانة الزيانية وعلى رأسهم الأستاذ الطاهري مبارك في محاولة احياء هذه المخطوطات من خلال وضعها تحت تصرف الأساتذة الباحثين من جزائريين وأجانب بغية تحقيقها وإعادة طبعها. ونذكر منها:

أ-المخطوطات التي تم تحقيقها وطبعها:

*رحلة الوزير في افتكاك الأسير لمؤلفه محمد الغساني الأندلسي، من تحقيق الدكتور نوري الجراح من دولة الإمارات العربية المتحدة طبع سنة 2002م.

*كتاب: الاكتفاء في أخبار الخلفاء لمؤلفه ابن الكردبوس، تحقيق الأستاذ الدكتور عبد القادر بوباية من جامعة وهران-الجزائر.

*كتاب في الفقه المالكي لابن سلمون، تحقيق الدكتور الحبيب رزاق من جامعة تلمسان-الجزائر.

*كتاب: شراب أهل الصفا في الصلاة على المصطفى لمؤلفه محمد بن القاسم القندوسي، تحقيق الأستاذان عبد الله حمادي الإدريسي وخونا أحمد محمود الجكني، طبع عام 2008م.
*مخطوط الرحلة الهلالية، دراسة وتحقيق محمد بوزيان بن علي طبع سنة 2012م.

*مخطوط: منهل الظمان ومزيل الهموم والكروب والأحزان في كرامة شيخنا العارف بالله سيدنا الحاج محمد بن أبي زيان لمؤلفه الشيخ علي بن عبد القادر التازي، تحقيق عبد الحميد نوقال، طالب ماستر، إشراف الدكتور علوي مصطفى.

ب-المخطوطات التي حُقت وهي في طريق الطبع:

*المناقب المعزية في مآثر الأشيخ الكرزانية، للشيخ محمد المدعو بن عبد الكريم بن شيخ زاوية كرزاز المتوفى عام 1245هـ/1829م، تحقيق الدكتور مجدوب موساوي من جامعة سعيدة-الجزائر.

*مخطوط في الرياضيات يحتوي على المساحات والمثلثات والجداول الحسابية...الخ.

2-النشاطات الثقافية للخزانة الزيانية:

تقيم الخزانة الزيانية نشاطات ثقافية متنوعة كإقامة احتفالات بمناسبة المولد النبوي الشريف، وندوات فكرية ومحاضرات طوال أيام شهر رمضان الكريم من طرف أساتذة وباحثون أكاديميون من مختلف التخصصات. وفي كل جمعة بعد صلاة العصر تقام فيها جلسة علمية يشرف على تنشيطها الدكتور عبد الحميد زلافي يتدارس فيها السيرة النبوية الشريفة.

وقصد التعريف بالخزانة الزيانية القندوسية محليا ودوليا تم طبع مطوية بعدة لغات على غرار اللغة العربية اللغات الأجنبية كاللغة الفرنسية والانجليزية والاسبانية. كما أنشأت الخزانة صفحة خاصة بها على مواقع التواصل الاجتماعي الفايسبوك تحت اسم:

(Khizanazania Kenadsa)، وتعكف حاليا الخزانة على إنشاء مجلة علمية محكمة خاصة بها. (علوي، 2018، الصفحات 15-16)

الغاية من تأسيس الخزانة الزبانية:

لعل أبرز الأهداف وراء إنشاء وتأسيس هذه الخزانة: (طاهيري، 2022)

1. محاولة انقاذ ما سلم من كتب ومخطوطات كي لا تصبح عرضة للتلف والزوال.
 2. الحفاظ على الإرث المادي لمنطقة بشار من كتب ومخطوطات، والتي تعتبر ثروة ثقافية لا تقدر بثمن.
 3. إعادة إحياء المخطوط من خلال وضعه تحت تصرف الباحثين والأكاديميين بغية تحقيقه وإعادة طبعه من جديد.
 4. الاستفادة العلمية لطلبة العلم وللمهتمين في شتى التخصصات.
 5. جعل من الخزانة منبرا علميا وصرحا ثقافيا يُسمع صيته محليا ودوليا.
 6. الاهتمام بتاريخ منطقة الجنوب الغربي باعتبارها جزء لا يتجزأ من تاريخ الجزائر.
 7. محاولة إحياء المناسبات الوطنية الدينية والثقافية والعلمية.
- فهارس مخطوطات الخزانة الزبانية القندوسية:

تحتوي الخزانة على 207 مخطوطا تختلف حالتها من مخطوط إلى آخر فهناك مخطوطات لا زالت في حالة جيدة وهناك مخطوطات حالتها متوسطة، كما أنه توجد مخطوطات متضررة نتيجة العوامل الطبيعية والبشرية. بعضها مكتمل وبعضها ناقص. وقد تعمدت ذكر عناوين المخطوطات الموجودة على مستوى الخزانة كي أسهل على الأكاديميين وعلى الأساتذة الباحثين والمهتمين بالمخطوط سواء من داخل الجزائر أو من خارجها بمعرفة ما تحتويه الخزانة من عناوين، وكي أجنبهم عناء التنقل إليها، أملا في أن يجدوا فيها مبتغاهم، لعلمهم يقومون بدراستها وتحقيقها وطبعها بغية الاستفادة منها بإعادة بعثها من جديد.

وهي مرتبة ومصنفة ومفهرسة حسب كل تخصص، واكتفيت بوضع الفهارس الخاص بالتصوف وفهرس التراجم والسير.

-فهارس التصوف

الرقم	عنوان المخطوط	المؤلف	تحت رقم
108	كتاب الرموز ومفتاح الكنوز	الشيخ الإمام العلامة عزالدين بن الشيخ الإمام سي عبد السلام بن غانم المقدسي	تص 01/ 107
109	كتاب الغريب المنتقى من كلام أهل التقى	الفقيه القاضي أبو الحسن بن مالك	تص 02/ 108
110	شجرة الشيخ سيدي احمد بن موسى دفين الزاوية بكرزاز	مجهول	تص 03/ 109
111	نبذة عن حياة الشيخ مولاي عبد الله الرقاني 1039	الشيخ محمد بن مصطفى بن عمر بن محمد بن الحاج اعمر الرقاني الكونتي	تص 04/ 110
112	البحر المورود في المواثيق والعهود	الشيخ عبد الوهاب بن احمد بن علي بن احمد مولاي عبد الله الزغلي سلطان تلمسان وصاحب العارف بالله أبي مدين الغوث	تص 05/ 111
113	فتح المنان في سيرة الشيخ بن أبي زيان	الشيخ عبد الرحمن بن محمد مزيان اليعقوبي	تص 06/ 112
114	مجهول "وهو فيما يبدو شرح لقصيدة في التصوف والاعتقادات »	مجهول	تص 07/ 113

115	سلسلة سر الله المصون المنسوب للشيخ سيدي احمد بن موسى	محمد بن عبد الكريم الكرزازي (كان حيا عام 1297 هـ)	تص 08/ 114
116	تاريخ الشيخ بن عبد الكريم المغيلي وشجرته	الطيب بن عبد الله بن سالم بن عبد الله البلبالي	تص 09/ 115
117	قصيدة الأنوار بالتوسل للمشايخ الأبرار	الشيخ المكي بن امبارك بن الموفق بن الطاهر بن احمد البدوي الزيري (1296 هـ - 1878 م)	تص 10/ 116
118	كتاب جامع يتكلم عن بعض منامات الصالحين، وأبواب تخص الموت وسكراته وحياة البرزخ	مجهول يقول في الكتاب: " يقول عبد الحق ... "ربما هو اسم المؤلف	تص 11/ 117
119	مجهول "كتاب في التصوف ربما هو شرح الحكم العطائية"	مجهول "ربما هو إيقاظ الهمم في شرح الحكم العطائية لابن عجيبة"	تص 12/ 118
120	تحفة الاخيار في فضل الصلاة والسلام على المختار	لا يوجد	تص 13/ 119
121	شرح للحفيظة المعروفة بحزب البحر المنسوب للشيخ الإمام سيدنا أبي الحسن الشاذلي أو (شرح حزب الفلاح للشاذلي)	الشيخ احمد بن احمد بن محمد البرنوسي ثم الفاسي المعروف بزروق	تص 14/ 120
122	فتح المنان في سيرة الشيخ محمد بن أبي زيان	الشيخ عبد الرحمن بن محمد مزيان اليعقوبي	تص 15/ 121
123	منهل الظمآن ومزيل الهموم والكروب والأحزان في ذكر كرامات	الشيخ علي بن عبد الرحمن التازي الفاسي	تص 16/ 122

		شيخنا العارف بالله سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان	
124	مجهول (يتكلم في تزكية النفوس وأدائها وبعض وصايا الرسول)	مجهول	تص 17 / 123
125	تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام أو شفاء الأسقام ومحو الآثام في الصلاة على خير الأنام	عبد الجليل بن محمد بن احمد بن عظم المرادي القيرواني	تص 18 / 124
126	شراب أهل الصفا في الصلاة على النبي المصطفى أو طريق المعراج إلى سيرة صاحب التاج أو براق القلوب إلى بساط المحبوب	أبو عبد الله محمد بن القاسم القندوسي نزيل فاس (ت 1278 هـ / 1861 م)	تص 19 / 125
127	كتاب المباحث الأصلية في البحث عن الطريقة الصوفية	الشيخ ابن البنا السرقسطي	تص 20 / 126
128	طهارة الأنفاس والأرواح الجسمانية في الطريقة الزيانية الشاذلية المتمسكة بالشريعة المطهرة المحمدية	محمد المصطفى بن الحاج البشير القندوسي (ت 1360 هـ / 1941 م)	تص 21 / 127
129	منهل الظمان ومزيل الهموم والكروب والإحزان في كرامات قطب الزمان شيخنا سيدي محمد	الشيخ علي بن عبد الرحمن التازي 1099 هـ -- 1206 هـ	تص 22 / 128

		بن عبد الرحمن بن أبي زيان القندوسي	
130	وصية الشيخ سيدي احمد بن موسى الكرزازي	الشيخ سيدي احمد بن موسى دفين الزاوية الكبيرة بكرزاز (1013 هـ 1604 م)	تص 23/ 129
131	الشجرة في تاريخ وفاة الشيخ سيدي احمد بن موسى	الطالب محمد البكري عيساوي (ت 1975 م)	تص 24/ 130
132	شجرة نسب التحقيق من سيدي عبد القادر بن محمد إلى أبي بكر الصديق	مجهول	تص 25/ 131
133	رموز الشيخ سيدي احمد بن موسى	مأخوذة من وصف الشيخ أبي زيد سيدي عبد الرحمن بن سيدي محمد بن سيدي احمد بن موسى	تص 26/ 132
134	المناقب المعزية في مآثر الأشياخ الكرزازية	الشيخ محمد بن عبد الكريم بن سيدي محمد الكرزازي (كان حيا سنة 1879 م)	تص 27/ 133
135	المناقب المعزية في مآثر الأشياخ الكرزازية	الشيخ محمد بن عبد الكريم بن سيدي محمد الكرزازي (كان حيا سنة 1879 م)	تص 28/ 134
136	المناقب المعزية في مآثر الأشياخ الكرزازية	الشيخ محمد بن عبد الكريم بن سيدي محمد الكرزازي (كان حيا سنة 1879 م)	تص 29/ 135

137	المناقب المعزية في مآثر الأشياخ الكرزاية	الشيخ محمد بن عبد الكريم بن سيدي محمد الكرزاوي (كان حيا سنة 1879 م)	تص 29/ 136
138	المناقب المعزية في مآثر الأشياخ الكرزاية	الشيخ محمد بن عبد الكريم بن سيدي محمد الكرزاوي (كان حيا سنة 1879 م)	تص 29/ 137
139	نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير	الشيخ الفقيه محي الدين سيدي محمد بن يوسف السنوسي ألف سنة 865 هـ	تص 32/ 138
140	فتح مفرج الكرب	الشيخ أبو يحيى زين الدين زكريا بن محمد بن احمد الأنصاري	تص 33/ 139
141	مجموعة كتب في التصوف	لا يوجد	تص 34/ 140
142	عذراء الوسائل وهودج الرسائل	أبو العباس احمد بن عبد الله بن القاضي بن أبي محلي العباسي	تص 35/ 141
143	منظومة المنفرجة	الإمام العلامة أبو الفضل يوسف بن محمد التوزري الشهير بابن النحوي	تص 36/ 142
144	القصيدة السينية المسماة بالنفحات القدسية لابن باديس وشرحها لابن الحاج	ابن الحاج	تص 37/ 143

145	بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي احمد بن يوسف الراشدي النسب والدار	العلامة أبو عبد الله ممد بن محمد قاضي القلعة بن احمد بن علي الصباغ القلعي	تص 38/ 144
146	فتح المنان في سيرة الشيخ ابن أبي زيان	عبد الرحمن مزيان اليعقوبي	تص 39/ 145
147	قواعد الطريقة بين الجمع بين الشريعة والحقيقة	احمد بن احمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي أبو العباس زروق	تص 40/ 146
148	تحفة المريد	احمد بن احمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي ابو العباس زروق	تص 41/ 147
149	منهاج السالكين	سيد الحاج بلقاسم بن الحسين بن عمر	تص 42/ 148
150	كتاب كشف الحجاب	سيدي عبد الوهاب الشعراني	تص 43/ 149
151	كتاب رسالة موازين الرجال	أبو المواهب عبد الوهاب الشعراني	تص 44/ 150
152	المواقف	الأمير عبد القادر	تص 45- 151/48 154
153	المواقف	الأمير عبد القادر	تص 46- 152/49 155

154	المواقف	الأمير عبد القادر	تص 47- 153 / 50 156
155	مناقب الصالحين	غير مذكور	تص 51/ 157
156	منهل الظمآن ومزيل الهموم والكروب والأحزان	الحاج علي بن عبد القادر التازي	تص 52/ 158
157	منهل الظمآن في كرامات ابن أبي زيان	الشيخ علي بن عبد الرحمن التازي	تص 53/ 159
158	شجرة وأذكار السيد الشيخ عبد القادر الجيلالي	الحاج محمد بن أحمد المغربي	تص 54/ 160
159	غير موجود (عبارة عن اذكار وادعية)	غير موجود	تص 55/ 207
160	غير موجود (عبارة عن اذكار وادعية)	غير موجود	تص 56/ 208
161	دليل الخيرات	الشيخ الجازولي	تص 57/ 209
162	غير موجود (عبارة عن أذكار وأدعية)	غير موجود	تص 58/ 210
163	حرز الحروز وكنز الكنوز (دليل الخيرات)	غير موجود	تص 59/ 211

فهارس التراجم والسير

الرقم	عنوان المخطوط	المؤلف	تحت رقم
184	نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات	العلامة الشيخ مولاي احمد الطاهر بن عبد المعطي السباعي الادرسي الحسني (ت 1399 هـ)	تا- تروسر 181/01
185	التوجه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام	العلامة أبو العباس احمد بن الشيخ بن عبد العزيز بن الرشيد الهلالي السجلماسي (ت 1175هـ/ 1761 م)	تا- تروسر 182/02
186	رحلة العياشي الصغرى او تعداد المنازل الحجازية او التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو إليه الضرورة من طريق الحجاز	العلامة أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي (1073 هـ - 1090 هـ)	تا - تروسر 183/03
187	جزء من مخطوط الرحلة الحجازية الكبرى (الجزء المتعلق ببشار)	العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي (ت 1239 / 1823 م)	تا - تروسر 184/04
188	نقل الروات عن من أبدع قصور توات	العلامة محمد بن عمر بن محمد بن احمد الحبيب بن محمد بن المبروك الجعفري نسبا التواتي البوداوي منشأ ودارا	تا - تروسر 185/05
189	ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار وما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار	الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني	تا - تروسر 186/06

190	ما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار	الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني	تا - تروسر 187/07
191	كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء	الإمام عبد الملك بن كردبوس التوزري	تا - تروسر 188/08
192	كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء	الإمام عبد الملك بن كردبوس التوزري	تا - تروسر 189/09
193	رحلة الوزير في افتكاك الأسير	الغساني	تا - تروسر 190/10
194	كتاب الجمان في أخبار الزمان رحلة إلى دار الإحسان	مجهول	تا - تروسر 191/11
195	خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى	الإمام نور الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد بن علي الحسيني السمهودي	تا - تروسر 192/12
196	كتاب في التاريخ (معركة اليمامة - فتوح الشام)	غير موجود	تا - تروسر 193/13
197	البيسط في أخبار تمنطيط	محمد بن الطيب بن الحاج عبد الرحيم التمنطيطي التواتي	تا - تروسر 194/14
198	كتاب الرحلة	عبد الكريم بن محمد بن أبي محمد التمنطيطي التواتي	تا - تروسر 195/15
199	الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية	عبد القادر بن أبي حفص بن عبد الرحمن بن عبد القادر	تا - تروسر 196/16
200	رحلة حجية	أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن معروف	تا - تروسر 197/17

المصدر: فهرس مخطوطات الخزانة الزبانية القندوسية، القنادسة-بشار.

خاتمة

وفي الأخير يمكن القول بأن الطريقة الزيانية التي تأسست بالقنادسة استطاعت بفضل شيخها امحمد بن أبي زيان وأولاده وأحفاده أن تتحول زاويتها إلى منبر للتكافل الاجتماعي ومركزا إشعاع علمي بامتياز، الامر الذي ساهم بشكل كبير في نشر العلم والدين والمحافظة على الهوية وعلى الشخصية الجزائرية الإسلامية في المنطقة، من خلال تعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم ودراسة سنة نبيه الكريم، فكانت بذلك الحصن المنيع للإسلام وللمسلمين.

فخزانتها وما تحتويه من كتب ومخطوطات نفيسة في مختلف العلوم والتخصصات لا سيما علوم الدين واللغة، والتي بلغ عددها 207 مخطوط مرتب ومفهرس وحوالي 100 مخطوط قيد الفهرسة، وبفضل ما لقيته هذه الخزانة من اهتمام القائمين عليها - أولهم الشيخ طاهيري مبارك - من إقامة للنشاطات العلمية والثقافية والفكرية، على مدار السنة، كل هذا جعلها محل اهتمام الباحثين الأكاديميين والمثقفين من داخل الجزائر وخارجها، كما أنها أصبحت فضاء لطلبة العلم ومزارا للمسؤولين ولشخصيات مثقفة وطنية وعالمية.

كشف نقاط لطالب بالزاوية الزيانية القندوسية عام 1366هـ/1946م

٣٦
 اسم الله الرحمن الرحيم واصل الدعاء سجدنا بحمدك وواله وحجبه
 السنة العارضية بالادرسية الزيانية الفسوسية
 تحت استمارة ربيعة الشيخ الامير سبيح مكتبة الرحمان الرحيم
 يوم (١٠) من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٦٦ هـ الموافق لـ ١٣/٠٩/١٩٤٦ م
 في محلة طرقات منارة البهية في محلة الجرومية والكتايب الاولى
 التوحيد والتمهيد من مشقة المعبر عن الضرر من علوم الخليل
 وهذه شهادة امتحان في علم الفقه الاسلامي
 انظر على الامام الاتي بيانها كما يشاء

١	الانشاء	١	وذلك من اجله اخذ (٨) من بين (٩)
٢	التوحيد	٢	مع الشفاء الجليل من لحنه الامتحان الاتي
٣	التمهيد	٣	امضاءاتهم ولبسوا حياطينا حاررت بالفساد
٤	العربية	٤	يوم (٢٠) من شهر (ربيع الثاني) سنة ١٣٦٦ هـ
٥	الاجل	٥	
٦	الاخلاق	٦	امضاء عبد الله بن ابي عبد الله البيلال
٧	المواظبة	٧	امضاء مبارك بن الهادي
٨	جميع ذلك	٨	امضاء عن محمد
٩	١٤٠	٩	امضاء عن محمد
			امضاء مجازة

المصدر: وثيقة قدمت من قبل صاحب الخزانة السيد: طاهيري مبارك

نشاطات الزاوية الزيانية خلال شهر رمضان المعظم لعام ١٤٤٦ هـ / ٢٠٢٥ م




الزاوية الزيانية الشاذلية
تنظم
الطبعة الثالثة لمجالس النفحات الرمضانية
الدعوة عامة

بمناسبة شهر رمضان المبارك 1446 هـ / 2025 م
 مشيخة الزاوية الزيانية القندوسية الشاذلية تنظم
 مجالس النفحات الزيانية الرمضانية
 الطبعة الثالثة

الاثنين 3 رمضان 1446 هـ / 3 مارس 2025 م محاضرة « السينات الجارية » تقديم أ.د.
 بلحسن عبد الرحمن

الخميس 6 رمضان 1446 هـ / 6 مارس 2025 م محاضرة « الرابط بين الصيام و الغذاء »
 تقديم د . موساوي ندير

السبت 8 رمضان 1446 هـ / 8 مارس 2025 م محاضرة بعنوان « مسألة التنزيل بين
 الشريعة و القانون » تقديم الأستاذ عباسي الحبيب

الخميس 13 رمضان 1446 هـ / 13 مارس 2025 م محاضرة بعنوان « الوقاية من
 الأوبئة » تقديم
 د . بشيري محمد

السبت 15 رمضان 1446 هـ / 16 مارس 2025 م محاضرة بعنوان « قراءة في كتاب
 « التأويل الحدائي للتراث للمفكر ابراهيم السكران
 تقديم أ.د فقيحي محمد الكبير

الخميس 20 رمضان 1146 هـ / 20 مارس 2025 م محاضرة بعنوان « شخصيات من
 « تراث القنادسة محمد بن أبي القاسم القندوسي و أسرار الخط الصوفي
 تقديم أ . بصري محمد

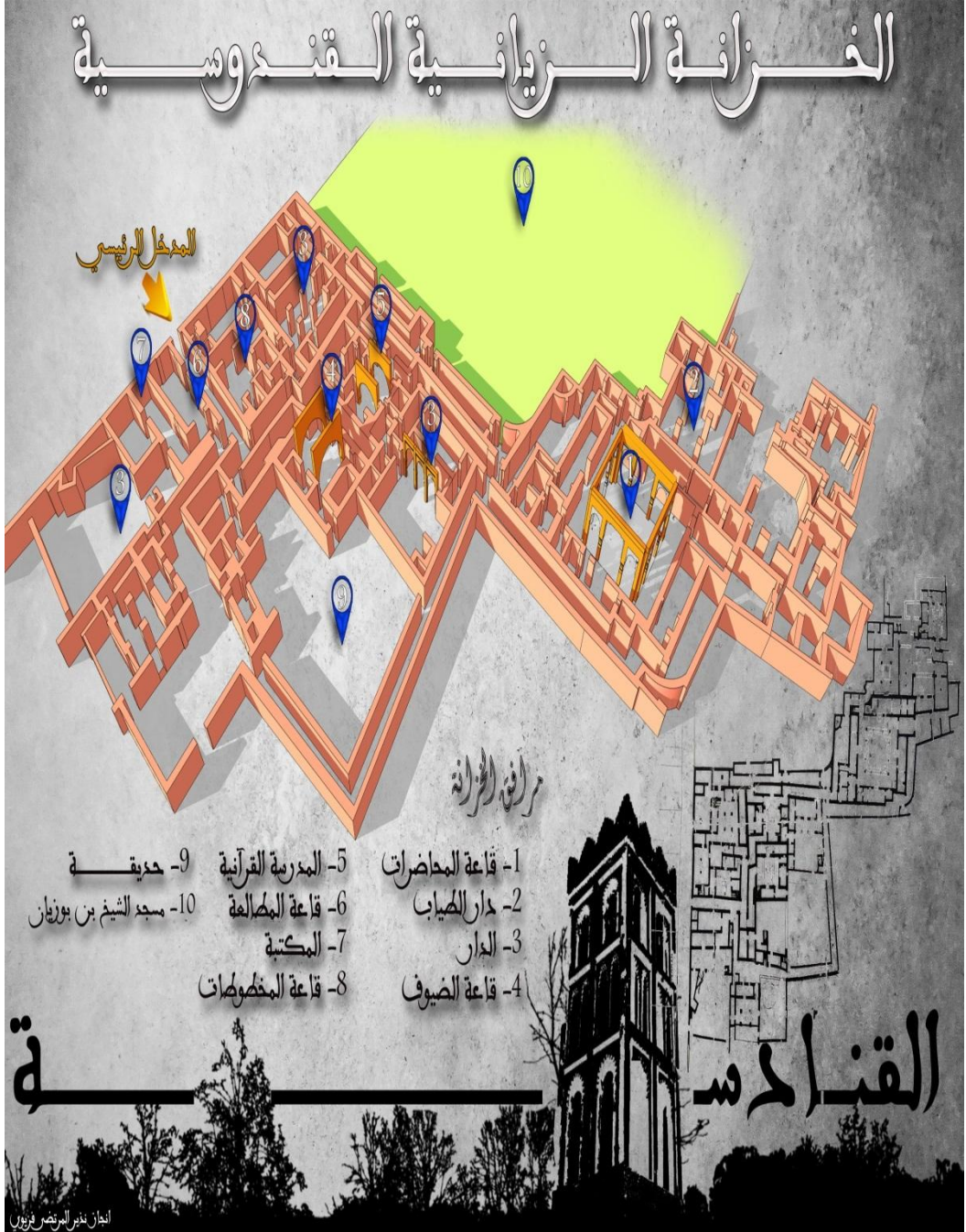
السبت 22 رمضان 1446 هـ / 22 مارس 2025 م محاضرة بعنوان « رقمنة المخطوط
 تقديم أ.د علوي مصطفى

الجمعة 28 رمضان 1446 هـ / 28 مارس 2025 م محاضرة بعنوان « المصطلح في
 القرآن الكريم » تقديم أ.د تحريشي محمد

ملاحظة : المحاضرات ستعقد بمقر الزاوية الدويرية بعد صلاة التراويح

المصدر: إعلانات الخزانة الزيانية

تصميم: يوضح مرافق الخزانة الزبانية القندوسية



المصدر: وثيقة قُدمت من طرف صاحب الخزانة الشيخ طاهيري مبارك.

التعليقات والشروح:

التعليق رقم 01: الخانقاه: مصطلح كان يطلق بصفة خاصة على المنشآت الصوفية.

التعليق رقم 02: القنادسة: إحدى دوائر ولاية بشار الواقع جنوب غرب العاصمة الجزائر بحوالي 1000 كلم، وهي منطقة صحراوية تتميز بواحة النخيل، وبعض العيون والأودية مثل وادي قبر الذي بني عليه سد جرف التربة (35 كلم غرب القنادسة)، وهي منطقة ضاربة في القدم ويتجلى ذلك في الرسومات الحجرية، والقبور التي تعود إلى ما قبل التاريخ، إضافة إلى بعض المستحاثات والأدوات الحجرية.

التعليق رقم 03: طاهري مبارك: ولد في القصر القديم بالقنادسة عام 1963 م، التحق بالمدرسة الابتدائية خربوشي لحسن، وبعد انجازه لمرحلة الابتدائي انتقل إلى الطور المتوسط بمتوسطة القنادسة، وبعدها انتقل ثانوية العقيد عثمان لإتمام مرحلته الثانوية، نال فيها شهادة البكالوريا عام 1983 م، ليكمل دراسته الجامعية بجامعة وهران في تخصص هندسة مدنية تخرج منها عام 1987 م بشهادة ليسانس، ليتوظف بعدها في سلك التعليم الثانوي بشار كأستاذ في مادة الرياضيات عام 1988 م. وهو صاحب فكرة انشاء الخزانة الزيانية القندوسية. الحوار الذي أجريناه مع الأستاذ: طاهري مبارك صاحب ومسؤول الخزانة، بتاريخ يوم السبت: 19-11-2022، على الساعة 18:00 بمقر الخزانة.

قائمة المراجع والمصادر:

- 1- أبو العباس أحمد بن الشيخ بن عبد العزيز الرشيد الهلالي السجلماسي. (د. تاريخ). التوجه لبیت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام. مخطوط بالخزانة الزيانية القندوسية تحت رقم: تا- تر و سر 01/181. القنادسة-الجزائر.
- 2- أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (الإصدار ط1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- 3- حورية بن قاده. (02 04 2014). مركز الإمام الجنيدي للدراسات والبحوث الصوفية. تاريخ الاسترداد 02 09 2022، من <https://www.arrabita.ma/blog>
- 4- عبد الرحمن بن خلدون. (1996). المقدمة (المجلد 3). (أ. م كاترمير، المحرر) بيروت: مكتبة لبنان.
- 5- عبد القادر بوياية. (د. تاريخ). الخزانة الزيانية القندوسية نموذج محلي للحفاظ على التراث الوطني. المجلة الجزائرية للمخطوطات، 60.
- 6- عبد الكريم بوالصفصاف. (2009). جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945 (الإصدار ط1). الجزائر: عالم المعرفة.
- 7- عبد المنعم القاسمي الحسني. (1427 هـ). أعلام التصوف في الجزائر-منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى (دراسة احصائية تحليلية) (الإصدار ط1). الجزائر: دار الخليل القاسمي.
- 8- عبد العزيز شبي. (د. تاريخ). الزاوية والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر. الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.
- 9- مبارك طاهري. (19 11 2022). (عبد القادر خلف الله، المحاور) الجزائر، القنادسة-بشار.
- 10- مصطفى علوي. (12 2018). الخزانة الزيانية القندوسية ودورها في الحفاظ على التراث المحلي. المجلد 04 (العدد 08)، الصفحات 10-16.
- 11- مولاي التهامي الغيتاوي. (د. تاريخ). منجد الولهان في معرفة ومآثر سيدي محمد بن أبي زيان. الجزائر: دار الهدى.

قصور الجنوب الغربي من خلال الكتابات والتقارير الفرنسية (قصر بوسمغون أنموذجاً)

The ksours of southwestern Algeria through French reports Ksar of boussamghoune As Model

د. بكارة بن عامر: جامعة تمنغاست (الجزائر)، bekkarabenameur@univ-tam.dz

ملخص:

عمل الجيش الفرنسي أثناء توغله نحو الجنوب الجزائري على تدوين كل ما رأت عينه أو وقعت عليه يده بل حتى كل ما سمعه فيقدر ما كان دقيقاً في توثيق المعلومة لأهدافه العسكرية فقد حرص كذلك على وصف ما كان يصادفه خاصة عمارة القصور الصحراوية وطرق بنائها التي لم يتوقف عندها بل جاءت في أغلب تقاريرهم العسكرية في حالتها المزرية حسب رأي البعض منهم وينمط معماري محلي أصيل لم يفهمه الكثيرون، غير أن ما قدموه في تلك الفترة يحمل بين طياته الكثير من المعلومات تؤرخ لهذه المباني والمنشآت الدينية، المدنية والعسكرية والتي اختفى بعضها أما البعض الآخر فقد أصبح مهجوراً وركاماً، ناهيك عن الروايات الشفهية التي دونها الفرنسيون عن فكرة تأسيسها ونمط معيشة ساكنيها، مما أتاح للكثير من الباحثين والمرممين العودة إليها والاستفادة منها.

الكلمات الدالة: قصر، صحراء، واحة، تقارير، البيض.

Abstract:

The French army, during its incursion into southern Algeria, worked to write down everything that it saw or that its hand fell on, and even everything that it heard. As much as it was accurate in documenting the information for its military goals, it was also keen to describe what it encountered, especially the architecture of desert ksours and the methods of building it, which it did not stop at. Rather, most of their military reports came in their miserable condition, according to the opinion of some of them, and with an authentic local architectural pattern that many did not understand. Abandoned and rubble, not to mention the oral accounts written down by the French about the idea of its establishment and the lifestyle of its inhabitants, which allowed many researchers to return to it and benefit from it.

Keywords: ksours, desert, oasis, reports, el bayadh.

1. مقدمة:

تعد التقارير العسكرية والدراسات التي أعدها الفرنسيون بعد احتلال الجزائر، من المصادر التي يُستعان بها في كثير من البحوث، لاسيما في البحث الأثري كونها تطرقت لمباني ومواقع قد

اندثرت أو غُيّرت معالمها وأخرى مجهولة من بينها القصور الصحراوية، التي سنحاول في هذا المقال جمع أهم الدراسات الفرنسية التي تحدثت عن عمارة القصور بالمنطقة مبرزين بذلك الجانب المعماري، وما مدى حقيقة المعلومات وأهميتها؟ وكيف جاء وصف الفرنسيين لهذا النوع من العمارة؟ خاصة وأنها ارتبطت بعامل معرفة المنطقة وأشكالها العمرانية والبشرية قصد الاجتياح والتوسع.

عُرِفَت منطقة البيض (Géry ville) سابقا لدى الفرنسيين باسم جبال القصور Les Monts des Ksours على خلاف جبال أولاد نايل وجبال عمور، نظرا لكثرتها وانتشارها بشكل لافت على طول سلسلة الأطلس الصحراوي، حيث بلغ عددها حسب التقارير الفرنسية ما يزيد عن 30 قصراً (انظر الخريطة رقم 1) ناهيك عن المباني القديمة التي خربت وهجرت بفعل الحروب والغزوات وغيرها.

من خلال دراستنا لهذه التقارير، بان لنا أنها تناولت القصور الصحراوية وفق مراحل زمنية وحسب ظروف معينة خاصة أمنية، كون القصور الصحراوية بالمنطقة عبارة عن مراكز عبور للقوافل ونقاط تخزين لقمح البدو الرحل وهي محصنة بأسوار دفاعية وأبراج للمراقبة، وفي هذا الصدد يقول Filix Jacquot في كتابه بعنوان حملة الجنرال كافنيك في الصحراء الجزائرية الصادر سنة 1841م " عانينا في رحلتنا الاستكشافية إلى الصحراء من العداوة ، وسوء الظن من قبائل الصحراء التي كانت تحول دون التقرب من معرفة المنطقة (Jackout, 1847:20).

بالإضافة إلى قيادة قبيلة أولاد سيد الشيخ الروحية وتحكمها في قصور الجنوب الغربي والصحراء جعلها محورا ونافذة لتسهيل تغلغل هذه الحملات في المنطقة وداخل القصور عن طريق مهادنتها وتثبيتها على خلافة الصحراء حيث يقول Michelle Antar : في كتابه

"Les ouled sid cheikh sont le pivot de notre Chevauchées d'un futur St-Cyrien politique sud oranais mieux même sud algérien (antar,1907:25).

كما أن هذه الدراسات الفرنسية قد تناولت قصور المنطقة وفق ثلاث مراحل مهمة وهي مرحلة الاستكشاف، مرحلة المقاومة، مرحلة الاحتلال والسيطرة، وسنحاول فيما يلي التطرق إلى أهم المؤلفات لكل لفظة نتناول فيها القصور الصحراوية لولاية البيض من خلال ما ذكره الفرنسيون:

2- المرحلة الأولى : مرحلة الاستكشاف

تبدأ من سنة 1845 إلى 1864 م، اكتشف فيها العقيد جيري Gery قصور المنطقة أثناء مطاردته للأمير عبد القادر سنة 1845 م، ثم طرد العقيد رينو Rénaux للأمير من قصر الشلالة والأبيض سيد الشيخ سنة 1846 م ثم قصر بوسمغون سنة 1847 م، تلاها توغل العقيد كافنيك Cavaignac نحو قصر تيوت (Comminardi,1995:140).

في سنة 1845 م نشر دوماس Daumas تقريراً بعنوان: الصحراء الجزائرية، وهو عبارة عن دراسة جغرافية إحصائية وتاريخية لقصور المنطقة وهي: قصر بوعلام، ستين، مشرية، غسول، بريزينة سيد الحاج الدين، أربا الفوقاني وأربا التحتاني، الشلالة القبليّة، الشلالة الظهرانية وبوسمغون، حيث اكتفى بوصف سطحي للقصور من حيث وضعية السور الدفاعي، مدخله والأبراج ومواد البناء المستعملة، عدد المنازل مع ذكر القبائل التي تودع قمحها في هذه القصور بالإضافة إلى ذكر عدد الأشخاص القادرين على حمل السلاح داخل كل قصر (Daumas,1845:245).

وفي سنة 1858 م قام دو كولومب de Colomb بإصداره كتاباً بعنوان: حملة على القصور والصحراء لمقاطعة وهران عبارة عن دراسة جغرافية طبيعية لولاية البيض والهضاب والصحراء تطرق فيها لوصف قصور المنطقة: قصر سيد الحاج بن عامر قصر أربوات، قصر

الكرادة، قصر البنود قصر الأبيض سيد الشيخ، قصر بنت الخص وقصر بريزينة، قصر الغاسول (de colombe,1858:19).

وفي نفس السنة قام الطبيب (L. Leclerc لوسيان لوكلارك) بحملة عسكرية جند لها كافة المقومات البشرية والعلمية من مهندسين، جغرافيين، طبوغرافيين وأطباء... مما جعل دراسته بعنوان: واحات الجنوب الوهراني لأولاد سيدي الشيخ، الأقرب للدراسة العلمية الأثرية في وصف قصور المنطقة وهي: قصر أربا التحتاني، قصر أربا الفوقاني، قصر الأبيض سيد الشيخ، قصر بوسمغون، قصر الشلالة القبليّة، قصر الشلالة الظهرانية، حيث يعد تقريره مرجعا لباقي الدراسات الفرنسية اللاحقة، كما يعد أول من تطرق لتأسيس قصور المنطقة معتمدا على الروايات الشفهية (Leclerc,1858:23).

ما يميز هذه المرحلة هو تقرب الإدارة الاستعمارية من زعماء قبيلة أولاد سيد الشيخ وتكريمهم مما سمح لهم بدراسة المنطقة بكل سهولة ودون مقاومة.

3- المرحلة الثانية : مرحلة المقاومة

مرحلة المقاومة والاستقرار تبدأ من سنة 1864 م إلى سنة 1884م، حيث أصبحت الدراسات والتقارير تتناول القصور الصحراوية بشكل سطحي ومختصر، تعتمد في أغلبها على الدراسات السابقة. في سنة 1875 م أصدر Achille Filias كتاباً بعنوان: الجغرافية الطبيعية والسياسية للجزائر تحدث فيه عن قصور المنطقة بشكل مختصر: قصر ستين، قصر الغاسول، قصر بريزينة، قصر أربا التحتاني قصر أربا الفوقاني قصر بوسمغون، قصر الأبيض سيد الشيخ، قصر الشلالة القبليّة، قصر الشلالة الظهرانية، مركزا على عدد السكان أنواع النباتات والمحاصيل الزراعية إلى جانب التضاريس والشبكة المائية (Achille,1875:64).

وفي نفس السنة وصف Paul Solleillet في كتابه المعنون بـ: حملة على الصحراء، رحلة من الجزائر إلى واحات عين صالح حيث ذكر قصر بنت الخس الهلالية واصفاً بناء أحد الآبار بشكل دقيق (Solleillet, 1875:69) وفي سنة 1880 م أصدر Drapier Henry ديوان شعر بعنوان: تحت السماء الزرقاء، تطرق فيه لوصف قصر أربا الفوقاني بأبيات شعر بنفس وصف (Drapier, 1880:84-85) Leclerc.

وفي سنة 1882 م أصدر Louise Piesse كتاباً بعنوان: رحلة الجزائر تونس وطنجة، حيث تحدث عن قصر: سيدي الحاج بن عامر، قصر أربا الفوقاني، قصر أربا التحتاني، قصر بوسمغون، قصور الأبيض سيد الشيخ، قصر الشلالة القبليّة، قصر الشلالة الظهرانية، كما جاء وصفه للقصور بنفس وصف Leclerc حرفياً (Piesse, 1882:293).

في سنة 1884 م أصدر Le Commandant Niox كتاباً بعنوان: الجغرافية الطبيعية والسياسية للجزائر، تطرق فيه إلى قصور المنطقة بشكل مختصر من حيث إحصاء عدد السكان وعدد النخيل.

4- المرحلة الثالثة : مرحلة الاحتلال و السيطرة

تبدأ من سنة 1884 م إلى غاية الاستقلال، ما يميز هذه الفترة هو نهاية المقاومة الشعبية وسيطرت الفرنسيين على كل قصور المنطقة وبالتالي نجد وصف الفرنسيين للقصور بصورة أكثر ارتياحية و في كثير من الأحيان هناك إضافات جديدة للدراسات السابقة، وفي سنة 1891 م نشر Georges Robert كتاباً بعنوان: رحلة عبر الجزائر تطرق فيه إلى قصور: سيدي الحاج بن عامر، أربوات، الأبيض سيد الشيخ بوسمغون، شلالة القبليّة و شلالة الظهرانية، ستيتن، الغاسول، بريزينة وبوعلام (Georges, 1891:399).

في نفس السنة أصدر Hérissou Maurice كتاباً بعنوان: صيد الإنسان، يصف فيه قصور الشلالة كما أمد بمعلومات في غاية الأهمية حول تزيين أسقف منازل قصر بوسمغون (Hérissou,1891:263).

في سنة 1892 م أصدر Trumlete كتاباً بعنوان: الجزائر الأسطورة، تناول فيه قصة تأسيس قصور أربا من خلال الروايات الشفهية، وفي سنة 1906 م نشر Guide Joanne كتاباً بعنوان: الجزائر وتونس، يصف فيه قصور أربوات، بوعلام، ستيتن الغاسول بريزينة (Guides,1906:170)، وفي سنة 1907 م نشر Michele Antar كتاباً بعنوان: جولة حول قصور ووحدات وهران، تناول فيه وصف قصور الشلالة بوسمغون، أربوات، مشرية، بوعلام) كما جاء بوصف جديد لقصر ستيتن وقصر الكراكة وقصور البنود (antar,1907:25)، سنة 1908 م قامت Isabelle Eberhardt برحلة سياحية إلى قصور الشلالة أصدرتها في كتاب بعنوان Notes de Routes (Eberhardt,1908:179).

وفي سنة 1198 م نشر Léon Lehuraux كتاباً بعنوان: الصحراء ووحداتها، تطرق فيه إلى وصف قصور أربوات وبريزينة وقصور الأبيض سيد الشيخ (Lehuraux,1934:53)، سنة 1198 م أصدرت جمعية أصدقاء الصحراء تقريراً وصفت فيه قصور الغاسول، ستيتن، وبريزينة (Association, 1936:45).

5- وصف القصور الصحراوية بولاية البيض من خلال الدراسات الفرنسية:

اكتشف الفرنسيون قصور المنطقة عبر اتجاهين، اتجاه الجنوب الغربي ويضم: قصر مشرية، سيد الحاج بن عامر، أربا التحتاني وأربا الفوقاني، قصر شلالة ظهرانية وقصر شلالة القبلية ثم قصور الأبيض سيد الشيخ وقصور البنود، ثم اتجاه الجنوب الشرقي ويضم: قصر

ستيتن، بوعلام، الغاسول، بريزينة، سيدي طيفور، سيد الحاج الدين وقصر بنت الخص، وسنذكر أحد القصور كمثال حسب أهميته من خلال الدراسات وفي الوقت الحالي.

5.1- قصر بوسمغون:

يقع قصر بوسمغون في الجنوب الغربي يبعد عن مقر الولاية بحوالي 181 كلم، وهو قصر أمازيغي (Association, 1936:66)، يذكره Daumas على أنه قرية بها مائة 100 مسكن محاطة بسور من الطوب مهترئ به ثلاث مداخل: الباب القبلي باب الفرطاس، باب التواسي، وبه مسجد يحتوي على بئر ويعتبر البئر الوحيد بالقرية (Daumas, 1845:245) غير أن تسمية باب الفرطاس لم نجد لها موقعا بل هو باب تمدالة تبون، وتسمية باب التواسي هو في الحقيقة آت ناسي، كما يضيف أن خارج القرية هناك أربعة أضرحة لسيدي عبد القادر الجيلاني، سيدي الحاج بوحفص، سيدي بوسمغون سيدي أحمد التجيني (Daumas, 1845:246).

قصر بوسمغون حسب وصف الطبيب لوسيان لوكلارك L.Leclerc يأتي مختلف، وبتفصيل أكثر، فهو محاط بسور يتقدمه خندق في الشمال يمتد إلى الشرق وينتهي إلى الجنوب، تتخلل السور أبراج وثلاثة أبواب؛ اثنان في الغرب والباب الرئيسي في الشرق يتم من خلاله الدخول إلى القصر عبر جسر محمول من خشب النخيل (لم يعد موجوداً) والباب به ثقب يفضي من خلاله إلى فناء ذي رواق مغطى، أما الساحة نجدها في الجهة الشمالية يتفرع منها شارع طويل مستقيم ومتسخ على حوافه توجد مطامير صغيرة (لمراحض) بالإضافة إلى أكوام الفضلات المنزلية وفضلات الأغنام التي نجدها على شكل أكوام في فناء المنزل والتي تستعمل كسماد للفلاحة (Leclerc, 1858:66) يذكر لوكلارك وجود قنطرة لحمل الماء خارج القصر من الجهة اليمنى للوادي إلى الضفة اليسرى أين نجد البساتين، وتعد الأولى من نوعها في المنطقة تنتهي بحاجز يوزع المياه بالتساوي كنظام للسقي، حيث وصفها Coyne سنة 1889 م بأن سكان القصر يسقون محاصيلهم من عين سيدي الشيخ التي تقع جنوب القصر حوالي 1 كلم يتم

نقل الماء عبر قنوات (Coyne,1889:50) كما يذكر لوكلارك وجود برج عالٍ على مرتفع لمراقبة اللصوص (Coyne,1889:64).

يعتبر Leclerc أن القصر مستودع لقمح القبائل الرحل، وقد امتن سكانه الحدادة والتجارة وهو أكثر القصور صناعة في نظره، به حوالي 400 إلى 500 ساكن (Coyne,1889:69).

منازل القصر تتكون من طابقين، الطابق الأرضي نجد فيه المطبخ، الإسطبل ومكان الكومة لمختلف المواد المستعملة، أما الطابق الأول فهو مخصص للسكن ماعدا في أوقات الحر أثناء الصيف، تغلق أبواب المنازل بأقفال خشبية وهي عبارة عن عمود مستعرض يسمى الذراع ينزلق داخل تجويف خشبي أين نجد مربع خشبي مثبت على الباب يطلق عليه الفكرون، ويغلق الباب بواسطة الذراع الذي يحرك عدة إبر متحركة والتي تدفع القفل داخل إطار الباب الخارجي (Coyne,1889:66-67) أخلي القصر من ساكنيه بعد مجيء الفرنسيين حيث أمر العقيد Okeef بنزع أغصان السدر الذي يحمل سقف المنازل قصد حرقه لطهي الطعام (Hérisson,1891:263). وبعد مغادرة الفرنسيين للقصر قام سكان قصر الشلالة وأربا بنهب ما تبقى، إذ قاموا بنزع العارضات التي تحمل السقوف حيث يصفها بأنها جذوع رفيعة قد تكون من سدر وهي غير متوفرة في المكان حاليا ربما كانت موجودة في القديم وربما جلبت من منطقة سعيدة (Hérisson,1891:268). من خلال دراستنا لأسقف منازل قصر بوسمغون تبين أن معظمها من الكرناف والبعض من القصب مما يؤكد إمكانية إعادة التسقيف في فترة لاحقة.

6- خاتمة:

جاء وصف الفرنسيين للقصور في فترة فقدت أو نهبت فيها أغلب المخطوطات المحلية مما ترك لهم الحرية في الكتابة والتأويل، لكن رغم ذلك نجد هذه التقارير والدراسات حول

القصور الصحراوية لولاية البيض المرجع الوحيد لتلك الفترة وبالتالي يصعب الاستغناء عنها وتجاهلها دون الرجوع إليها من جهة، مع التأكد بمدى مصداقيتها على أرض الواقع من وجهة أخرى، ومن خلال ما سبق وقفنا على أهمية هذه الدراسات التي تناولت وصف قصور المنطقة ومعالمها منذ بداية الاحتلال باعتبارها فترة جد معقدة ومُغَيَّبة، ناهيك عن الوضعية المزرية التي تعرضت لها القصور الصحراوية بالمنطقة جراء الحرق والتدمير الذي طال أغلبها، خاصة فترة المقاومة الشعبية (1864-1904) بالإضافة إلى تعرض كل القصور إلى نهب مخازنها باعتبارها مستودع للتخزين وكذا سيطرة الفرنسيين على أغلب الطرق التجارية ومراكز العبور مما أدى إلى تراجع دورها الاقتصادي وانعكاسه على الحياة الاجتماعية واستمرار هذا الوضع إلى غاية فترة ما بعد الاستقلال بهجرانه كليا، رغم ذلك فقد وثّق الفرنسيون لهذه القصور وأهم عناصرها المعمارية حيث لا نجد على أرض الواقع سوى بضعة قصور والبقية لا نتعرف عليها إلا من خلال هذه التقارير السالفة الذكر.

7-الملاحق:

خريطة رقم 1: توضح أهم القصور الصحراوية بولاية البيض عن (Google earth): بتصرف

الصورة رقم 1: قصور الأبيض سيد
الشيخ عن:



الصورة رقم 2: قصر بريزينة عن:

Association ,les amis de
sahara,bulletin
trimestriel,
n°19,avril1936,p36 .



الصورة رقم 3: قصر الغاسول عن:

Association ,les amis de
sahara, bulletin
trimestriel,
n°19,avril1936,p36 .



الصورة رقم 4: قصر بوسمغون:

Association ,les amis de
sahara, bulletin
trimestriel,
n°19,avril1936,p45 .



6- المراجع:

1. -Direction De La Planification Et De L'aménagement Du Territoire(2010) *monographie De La Wilaya D'el Bayadh*, EL Bayadh,.
2. -Félix Jackout (1847) ,*Expedition Du Generalcavaignac Dans Le Saharaalgerien* ,Ed : Gide Et J Boudray,Paris .
3. -Michelle Antar (1907),*Chevouchésdun Futur St-Cyrien,Atravaire Les Ksourset Oiasis Oranais*,Hetzal,Paris,.
4. -Comminardi.Francois (1995), *Au Coeur Des Monts Des Ksours, Le Ksar De Chellaladahrana*, In Tradition Et Modernité,Revue d'Architecture Et Urbanisme N02 ,Alger ,.
5. -Daumas. E (1845) ,*Lesaharaalgerien Études Géographique Et Statistique Et Historique Sur La Region Au Sud Des Etablissementfrançais En Algerie* ,Du Bosfrère ,Alger,.
6. -M.L.De Colombe (1858),*Exploration Des Ksours Et Du Sahara De La Provaincedoran* , Imp : Du Gouvernemant ,Alger,.
7. -Leclerc. L 1858 (), *Les Oiasis De La Provaince d'Oran Du Les Ouled Sidi Cheikh* ,Ed : Tissier.paris.
8. -Fillias achille (1875), *Géographie Physique Et Politique de lalgerie*, Deuxieme Édition, Imp :V.Ailoud Et Compagnie .Paris,.
9. -Solleillet paul (1875), *Exploration De Sahara Centrale, Voilage De Paulsolleillet, Dalger A L'oasisde Ain Saleh*, Alger,.
10. -Drapier Henry (1880), *Un Ciel Bleu* , Imprimerie De L'association Ouvrière , Oran,.
11. -Piesse Louis (1882), *Éteniraire De Lalgerie De La Tunisie Et De Tanger* ,Hach Etteetcie ,Paris,.
12. -Georges Robert (1891), *Voilage A Travaires Lalgerie* ,Nots Et Croqu IS,Ed : Dentu,Imp :G.Rougier,Paris,.
13. -Hérissou Maurisse (1891),*La Chasse A Lhomme Gère d'Alger*, Ed: Paulolandorfe ,Paris,.
14. -Guides Joanne (1906), *Algerie Et Tunisie* , Hachette Cie,Paris,

15. . Eberhardeti sabelle (1908), *Notes de routes ,Maroc ,Algerie ,Tunisie*, Librierier charpontier Et Pasqualle,Paris,.
16. -Léon Lehuraux (1934), *Le Sahara-Ses Oiasis*, Ed : Baconnier,Alger,.
17. -Association (Avrile1936) ,*Les Amis De Sahara*,Bulletin Trimestriel, N19,.
18. -Coyne (1889),*Le sahara De Louest*, Reveux Africaine N33,.p162
19. -Renée basset, **la légende de bent el khass**, revue africaine n°49,1905.
20. -Basset Renée (1905), *la légende de bent el khass*, revue des tradition populaire,20eme année tom20,n°11,Jourdan, Alger.

القصص والروايات من الشعر الشعبي في الجنوب الغربي الجزائري

Stories and novels of popular poetry in the Algerian southwest

د. حنان جعيرن: المدرسة العليا للأساتذة طالب عبد الرحمن- الأغواط (الجزائر)، h.djairene@ens-lagh.dz

ملخص:

تعد منطقة الجنوب الغربي الجزائري مسرحاً للأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية وما رافق ذلك من حركات جهادية ضد المستعمر الفرنسي، وكانت منطقة الجنوب الغربي تزخر بشقّ الفنون من بينها الشعر الشعبي الذي كان متنفساً للعديد من السكان حيث اختلفت موضوعاته وأساليبه، فكان القصة والحكاية أسلوباً انتهجه الشعراء والأدباء في تبيان مقاصدهم وأهدافهم، حيث استخدموا القصص في سرد سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابة والتابعين أو في سرد قصص معارك المجاهدين مع الجيوش الفرنسية، ويعد هذا الشعر أكبر شاهد على النزعة الدينية والوطنية لشعراء الجنوب الغربي في الجزائر. كلمات مفتاحية: القصة، الشعر، الجنوب الغربي، الجزائر

Abstract:

The Algerian southwestern region was considered a scene of political, social and cultural events and the accompanying jihadist movements against the French colonizers. The southwestern region was rich in various arts, including popular poetry, which was an outlet for many residents, as its themes and methods differed. Explaining their intentions and goals, as they used stories to narrate the biography of the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, or the companions and followers, or to narrate the stories of the mujahideen's battles with the French armies, and this poetry is the largest witness to the religious and patriotic tendency of the poets of the southwest in Algeria.

Keywords: Story, poetry, southwest, Algeria

1. مقدمة:

إنّ الشعر الشعبي لا يقل أهمية عن الأدب الفصيح، وإنك لتلفيه في كل أشكاله مرآة صادقة، تنبجس منها مشاعر الجماهير الشعبية، بل هو وثيقة تاريخية، وصفحة اجتماعية تعكس ثقافة وحضارة وفكر المجتمع. ولما كان الأدب الشعبي الأقرب إلى وجدان الشعب وأحاسيسه وهواجسه، فلقد كان الشعراء ولا يزالون يتغنون - لحد الآن - بذلك الجانب الروحي الخفي والذي تأبى الأعراف والتقاليد والعادات إظهاره للغير، كما كان للشاعر الشعبي

على غرار شاعر الفصيح اللّجوء إلى الكتابة لأنّها ملاذه الآمن، ومتنفسه الوحيد ليعبّر بها، ومن خلالها عن خلجات النفس ولواعج الروح.

لقد ترك الشعر الشعبي والشائع بالشعر الملحون بصمة مميزة للمجتمع الجزائري، خاصة أنّه لعب دورا هاما في الدفاع عن قضايا الأمة وحمل آمالها وآلامها، فالشعر الشعبي ينطلق أساسا من واقع الحياة اليومية المعيشة ويستثمر التاريخ والبيئة ليتخذ منها موضوعاته متجاوزا بذلك أحيانا مضييفا ومعدلا ومؤولا، كما يقتحم دائرة الأسطورة من حين إلى آخر .

وهذا ما شهدناه في تمثيلات الشعر الشعبي في الجنوب الجزائري خصوصا في الجنوب الغربي، حيث كان الشاعر هنالك متعلقا بواقع الحياة التي يمارسها، فيعبّر انطلاقا من هذا عن آلام وآمال مجتمعه برؤية خاصة تعكس البيئة المحلية التي يرتبط بها الشاعر.

من هنا نطرح الإشكالية التالية :

- إلى أي مدى استخدم شاعر الجنوب الغربي في الجزائر القصة في الشعر الشعبي؟
- ويندرج ضمن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات مفادها :
- كيف استعمل شعراء الجنوب الغربي القصة والرواية في قصائدهم؟
- كيف ساهمت القصة في ترسيخ دعائم الهوية الوطنية؟
- وللإجابة عما سبق وضعنا مجموعة من النقاط سنتناولها في هذه الورقة البحثية :

1- موقع الجنوب الغربي

2- الشعر الشعبي في الجنوب الغربي

3- أشكال الشعر الشعبي في الجنوب

4- نماذج من القصص والروايات في الشعر الشعبي

1- موقع الجنوب الغربي:

هو الربع الجنوبي الغربي للجزائر، يضم كل من ولايات: بشار، وتندوف، وبني عباس، وتيميمون، وأدرار، وعين صالح، وبرج باجي مختار، يحده من الشمال ولايات النعامة وغرداية والبيض، ومن الجنوب دولتي مالي والنيجر، ومن الشرق ولاية تمنراست، ومن الغرب دول المغرب والصحراء الغربية، وموريتانيا. ويضم تاريخيا أقاليم الساورة وتندوف وتوات وتيدكلت وتانزروفت. ويمتاز بجغرافيا مسطحة قليلة الجبال، وبها كثبان العرق الغربي الكبير والصغير، وعرق شاش جوها حار صيفا وبارد شتاء.

أما ساكنتها فهم مزكناتن وإيموهاق وإيفوغاس، كنته والانصار والرقيبات، وزناتة، وتوارق أريج بين عرب بني حسان ووفلان الصحراء الكبرى، حياتهم بسيطة متصلة بالبداءة ونوافلها، لغتهم مزيج بين العربية والزنااتية والتارقية هوسا البامبارة، حتى غدت بمرور الزمن لهجة صحراوية متعددة المشارب (العيد، كنتاوي: 2022، ص 110).

2. الشعر الشعبي في الجنوب الغربي الجزائري:

يستمد الشاعر الجزائري إلهامه من بيئته العامة، وتعد البيئة الصحراوية أحد الأماكن التي تؤهل الشاعر الجزائري بطريقتها الخاصة، وتطبع إلهامه بطابع خاص وتزيده شموخا وسموا وانفتاحا، فالشاعر الصحراوي تكوّنه بيئته حيث تصبح الصحراء مصدرا أساسيا يستمد منه إلهامه، فهي تجمع في قصائده بين فضيلة التسامح والكرم والنبل وبين البساطة والعزة والكرامة، وهذه الخاصية للبيئة الصحراوية أنتجت شعرا حماسيا انعكس فيه القوة والشدة والعزيمة والإصرار.

تعد الهجرتان الهلالية والأندلسية من أهم العوامل التي ساهمت في نشأة وتطور الأدب الشعبي في الجزائر، وكما هو معلوم أن بيئة الهلاليين تختلف عن نظيرتها في الأندلس، ممّا أدى إلى ظهور ملامح بيئتين في الأدب الشعبي الجزائري، وبالتالي نتج عنه نوعين من الشعر الشعبي على حد قول رايح بونار: "أن الشعر الملحون الذي وصلنا نوعان الشعر البدوي وقد

تفرع من الشعر الهلالي، والشعر الحضري وقد انبثق من الموشحات والأزجال... بيد أن الشعر الهلالي أقدم عيدا في الجزائر من الموشحات الأندلسية، وقد تعرّف إليه شعراء الملحنون عن طريق شعراء بني هلال الذين رافقوا الحملات العسكرية التي زحفت على القيروان سنة 499هـ، وعلى الجزائر سنة 466هـ الأمر الذي دفعهم إلى وصف هذه الحملات بشعر يكاد يكون غير معرب" (بونار، 2010: ص20)

وقد نتج عن هذا التأثير ظهور بيئتين للأدب الشعبي في الجزائر، إحداهما تعرف بالبيئة البدوية الصحراوية، وقد تأثرت بطبائع وعادات وتقليد وألسنة الهلاليين شكلا ومضمونا، والأخرى تعرف بالبيئة الحضرية، فالبيئة الصحراوية أثرت وبشكل واضح شعر الجنوب الجزائري الذي أصبح يضاهي الشعر البدوي الهلالي شكلا ومضمونا (جعفري، 2009: ص16)، كما أن اللغة العامية في البادية والقرى قد احتفظت بطابع عربي في ألفاظها وتراكيبها ووضوح معانيها، وذلك لبعدها عن الامتزاج بغيرها من اللهجات إلى حد ما، ويمثل الشعر الشعبي في الجنوب الجزائري هذه الخاصية، ويضاف إلى احتفاظ الشعر الصحراوي هذه الخاصية أن القبائل الهلالية قد استقرت في أول الأمر بمناطق الجنوب، كما أن سكان هذه النواحي لم يختلطوا كثيرا بأهل المدن الكبيرة، ولم يتصلوا بالحياة الحضرية البربرية التي تركزت في الغالب في المناطق الساحلية والجبلية (بونار، 2010: 25).

ويظهر أن لتوافق البيئة والمناخ اللذين عاش فيهما الهلاليون وسكان الجنوب الجزائري وتشابه بعض العادات والتقاليد دخلا كبيرا في نشأة الشعر البدوي الجزائري، الذي تميل لغته إلى القوة والفصاحة، وهناك من يشبهه بالشعر الجاهلي من حيث طريقة البناء والقوة وجزالة اللغة والتصوير، وتعدد الأغراض الشعرية في القصيدة الواحدة، من عزل ووصف وفخر وفروسية... ولا يكاد المتمعن في القصائد الشعبية البدوية أن يفرق بين الصور الواردة

فيها الواصفة للفرس والمرأة ...، وبين ما جاء في الشعر الجاهلي في هذه المواضيع بالذات (خورشيد، 1992: ص12).

3. أشكال الشعر الشعبي في الجنوب الجزائري:

وقد أشار الباحث الفرنسي ألكسندر جولي في حديثه عن الشعر البدوي، الذي تداوله البدو الرّحل في بعض مناطق الهضاب العليا والجنوب، إلى مجموعة من الأشكال الفرعية للشعر البدوي وهي:

1.3 القول:

وهو أحد أشكال الشعر الشعبي البدوي، وهو عبارة عن "قصيدة قصيرة يسرد بإيقاع شديد التكثيف... لا بدّ من أن يتوفر على شكل معتنى به إلى حدّ كبير، وأن يكون مرسلًا إلى حدّ ما، وأن تكون المفردات سليمة... يغنى القول أمام جمع من النّاس، يؤديه شخص محترف هو القوّال" (المرزوقي، 1967: ص17)، ومن نماذجه قولهم:

قَلْبِي قَلْبِي بَاغِي الدُّنْيَا مَسْتَعْفَى وَعُرْبَانُ شَاوُ الْخُرَيْفِ مَحْدُورَةٌ لَلْتَّقْبَالِ
قَلْبِي بَاغِي النَّيَاقِ مِنَ الْحُمْرِ الطَّايِقَةِ عَشْرَاتٍ وَخُلَفَاتٍ يَتَنَاقِزُوا عَلَى الدَّنْبَالِ

2.3 النَّمّ:

بالتريق هو نوع فرعي لشعر البدوي "يتكون من عدد قليل جدا من الأبيات ذات القوافي المتقاطعة، أو بتعبير أنسب المتشابكة، يعبر المؤلف في قليل من كلمات، بدون الدخول في أي تفصيل عن مشاعره اتجاه شخص، وفي أغلب الأحيان نحو امرأة () ومثال ذلك قولهم:

يَا رَبِّي يَا إِلُو يَا عَالَمُ الْمُقَدَّرْ

سَلَكُ الْوَاحِلِينَ فِي يَوْمِ السَّدَّةِ
أَلْقَى بَيْنِي وَبَيْنَ وَلَفِي مَسْعُودَه
هَنُونِي يَا رَفَاقِي مَا طُفْتُ غَلَاه

3.3 القطّاعة:

هي "أغنية الطريق، ترتجل دائما، يحب العرب ترديدنا في السفر للتسلي من طول مسافات الطريق، موضوعها ذاته قصّة سفر، يتم خلالها تعداد أسماء مختلف المحال التي يمرون بها في الانتقال من مكان إلى آخر، وتستهل دائما بذكر دافع السفر" (بوحبيب، 2009: ص51) ومن نماذجها قولهم:

أَنَا فِي طَيْطَرِي فِي بِلَادِكَ يَا سَعْوَانْ
وَنَطَالَعُ لِلجَبَلِ غَيْرُ بُعَيْنِي
مَنْ وَحْشَ الرِّيمِ الْمِي جَاتْ فِي قَاسِي الْأَوْطَانْ
بَيْنَ الْكِيفَانْ فِي الْقُصُورِ الْعَرَبِيَّةِ

4.3. الرثوة أو المراثية:

يعد هذا النوع الشعري البدوي أقل انتشارا من سابقه " نظرا لما تتطلبه من صنعة، ولكونها تحتاج في إبداعها لمشاعر فردية جياشة يشارك المتلقون في بلورتها عند الشاعر"، ومن نماذج هذا النوع الشعري، قول الشاعر قويدر بن سي محمد بن فرحات من قصر البخاري، إثر وفاة زوجته العلوانية (خورشيد، 1992: ص12):

المُرُّ اللي كُونِي دَلِيلِي صَدَّ وَخَلِي
يَا حَالِي كِي رَانِي
مَنْ ظَانِي يَا صَاحِبْ ظَنِّي غَيْرُ التَّفْكَارْ
نَارُ الْمُحْبُوبِ فِي ضَمِيرِي تَسْنِي دَخْلَانِي

يا حالي كي راني دَا حُكْمُ الْقَهَّارِ.

وعليه يمكننا القول أن الشعر الملحون البدوي الجزائري هو إبداع شعبي متأثر بالشعر الجاهلي الهلالي في شكله ومضمونه.

5. أقسام القصيدة الشعرية عند شعراء الجنوب الغربي:

تتكون القصيدة الشعرية من أجزاء معينة وأعطاهما الشعراء مصطلحات عرفت بها، وهذه الأجزاء، وهذه الأجزاء حسب ما تواضع عليها الشعراء هي: الحارسة أو الصيدح، اللّزّمة، الحريش الردمة، التّواشة، البيت (بركة: 32).

6. نماذج من القصص والروايات في الشعر الشعبي بالجنوب الغربي الجزائري:

يدخل القصص الشعبي ضمن ما يعرف بالأدب الشعبي "ويراد به الأدب غير المكتوب والمتداول شفويا في أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات فهو أدب نابع من الشعب ومتداول بين طبقاته المختلفة، ويتخذ الحكي للقصص الشعبي في هذه المناطق طرقا وأشكالا، ويشغل مواطن ومواقيت معينة، أهمها البيت والحي، أو المواسم والمناسبات، فأما البيت والحي فيخص أفراد العائلة الواحدة أو الجيران والأتراب من شبان القبيلة الواحدة أو التجمع السكاني الواحد، ففي البيوت مثلا، غالبا ما تروي النسوة والجدّات خصوصا، رواياتها للأطفال على شكل حكايات خرافية، تبعث الغبطة والسرور والفرجة في نفوس هؤلاء الأطفال.. (طالبي، 2019: ص149)، الملاحظ أن هذه الحكايات ليست مجرد كلام يقال للترفيه وكسب المال فحسب، بل هو إرث معنوي زاخر بمختلف القيم الاجتماعية والثقافية والحضارية لذلك وجب الحفاظ عليه والاهتمام به، وهو ما يحقق الحفاظ على هويّة الأمة وذاكرتها ويعني أيضا "الحفاظ على المنتجات التي نستطيع من خلالها أن نقيس مستوى الحضارة لهذه الأمة أو تلك" (عليان، 2014: ص60).

ويعدّ الشعر الشعبي أحد المظاهر الثقافية في الجنوب الغربي يغنى ويهزج به، ويوقع ايقاعات نغمية خاصة ما يرافقها من إيقاع بعض الآلات الموسيقية، وتتناقلها الأجيال مثلما تتناقل لغتها العامية الشفهية وتتطور بتطورهم، تلك حال الشعر الشعبي بمنطقة وادي قير العبادلة حضور كامل لكل مميزات وخصائص القصيدة العمودية في الشعر الفصيح بما فيها من سعة الخيال وبعد التصوير.

وينتشر الشعر الشعبي في هذه المناطق بشكل كبير، حيث نجد شعر المديح والتصوف في الصدارة، هذا النوع الذي يعنى بقصائد تمدح خير الورى محمد، وتتحدث عن فضل أتباعه والافتداء بسيرته العطرة، كما نجد شعر البطولة والتغني بالأمجاد وتسجيل الانتصارات، كما نجد شعر البطولة والتغني بالأمجاد وتسجيل الانتصارات، بالإضافة إلى الأغراض الأخرى كشعر الحكمة والرثاء والغزل والشعر القصصي، وفي كل ذلك لا نجد الشاعر يتناول الحدث بوصفه مستقلا قائما بذاته، أو بوصفه منجزا، إنما يتناوله بصفته حركة وسيورة... (طالبي، 2019: ص150)

كما اهتم الشعراء الشعبيون بشعر الفتوح والمغازي ذو النزعة الملحمية في ظل طغيان الاحتلال الفرنسي على الجزائر، حيث أصبح الشعر الشعبي جزءا من الذاكرة الشعبية ومن خلاله تفجرت قريحة الشعب الجزائري في الشعر الملحون، فهذا النوع من الشعر يسجل بطولات الصحابة لأنهم وجدوا المجال مفتوحا أمامهم لاسترداد التاريخ الإسلامي الحافل بالبطولات حيث يعد مقوما أساسيا من مقومات الشخصية الوطنية في ظل المرأة الصادقة التي لم تستطع أن تعبت بها يد الاستعمار الذي عمل كلّ ما في وسعه لتدمير كلّ مقومات هذا الشعب، مثال ما يقوله الشاعر سيدي الحاج بلقاسم بن الحسين القوارري:

نستفتح باسم الله

والنبي الأواه

لا إله إلا الله

القديم الأزل

ونجد شعراء كبارا واكبوا الثورة الوطنية مثل محمد بلخير وقد مثل رمز الكفاح فيها، حتى بعد وفاة "الشيخ بوعمامة". ومن أهم أشعاره في الوطنية قوله: (كنتاوي، العيد، 2022: ص112)

مَقُونَانِي نَبْكَى الاجْرَاح مَهُولِينَ بِي فَرْقَة وَطْنِي وَعَزَّ الْاوطان

رانا ضَرْوَكْ، راس، النُجوع، مَتَنَزْهِينَ، ما قعدوا فالذلّ الا اصحاب بوران

اللي يَبْغِي الجنة يُضاد، الكافرينا واللي بغا الهنا بَغَى التَّمْزَان

ويبدو أنّ الثقافة الدينية للشاعر جلية من خلال اصطلاح "الجهاد الأكبر"، وهو اصطلاح مقتبس من الحديث. أيضا اصطلاح "عدو نبينا"، الذي يرمز من خلاله إلى أن فرنسا هي عدوة الدعوة المحمدية قبل أن تكون عدوة للجزائر؛ وهذا نابع من ثقافة أهل المنطقة المعتقددة أن حرمة الوطن من حرمة الدين ويجدد هذا النهج الشاعر كرومي أحمد من خلال قصيدة ثورية يقول في مطلعها (بن دهيئة، 2010: ص29):

من الرُبعة وَخَمْسِينَ، فالعدو كركرنا العمارة

وطلعت الاولاد بلا سلاح شدو ليها لكفان

اونهُم، ياربي وزيدُهُم في الهمة والشان

كما سادت في بعض أشعارهم اللغة الأمازيغية التي جسدوا فيها القصص القرآنية وهذا لغرض تقريب ما جاء في كتاب الله عز و جل إلى عامة الناس، نجد هذا في قصيدة بعنوان "سيدي صلى الله عليك أ سيدنا" (بلغيث، 2003: ص64):

الْيَنُؤَا لَا لَأَمْرِيْمَةَ، بَنَتْ بُوعَمْرَانَ الْعَزْبَةَ = مَرْيَمُ ابْنَةُ عُمَرَانَ الْعَدْرَاءُ

أَرِيضُوا أَيْدَ أَقْنَدُوا الْعَاتِقَةَ، عَمْرِي وَتَرْني = لا تزال بِنْتُ لَمْ تَرْني في عمرها

رَسُولُ اللَّهِ أَيْدُ شَفِيعٍ، الْكُنُوزُ نَسْ = تَنْتَظِرُ قُدُومَ رَسُولِ اللَّهِ (سَيَدُنَا عَيْسَى)

وهذه مقتطفات من القصيدة وهي توضح قصة السيدة مريم العذراء المذكورة في القرآن الكريم، في سورة مريم الآية "22" (فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّذْسِيًّا).

ونجد في الشعر الديني القصصي قصيدة الله يا جمع المؤمنين طالعتها:

اللَّهُ يَا جَمْعَ الْمُؤْمِنِينَ صَلُّوا عَلَى بُوْقَاطِمَه
يَا لَجَوَادِ الْيَ حَاضِرِينَ صلوا على جد الحسين

والتي يذكر فيها صاحبها قصة رجل كان يعبد ربه في خلوته إلى أن جاءه الشيطان يوسوس إليه فطرده، لكن لم يذهب بل أراد أن يبتلي هذا العابد فألقى له في حجره عظما وقال له، اطلب من ربك أن يحيي لك هذا العظم ثم استقام ذلك العظم لينبت ويصبح شجرة وهكذا تتواصل القصة ويقول الشاعر بأنه وجد هذه القصة في كتاب كبير وقد أحصاها لدى ابن عاشر ووجدها عند ابن عباس (سرقمة، 2008، ص14):

هَذِي قَصِّهِ بِحَدِيثِهَا بَكْتَابِ كَبِيرِ لَقِيْتَهَا
وَابْنِ عَاشِرِ حَصِيْتَهَا وَاِبْنِ عَبَّاسِ أَعْلَى الْيَمِينِ
قِصَّةُ عَبِيدِ فِي خُلُوتَا يَعْبُدُ مَوْلَاهُ بَنِيْتُو

جَاهُ الشَّيْطَانِ يَفْلُتُو صَابُو مَتَوَحَّدِ بِالْيَقِينِ
جَابَ لِيهِ عِضْمٌ مِنَ الْقَبْرِ لَاحُو فِي حَجَرُو بِالْقَدْرِ

ومثل هذا الشعر القصصي كان له تأثير كبير في بلورة الوعي الديني والأخلاقي لدى المجتمع الجزائري في الجنوب الغربي.

4. خاتمة:

في نهاية هذه الورقة البحثية تجلت لدينا بعض النتائج أردنا وضعها في عناصر كالتالي:

- 1- يعتبر الجنوب الغربي في الجزائر موقعا استراتيجيا استهدفه الاستعمار الفرنسي لعزله عن باقي المناطق الجزائرية
- 2- يعد الشعر الشعبي فضاء واسعا لسكان الجنوب الغربي الجزائري حيث تنوعت أساليبه وموضوعاته الشعرية.
- 3- تميز الشعر الشعبي بمواكبته للواقع المعيش فهناك الشعر الوطني الذي كان مؤيدا للثورة ويحكي القصص التي عاشها المجاهدون.
- 4- كان الغرض من القصة والرواية في الشعر الشعبي في الجنوب الغربي بث القيم الدينية والايمانية من خلال سرد قصص الصحابة والتابعين.
- 5- يعد الشعر الشعبي مصدرا من مصادر التاريخ المحلي يغفل عنه المؤرخون والباحثون.

قائمة المراجع:

- 1- العيد دحان، نور الدين كنتاوي، الاتجاه الوطني للشعر الشعبي في الجنوب الغربي الجزائري، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، جامعة تامنغست، 2022.
- 2- رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، البصائر الجديدة، 2019.
- 3- فاروق خورشيد، الموروث الشعبي، ط1، دار الشروق، لبنان، 1992
- 4- محمد المرزوقي، الأدب الشعبي، ط5، الدار التونسية للنشر، تونس، 1967.
- 5- بوشيبة بركة، فنون شعبية من الجنوب الغربي الجزائري (الشعر، الرقص).
- 6- عبد القادر طالبي، الشاعر الشعبي وتسجيل أحداث الثورة الجزائرية، سياقات اللغة، العدد 3، 2019.
- 7- جمال عليان، الحفاظ على التراث الثقافي، سلسلة علم الكتاب، الكويت، العدد 322.
- 8- مصطفى بن دهبنة، قطوف من تاريخ تندوف، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2010.
- 9- الحاج محمد بلغيث، إيقاعات شعبية عادات وتقاليد فلكورية في الجنوب الغربي، مطبعة الحاضنة، 2003.
- 10- سرقمة عاشور، الشعر الشعبي الديني في مناطق الصحراء الجزائرية شعراء توات عينة، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، غرداية، 2008.

الجنوب الغربي الجزائري في كتابات الرحالة والجغرافيين ما بين القرنين
(10-12هـ/16-18م) "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية أنموذجا"

The Algerian southwest in the writings of travelers and geographers
between the two centuries (10-12 AH / 16-18 AD) "Economic and Social
conditions as a model"

ط.د وليد زدام: المركز الجامعي سي الحواس - بركة (الجزائر)، walid.zedam@cu-barika.dz

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى محاولة تسليط الضوء على بعض الجوانب الحضارية للجنوب الغربي الجزائري في الفترة الممتدة ما بين القرنين (10-12هـ/16-18م)، من خلال ما أورده كتب الرحلة والجغرافيا كمادة مصدريّة. وفي ذلك سيتم التطرق للإسهامات الاقتصادية للمنطقة، من خلال إبراز أهم الدعائم المساعدة للقطاعات الحيويّة المنتجة، والتي ساهمت بدورها في إنعاش الأنشطة الزراعية والصناعية والتجارية. كما سيتم التعرف على بعض ملامح الأوضاع الاجتماعية، من تركيبة سكانية متنوعة، وجوانب من الحياة اليومية لدى المجتمعات القصورية. كلمات مفتاحية: الجنوب الغربي الجزائري؛ الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية؛ كتب الرحلة والجغرافيا؛ القرنين (10-12هـ/16-18م).

Abstract:

This research paper aims to shed light on some aspects of the civilization of Algerian Southwest in the period between the two centuries (10-12 AH / 16-18 AD), through what is mentioned in Travel and Geography Books as source material. In this regard, the economic contributions of the region in terms of agricultural, industrial and commercial will be addressed. In addition, some features of social conditions will be identified, from a diverse demographic composition, and aspects of the daily life of inadequate communities.

Keywords: Algerian Southwest; Economic and Social Activity; Travel and Geography Books; The 10TH-12TH Centuries AH.

1. مقدمة:

تعتبر كتب الرحلة والجغرافيا (أنظر التعليق رقم: 1) من المصادر الرئيسية التي يُعَوَّل عليها في البحث التاريخي، ومادة أساسية هامة يستقي منها الباحث في الدراسات التاريخية

الكثير من المعطيات المفيدة، لا سيما ما تعلق منها بالمجال الاقتصادي الذي مثّل حجر الزاوية في الخارطة التنموية للجزائر عامة، وجنوبها الغربي خاصة. ونظرا للدور المهم الذي لعبه هذا الجانب في تطور المنطقة وازدهارها مطلع العصر الحديث، وصور بعض المصادر وإحجامها عن الحديث عن مثل هذه المواضيع، ارتأت الدراسة طرق باب كتب الرحلة والجغرافيا للبحث بين ثناياها عن واقع هذا النشاط، الذي ارتبط أشد الارتباط بالأوضاع الاجتماعية التي عرفتها الحواضر الواحية للجنوب الغربي الجزائري في الفترة الزمنية المحصورة ما بين القرنين (10-12هـ/16-18م)، خاصة وقد صادفت هذه الفترة بروز رحالة جغرافيين أبدعوا في تدوين رحلاتهم وتسجيل انطباعاتهم؛ إذ اتصفوا بدقة الملاحظة والوصف، وتسجيل انطباعاتهم بأمانة وصدق، فذكروا الإسهامات الزراعية والصناعية التي وقفوا عليها، ووصفوا الطرق التي مروا بها، والمراكز التجارية التي نزلوا فيها، وسجلوا كل صغيرة وكبيرة عن الأوضاع الاجتماعية التي عايشوها.

2. الأوضاع الاقتصادية بالجنوب الغربي الجزائري ما بين القرنين (10-12هـ/16-18م):

تبرز ملامح البنية الاقتصادية للجنوب الغربي الجزائري من خلال المقومات الدينية، والإمكانات الطبيعية والبشرية، التي شكلت دعائم قوية للقطاعات الحيوية المُنتجة، والتي شملت الزراعة والصناعة وسائر الأنشطة التجارية.

1.2 مقومات النشاط الاقتصادي للجنوب الغربي الجزائري:

1.1.2 النظرة الإسلامية للعمل:

لم يدع الإسلام مجالا من المجالات التي تفيد الإنسان إلا وحثّه عليها، ومن ذلك العمل والسعي في طلب الرزق، لكي يكون المسلم في مجتمعه منتجا مساهما في قوة المجتمع الإسلامي وازدهاره، وسكان الجنوب الغربي الجزائري كغيرهم من سكان الأقاليم الإسلامية الأخرى لم يكن بعيدا عن أذهانهم الآيات القرآنية الكثيرة المشجعة للعمل، ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠) (سورة البقرة، الآية: 10) وقوله عز وجل ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتَبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٢) (سورة البقرة، الآية: 282).

كما أن النبي المصطفى - صلى الله عليه وسلم - قد مدح اليد العاملة المنتجة، ودعا إلى أن يكون المسلم منتجا في ال كثير من الأحاديث النبوية، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» وقال أيضاً: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه» (البخاري، 2002: 499)، وقوله كذلك: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» (البخاري، 2002: 558).

2.1.2 كثرة الأرياض وكبر الرياض:

ساعدت طبيعة صحراء الجنوب الغربي الجزائري على مزاولة النشاط الزراعي، الذي يعد العصب الأساسي لازدهار النشاط الاقتصادي، حيث توفرت بعض أقاليمها على أرياض كثيرة ورياض كبيرة (أنظر التعليق رقم: 2)، صالحة للعديد من المزروعات والثمار، وفي ذلك نجد الحسن الوزان (ت 959هـ/1552م) يصف مدينة تيكورارين (أنظر التعليق رقم: 3)، بقوله: "لهذه البلاد أراضي كثيرة صالحة للزراعة" (الوزان، 1983: 133) كما ذكر كاريخال (ت 977هـ/1570م) أن سكان مدينة تيوت (أنظر التعليق رقم: 4) كان لهم أراضي كثيرة يزرعونها ويرعون فيها الماشية، وتحيط بمدينتهم بساتين كثيرة تنتج كميات كبيرة من الفواكه (كربخال، 1988: 17)، أما عن السراج (ت ق 11هـ/17م) خلال رحلته فقد وصف قرية بني أركان أول مدخل لبلاد توات (أنظر التعليق رقم: 5) بقوله: "طيبة كثيرة الزرع والثمار المختلفة" (السراج،

(1968: 29)، ولم تكن بلدة الدميرنة لتُلقب بهذا الاسم، لو لم تكن أراضيها صالحة لنمو شجرة الدمران المتواجدة بكثرة في المنطقة (العياشي، 2006: 78).

3.1.2 الوفرة المائية:

تُعتبر المياه شريان الحياة واستمرارها وديمومتها مصداقا لقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (سورة الأنبياء، الآية: 30) وقد عُرِفَت العديد من مناطق الجنوب الغربي الجزائري بهذه النعمة؛ حيث كان لمدينة تيوت "مياه دافقة عذبة" (الناصري، 2013: 192)، وبها نهر سوس الكبير يجري بقرمها، ويخترق ضواحيها، وتمر أحد سواقي النهر بوسط الجامع الكبير الموجود بالمدينة، كما يَعْبُرُ هذا النهر على سفح مدينة تسكدلت (أنظر التعليق رقم: 6)، (كاربخال، 1988: 18)، هذه المدينة الأخيرة التي أحدقت به العيون الكثيرة، وكانت كذلك قرية بني أركان ببلاد توات "ذات عيون جارية وأنهار، على مر الليالي والنهار" (السراج، 1968: 29، 133).

وتؤكد النصوص الرحليّة، وجود عيون وبرك مائية في مجاري الأودية والشعاب بحوض السّاورّة، والتي من أبرزها بركة العمود العذبة المتدفقة، والشعاب الجارية المحيطة بها، وغير بعيد من ذلك ذُكرت منطقة غرب القنادسة (أنظر التعليق رقم: 7)، تسمى مَسُور بها مياه غزيرة، كما وُجِدَت كذلك أودية ترافق الطريق الرابط بين سجلماسة والقنادسة من جهة، ومن القنادسة إلى مدخل "بلاد توات" من جهة أخرى، وأشهر أودية المنطقة وادي الصفصاف، وادي جير وواد الساورّة (بلاغ، و مقصودة، 2022: 93-94)، هذا الأخير الذي اعتبره الرحالة الناصري (ت 1239هـ/1823م) أطول أودية المغرب مسافة، كما أثنى على بعض المواضع القريبة منه أثناء ارتحاله بقوله: "مدشروكد...وماؤه في الصفا لجين، وفي العذوبة حلو...أبي يعلى، وماؤه كثير عذب" (الناصري، 2013: 187، 184).

وإضافة لاعتماد السكان على مياه العيون بالدرجة الأولى، فقد حرصوا كذلك على حفر الآبار واستخدام مياهها بالدرجة الثانية، وكانت طريقة حفر الآبار في البلاد الصحراوية خاصة في بلاد توات وتيكورارين غريبة جدا، ذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلبة، فتُنحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يتدفق الماء، ثم يصعد العمال المربوطون في حبال وثيقة، ويقذفون عليها زبرة من الحديد تُفيض الماء على وجه الأرض حتى يصير واديا (ابن خلدون، العبر، ج7، 2000: 76)، والملاحظ أن الآبار انتشرت بكثرة في واحة توات أكثر من غيرها في المناطق الصحراوية الأخرى (إسماعيل العربي، 1983: 23).

وليس من المبالغة في شيء، إذا قلنا أن السكان بمنطقة توات وتيكورارين وتيدكلت، قد عملوا على جلب المياه بطريقة هندسية مدهشة اعتبرت من أهم أنظمة الري التقليدية في العالم وأغربها، وذلك من خلال ما يعرف بنظام الفقارة، وهي عبارة عن سلسلة من الآبار المتصلة فيما بينها بواسطة قنوات، تبدأ من البئر الأم لتصل إلى المئات، والمسافة الفاصلة بين البئرين تتراوح بين 06 و10 أمتار، (ساقني، 2017: 177-183)، ويمكن للفقارة أن تضم حوالي 500 بئر، وتمتد على مسافة طويلة تزيد على 10 كلم (حامد لمين، 2016: 12)، وتختلف الفقارة من منطقة لأخرى حسب الميل والانحدار، أو حسب نظام التوزيع أو وفق مصدرها المائي، وقد تصنف حسب عدد الآبار ودرجة استغلال مياهها (شماخي، 2018: 949)، وبواسطة نظام الفقارة تمكن الإنسان التواتي من تعمير المنطقة وتلبية حاجته وحاجة غبره من المنتجات الفلاحية (قادة، 2017: 71)، وبفضل هذه التقنية تحولت الصحراء إلى جنات خضراء (تسكورث، 2021: 421).

4.1.2 اتساع العمران:

إن التقدم العمراني ضروري في ازدهار النشاط الاقتصادي وتواجد الصناعات، وهذا ما أكده ابن خلدون (ت808هـ/1406م) بقوله: "وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة

الصنائع... أما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا بسيط" (ابن خلدون، 2010: 502)، ومن بين الصحاري التي اتسع عمرانها، وكثرت قصورها واستوطنها الناس صحراء توات التي وُجدت بها قصور كثيرة (أنظر التعليق رقم: 8) فاق عددها المائتين، وإلى جانبها جهة المشرق نجد منطقة تمنطيت قد تمدنت واتسعت خطتها، حتى أصبحت تناهز الحواضر الكبرى، كما كانت مدينة تيكورارين هي الأخرى عامرة أهلة، بلغ عدد قصورها ما يقارب مائة قصر، واصفا إياها ابن خلدون بقوله: "واستبحرت في العمران وغصت بالساكين" (ابن خلدون، ج 7، 2000: 76).

ويزداد الأمر وضوحا فيما ذكره الحسن الوزان عن قصور وقرى تيكورارين، والتي عدّها بحوالي خمسين قصرا، وأكثر من مائة قرية، ونظرا لاتساع عمرانها كانت تجتمع وتُقيم بها القوافل التجارية من كل حذب وصوب (الوزان، 1983: 133)، ولعل هذا التجمع هو من جعلها تُلقب باسم تيكورارين، والتي تعني التجمعات السكنية أو المعسكرات باللهجة المحلية البربرية (بيدة، 2022: 706)، كما كانت مدينة تسبّت (أنظر التعليق رقم: 9) هي الأخرى من المدن المأهولة، ضمت أربعة قصور وقرى عديدة (الوزان، 1983: 133)، واعتبرت مجمع القوافل الآتية من تنبكتوا (العياشي، 2006: 79)، إضافة لبلاد القنادسة التي كانت عامرة أهلة تصلى بها صلاة الجمعة (الناصر، 2013: 184).

2.2 الإسهامات الزراعية والحيوانية للجنوب الغربي الجزائري:

1.2.2 المحاصيل الزراعية:

انطلاقا من الصورة التي قدمتها كتب الرحلة والجغرافيا، تبين أن أهم ما كان يزرع على الأراضي الجزائرية عامة القمح والشعير والحنطة، غير أنه لا يمكن إنكار أن الحواضر الواحية كانت أقل زراعا وضرعا من المراكز الداخلية والساحلية، وذلك راجع للطبيعة الجغرافية

للمنطقة الصحراوية، إلا أن ذلك لا يعني أن الصحراء ظلت دوما مظهرا للعزلة والندرة، بل شهدت العديد من حواضرها ازدهارا ووفرة، ولنا في توات وتيكورارين خير دليل وعبرة؛ حيث كانت أراضيهم تنتج الكثير من المنتجات الفلاحية (قادة، 2017: 73)، وذلك لاستعانة السكان في سقيها بمياه الآبار، وتصليحها بسماد الخيل (الوزان، 1983: 133).

ومن بين المنتجات الزراعية التي اشتهرت بها المنطقة الشعير الذي كانت تنتجه أراضي تسبّت (الوزان، 1983: 133)، والقمح والشعير وسائر الخضر التي كانت تنتجها منطقة تيوت بكثرة، إضافة لجنس نباتي آخر من الفصيلة النجيلية ساهم في استقطاب التجار من الأقطار جميعها، بغية اقتنائها عُرف بقصب السكر، ويصف ذلك كاربخال بقوله: "هناك مغارس عظيمة لقصب السكر وعدد عديد من مطاحنه، يقصدها التجار من جميع الأنحاء...لأن السكر بها في غاية الصفاء" (كاربخال، 1988: 29)، وإلى جانب الوفرة المذكورة في المدن السالفة الذكر؛ فقد حذت قرى المنطقة حذو حواضرها، حيث كان بقرية بني أركان ببلاد توات أنواع كثيرة من الزرع (السراج، 1968: 29).

وجدير بالذكر، أن الفواكه كانت ضمن قائمة المنتجات الفلاحية التي اشتهرت بها المنطقة، ونلمس هذا من خلال إشارات المؤرخين والرحالة الذين اكتفوا في الكثير من الأحيان بالتأكيد على وجودها وكثرتها دون تحديد أنواعها وأسمائها، وفي ذلك يذكر ابن خلدون أن المنطقة حققت اكتفاءها الذاتي وأصبحت تُصدر منتجاتها لبلاد السودان بقوله: "فواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرارين" (ابن خلدون، 2000: 70)، واستمر هذا الإنتاج خلال القرن الحادي عشر للهجرة؛ حيث ذكر الرحالة السراج أن قرية بني أركان بوابة بلاد توات بها أنواع كثيرة من الفواكه المختلفة الجنس والنوع (السراج، 1968: 29).

ومن بين الفواكه التي عددها لنا كتب الرحلة والجغرافيا، العنب والرمان (الناصري، 2013: 193)، والخوخ والتين والجوز التي أنتجهم بساتين مدينة تيوت بكميات كبيرة (كاربخال،

1988: 17)، وكذلك التمور بأنواعها وأشكالها، وذلك لاختصاص الواحات بغرس أشجار النخيل (شرف الدين، 1999: 181)؛ حيث كانت واحات حاضرة تيكورارين كثيرة النخيل (الوزان، 1983: 133)، وأراضي مدينة تديكلت هي الأخرى أحرق بها النخيل الوفير (السراج، 1968: 134)، ومدينة تسبّت أنبتت أراضيها التمر الكثير (الوزان، 1983: 133)، وهذا ما أكده الرحالة العياشي في رحلته؛ حيث ذكر أن بمدينة تسبّت أنواع كثيرة من التمور، وجل عيش أهلها من التمر، وأن سعره رخيص مقارنة بمناطق أخرى، فكان التجار والحُجاج ينزلون بالمدينة لاقتنائها (العياشي، 2006: 79).

2.2.2 الثروة الحيوانية:

تنوعت الثروة الحيوانية بالجنوب الغربي الجزائري واحتلت الإبل السواد الأعظم ضمن قائمة الماشية، وقد استخدم الجمل في المغرب الإسلامي -بصفة عامة- كحيوان للحمل والركوب منذ القرن الثالث للميلاد، وانتشر في الصحراء وأصبح سفينتها المعروفة (غيرستر، 1961: 16)، وشكل هذا الحيوان عاملا مهما في زيادة العمران، وفي تحسين ظروف المعيشة والتواصل الثقافي، الاجتماعي والتجاري بين مختلف أطراف الحواضر الواحية والتل، ودون الإبل كان من المحتم أن تظل الواحات مغلقة على نفسها (إسماعيل العربي، 1983: 45)، لذا حظيت باهتمام سكان الصحراء منذ القدم، فحرصوا على اقتنائها وتربيتها بكثرة، وهذا ما أشار إليه ابن حوقل (ت 367هـ/977م) بقوله: "وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم، وسكان صحارهم التي لا تدانها في الكثرة إبل العرب" (ابن حوقل، 1992: 95).

وبالعودة إلى فترة الدراسة، فقد أكدت كتب الرحلة والجغرافيا على توفر الإبل وبكثرة؛ حيث كان أهالي توات يقومون بتربيتها للانتفاع بألبانها، وبرها، جلودها ولحومها، وأيضا لاستغلالها كوسيلة نقل في سير القوافل؛ فهي المورد الهام للواحات اقتصاديا منذ ظهورها (هرياش، 2012: 219). كما كان سكان مدينة تيكورارين يشترونها من الأعراب الواردين على الأسواق التي تقام بالمنطقة، وغالبا ما يقتنون جمالا معطلة لم تعد صالحة للركوب بغية أكل

لحومها. ولم يقتصر اهتمام سكان المنطقة على الإبل فقط، بل تعداها ليشمل الخيل والماعز (الوزان، 1983: 133)، وهي نفس الثروة الحيوانية التي وُجدت بمدينة تيكملت؛ حيث كان سكانها يملكون خيولا قصيرة وعددا وفيرا من الماعز، غير أن المواشي الأخرى قليلة؛ لأنه يصعب عليهم تربيتها بسبب طبيعة التضاريس والصخور الوعرة (كاربخال، 1988: 18)، كما عُرفت مدينة تسبت ببيع الخيول في أسواقها (العايشي، 2006: 29).

3.2 الإسهامات الصناعية والحرفية للجنوب الغربي الجزائري:

من بين العقبات التي تواجه الباحث في مجال التاريخ الاقتصادي صعوبة الفصل بين الحرفة والصناعة؛ حيث يذهب المؤرخ الشويري في تعريفه للمصطلحين إلى أن الحرفة أعم وأشمل من الصناعة، إذ يدخل في نطاقها كل عمل يقوم به الإنسان كالتجارة والزراعة وتعليم العلوم، والسمسرة والطبابة والقبالة، أما الصناعة فهي عمل يدوي يقوم به الصانع عن طريق تحويل المادة الخام إلى مادة مصنعة، تسمى باسم غير اسم مادته الأولية، كالطحانة والخبازة والطباخة، أو في صفتها كالتجارة والحداة والصياغة (الشويري، 1904: 8).

والملاحظ في كتب الرحلة والجغرافيا أنها لم تتطرق بإسهاب لهذا المجال غير بعض الإشارات والنصوص التي وقفنا عليها، والتي تؤكد وجود حرفة البناء، ويتبين ذلك من خلال كثرة القصور المنتشرة بالمنطقة؛ حيث كانت تفوق خلال القرن (9هـ/15م) المائتين قصر بمنطقة توات، وتناهر المائة بمنطقة تيكورارين (ابن خلدون، 2000: 76)، وخلال القرن (11هـ/17م) فاق عدد القصور ببلاد توات أيضا مائتي قصر (بوكراييلة، 2017: 195)، وأهم المواد التي استعملها البناؤون الطين، الطوب، خشب النخيل والملاط، ويرجع أسباب اختيار هذه المواد لكونها تعتبر كعازل لدرجة الحرارة في الصيف، ومانع للبرد القارس في الشتاء (منصوري، 2015: 159).

وداخل تلك القصور برزت العديد من الحرف، أبرزها حرفة القيافة، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون عند حديثه عن الطريق الرابط بين مدينة تمنطيت (أنظر التعليق رقم: 10) وبلاد السودان بقوله: "ولا يمر الوارد إلى بالدليل الخبير من الملمثمين الظواعن بذلك القفز، يستأجره التجار على الدربة بهم فيها بأوفر الشروط" (ابن خلدون، 2000: 77)، وقد اشتهر بهذه الحرفة التواتيون بكثرة، وعُرفت بينهم بقص الجرة، وبرز في توات الكثير ممن امتهن هذه الحرفة، بل عُرفت بعض العائلات بها، وقلما تجد قصر ليس به شخص أو مجموعة من الأشخاص يمارسون هذه الحرفة، ولم تكن مقتصرة على الرجال دون النساء، بل برزت الكثير من النساء ممن مارسن هذه الحرفة (جعفري، 2018: 335).

ولا نغفل هنا عن حرفة أخرى كانت تمارس داخل وخارج القصور، وهي حرفة حفر الآبار وتنظيم الفقارة، والتي ساهمت منذ ابتكارها مساهمة كبيرة في تشكيل أغلب قصور المنطقة، ويعد نظام الفقارة بتنظيمه المحكم مؤسسة اقتصادية هامة، وذلك من خلال أسهم ملاكها ومساهميها وشركائها، ويعتبر كذلك ابتكارا تقليديا أدى دورا اجتماعيا من خلال تعزيز الروابط الاجتماعية بين سكان القصور في مناطق توات وتيكورارين وتيديكلت، من خلال توفير مناصب شغل للعاطلين عن العمل، عن طريق توظيف رؤوس الأموال في شق الفقارات واستحداثها (ساقني، 2017: 180)، وقد خضعت الفقارة لنظام صارم في الإدارة والتسيير؛ حيث تمتلك كل فقارة سجلا يسمى بـ "الجريدة أو الزمام" تكون فيه حيازات الأفراد، ويعهد حفظه إلى إمام القرية في الغالب (حامد ملين، 2016: 13).

وإضافة للحرف السابقة وُجدت صناعات عديدة بالمنطقة كصناعة الحلي، حيث كان التجار الأجانب يتزاحمون على بلاد توات لبيع غبار الذهب وسبائك الفضة للصياغين الذين يحملونها إلى ورشهم، إضافة لصناعة الفخار؛ إذ ارتبط التواتيون بمناجم الطين فحملوا الطين لبناء مساكنهم المحصنة ذات الجدران العالية، كما استعملوه لصناعة أنيتهم، وكذلك

صناعة النجارة؛ حيث استعمل التواتيون جذوع النخل والأشجار الشوكية لصناعة الأبواب والنوافذ، وقبضات السكاكين والخناجر، واعتمادا على الثروة الحيوانية المحلية والقادمة مع القوافل، استعمل التواتيون الجلود لصناعة الخفاف والقرب والسروج والأدوات الموسيقية (بعثمان، 2013: 125-128).

4.2. الإسهامات التجارية للجنوب الغربي الجزائري:

1.4.2. الطرق والمراكز التجارية:

تسير من الحواضر الجزائرية جملة من الطرق التجارية التي ترتبط مع أقاليم وبلدان خارجية؛ بحيث نلاحظ ارتباطا وثيقا مع إفريقية ومصر والمشرق وبلاد السودان، وما أهلها لذلك هو موقعها الجغرافي الذي جعل المدن الشمالية تكاد تكون امتدادا طبيعيا لجنوب أوروبا، والمدن الجنوبية مرتبطة بالصحراء، وهو ما جعلها تتوسط عملية انتقال البضائع والأفكار، بين شمال البحر الأبيض المتوسط وبلاد السودان، هذا الأخير الذي كانت تأتيه القوافل التجارية الجزائرية على مدار السنة وخاصة في الشتاء (شرف الدين، 1999: 154، 88)، وكانت أهم حواضره التي ارتبطت ارتباطا مباشرا مع الصحراء الجزائرية مدينة تادمكت وكوكو وقرافون (بن عربية، بوسالم، 2021: 92)، كما عرف إقليم توات على وجه الخصوص نشاطا تجاريا مع أسواق مدن تمبكتو وغاو وجني وولاتة، وذلك نظرا لوقوع هذا الإقليم على طرف الصحراء المشرف على بلاد السودان (بخدة، 2014: 37).

ونتيجة لموقع بلاد توات الإستراتيجي الذي يتوسط الصحراء، فقد أصبحت منطقة عبور للقوافل التجارية، ونقطة التقاء للقوافل الحجية والعلمية القادمة من مختلف الحواضر الإفريقية والعربية مثل غدامس، تنبكت، فزان، قابس، مراكش، فاس، وغيرهم (جعفري، 2021: 31)؛ حيث ارتبطت مع غدامس شرقا بمسافة قُدرت بحوالي 27 يوما تقريبا، وبمدينة تومبكتو جنوبا بمسافة فاقت مدة 29 يوما، أما مع مدينة فاس غربا ففاقت مدة سير القوافل التجارية شهرا، وهي المسافة نفسها التي يقطعها التجار باتجاه الجزائر شمالا

(كرزيكة، 2017: 161)، وقد استغل أهل توات موقعهم الوسطي بين أسواق الشمال والجنوب فاشتغل الكثير منهم كتجار وسطاء في سلع هذه الأسواق؛ بحيث أصبحت بحق حلقة وصل بين الجنوب الغربي للجزائر والسودان الغربي، وأصبحت واحات منطقة توات خلال القرن العاشر الميلادي من أكثر المناطق نشاطا في تسيير القوافل التجارية بين السودان وبلدان الشمال (عباس، 2017: 209-211).

وما ساعد في هذه الحركة بين الشمال والجنوب وقوع بلاد توات بأقاليمها المتنوعة مثل إقليم تسبّت على الطريق المؤدية من فاس وتلمسان، إلى مملكة أكدز في بلاد السودان (الوزان، 1983: 133)، وهذا ما جاء في وصف الرحالة العياشي (ت1090هـ/1679م) بقوله: "ودخلنا في أول عمالة توات، وهي قرى تسابت...وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من تنبكت، ومن بلاد أكيدز من أطراف السودان" (العياشي، 2006: 78)، كما كانت حاضرة تديكلت هي الأخرى مطلة على مشارف بلاد السودان، وبموقعها أصبحت طريقا تجاريا هاما سهل العبور، سلكه كبار الرحالة، ومن بينهم السراج الذي مرّ عليه أثناء عودته واصفا إياه بقوله: "وسلكنا طريق تديكلت أسفل بلاد توات، وهذه الطريق أقرب من الأولى وأسهل منها" (السراج، 1968: 133).

وإضافة للمراكز السابقة، فقد كانت بلاد تيكورارين هي الأخرى من المحطات التجارية الهامة، لوجودها على محور طريق تجارة الصحراء التي اشتهرت في العصر الوسيط بين بلدان شمال إفريقيا وبلدان السودان الغربي (بيدة، 2022: 706)، وهذا ما أكدّه الحسن الوزان بقوله: "وهنا مجمع القوافل"، وقد اعتاد سكانها كثيرا على الذهاب إلى بلاد السودان، فكانوا رفقة البربر الأجانب ينتظرون القوافل السودانية الكبرى للتوجه معهم، كما كانت المدينة أيضا قبلة لتجار فاس وتلمسان الذين يأتون ببضائعهم فيجنون الأرباح الطائلة (الوزان، 1983:

(134)، أما عن إقليم تيوت؛ فهو الآخر يعتبر مركزا تجاريا هاما يقصده التجار من الأنحاء جميعها، من فاس ومراكش وبلاد السوس (كاربخال، 1988: 29).

ولا نغفل هنا عن حاضرة أخرى اعتبرت كهمة وصل بين الحواضر الصحراوية، ألا وهي حاضرة تندوف (أنظر التعليق رقم: 11) التي أثنى عليها الرحالة والجغرافيون خلال الفترة المدروسة؛ حيث ذكر التنبكي (ت 1058هـ/1648م) أنه سلك الطريق المؤدي لها و نزل بها فزوده أهلها بألف دينار، وهو مبلغ معتبر في تلك الفترة يدل على الرخاء الاقتصادي لسكانها (التنبكي، 2014: 109)، وقد وردت مدينة تندوف في المصادر التاريخية كدلالة على حركيتها وازدهارها، خاصة وأنها كانت محطة مهمة للقوافل التجارية، واستقطبت الكثير من العلماء، فكل من مر بها أثنى عليها (حامد، وحتوية، 2020: 1327).

2.4.2 مخاطر الطرق التجارية:

من المفيد في هذا المجال، أن لا نتجاهل المخاطر المحدقة بالطرق التجارية الصحراوية، والتي من بينها الرياح القوية التي تشتت القوافل التجارية، بل وحتى تهلكها (ابن حوقل، 1992: 65)، وهي رياح تهب خفيفة ولكنها لا تلبث أن تتحول إلى أعاصير وزوابع مشهورة بعُتوها وأخطارها بين سكان الصحراء، قد يبلغ ضررها أن تمحو معالم الطرق وتقتلع جذور النخل، أو تغطي بساتين النخيل، أو تدفن قافلة أو قرية بأكملها تحت الرمال (إسماعيل العربي، 1983: 16)، إضافة إلى الحرارة الشديدة، ونقص الكأ والموارد المائية في بعض المناطق (كعبوش، 2020: 233)، وهذا ما أشار إليه الرحالة السراج عند خروجه من إقليم توات بقوله: "فسرنا مستقبلين لأرض الصحرا، الجدبة القفرا...ليس فيها ماء ولا شجر، ولا ما ينتفع به نعم ولا بشر" (السراج، 1968: 134).

ومن بين المخاطر التي هددت القوافل التجارية على مر العصور، أن الركب كانوا مهددين بقطاع الطرق الذين يترصدون بسلعهم وبضائعهم (كعبوش، 2020: 233)، وهذا ما جعل

الركب المسافرين مع قافلة الرحالة السراج يقيمون في ضواحي إقليم توات لمدة سبعة عشر يوما، بغية انتظار الوفود والقوافل التجارية حتى يزداد عددهم، ويتسنى لهم التضامن والتآزر طيلة الرحلة، وفي هذا الصدد يقول السراج: "أقمنا فيه سبعة عشر يوما...لانتظار الرفيق، لسلوك الطريق، لكونه مخوفا، وبالمكاهة محفوف...حتى وفد علينا وفد الجراوة" (السراج، 1968: 134)، كما أن شمساعة الصحراء وكثرة كثبانها الرملية، وتبحر طرقها، كانت هي الأخرى تشكل تهديدا للمسافرين الغرباء الذين يتمون في الصحراء، ومن بين الطرق الصعبة التي لا يستطيع الركب مرورها إلا بالدليل الخبير، الطريق الرابط بين تمنطيت وبلاد السودان (ابن خلدون، 2000: 77).

3.4.2 المبادلات التجارية:

تُجمع كتب الرحلة والجغرافيا على أن الصحراء الجزائرية بصفة عامة، عرفت مراكز تجارية هامة، كانت تأتمن البضائع وتذهب منها لكل الجهات، وما ساعد في هذه الحركة التجارية تمتع تجار المنطقة بالمبادئ السامية، والأخلاق النبيلة والمعاملات الحسنة التي كان أساسها الدين الإسلامي (ديوب، دت: 447)، ومن بين السلع التي اقتصت بتصديرها قصور الجنوب الغربي الجزائري لبلاد السودان خلال القرن (9هـ/15م)، المنتجات الفلاحية الفائضة بمنطقة توات وتيكورارين (ابن خلدون، 2000: 70)، ومن غير المستبعد أن الفواكه كانت ضمن قائمة السلع التي اعتاد سكان تيكورارين حملها لبلاد السودان خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي (الوزان، 1983: 134).

واشتهرت منطقة توات بصادراتها المتنوعة، والتي من بينها الذهب والتمر وأنواع الزرع، ونظرا لخص أسعار هذه المواد، أقامت قافلة الرحالة العياشي بمنطقة تسبت لمدة ستة أيام بغية اقتنائها، بعد أن لاحظوا غلاءها في منطقة تافيلالت (العياشي، 2006: 79)، كما قام تجار توات ببيع الجمال لاستغلالها كوسيلة نقل تقوم على أساسها تجارة القوافل، إضافة لتصدير

مشتقاتها (هرباش، 2012: 219)، واختصت منطقة تيوت كذلك بتصدير السكر ومصنوعات الجلود التي كان يقصدها التجار من فاس ومراكش وعدة أماكن أخرى (كاربخال، 1988: 29)، دون أن يخفى علينا دور اليهود والأندلسيين في المنطقة، الذين ساهموا في ترويج المنتجات الحرفية (بعثمان، 2013، 125)،

أما عن السلع الواردة، فبما أن منطقة الجنوب الغربي كانت نقطة التقاء وممر للقوافل التجارية والحجّية القادمة من مختلف الحواضر الإفريقية والعربية (جعفري، 2021: 31)، فمن المؤكد أن سلعهم كانت تعرض للبيع في الأسواق اليومية والأسبوعية، والتي من بينها الجمال التي كان يشتريها سكان تيكورارين من الأعراب الواردين على الأسواق، إضافة للشحم المالح الذي يأتي به تجار فاس وتلمسان ويجنون منه أرباحا طائلة (الوزان، 1983: 134)، كما كانت أسواق تسبت هي الأخرى أهلة بالتجار، عامرة بالبضائع والسلع التي تُجلب من الأقطار جميعها، كالنخيل والحريز والملابس النسيجية، التي تستورد من بلاد السودان الغربي (العياشي، 2006: 79).

3. الأوضاع الاجتماعية بالجنوب الغربي الجزائري ما بين القرنين (10-12هـ/16-18م)

1.3 التركيبة البشرية:

يُصنف إقليم الجنوب الغربي الجزائري ضمن الأقاليم التي عرفت استقرارا مبكرا للإنسان، وذلك لتوفر شروط الاستقرار به جميعها؛ حيث تذكر المصادر التاريخية أن بلاد توات كانت أهلة بالسكان منذ أزمنة ما قبل التاريخ، إذ سكنها الإنسان منذ مليوني سنة، وترك فيها شواهد وآثارا في شكل أحجار مهيأة مصنوعة تمثل أقدم ما نعرفه من صناعة بشرية (شتر، 2015: 65)، وإنه لمن الصعب تقريبا دراسة المجتمعات البشرية التي تعاقبت على جنوب غرب الصحراء دون الوقوف عند المجتمع التواتي، وبالأخص في الفترة الممتدة ما بين

القرنين (09-13هـ/15-19م)، والتي تمثل فترة اتساع العمران والازدهار والرقى (ديوب، دت: 245).

إن العناصر السكانية التي كونت المجتمع التواتي خلال الفترة المدروسة، تشكلت من خمس شرائح رئيسية، أولهم البربر المثلثين وهم السكان الأوائل للمنطقة، ثم العرب الذين سكنوا مبكرا على مراحل متعددة، ثم يلي العرب الزوج الذين استوطنوا الإقليم على فترات متعاقبة، ثم يليهم الحراثون وهم لا يمثلون جنسا بشريا جديدا، بل هم نتيجة تزاوج وامتزاج الزوج بالعرب والبربر، إضافة ل طبقة اليهود التي يرجع وجودها ببلاد توات إلى القرن (08هـ/14م)، وربما قبل ذلك بكثير حسب بعض الروايات (شتره، 2015: 65)، ويرجع أسباب استقرارهم بالمنطقة لكونها همزة وصل بين المراكز التجارية، وتوفرها على الماء والكلأ، إضافة لبعدها عن سلطة القرار (ذهبي، وعوادي، 2022)، وما إن حل القرن (10هـ/16م) حتى كانت هذه الطبقة قد استوطنت بمنطقة بشار، وتمركزت أكثر بقصر القنادسة وقصر اقلي بواي الساوره (برشان، 2014: 310).

ويبدو أن عدد المستوطنين من اليهود ببلاد تيكورارين خلال القرن (10هـ/16م) كان كبيرا جدا، وأن معظمهم كانوا أغنياء محتكرين للنشاط الاقتصادي لاشتغالهم بالتجارة، إلى أن تدخل أحد فقهاء تلمسان (الوزان، 1983: 134)، يُدعى عبد الكريم المغيلي (ت 10هـ-16م)، الذي لاحظ بعد زيارته للمنطقة أنهم احتكروا الصناعات المربحة، وطغوا وتجبروا ونظموا التجارة وفق شعائهم، وكان ذلك أمام أعين أهل العلم وقضاة العدل، فأصدر فتاوى تحث على إجلاء اليهود من المنطقة، وما إن وصلت فتاوى المغيلي للعامة وأيدها بعض الفقهاء حتى بدأ السكان يهدم بيع اليهود وطردهم (بعثمان، 2013: 133)، ونهب أموالهم وتقتيل معظمهم (الوزان، 1983: 134).

2.3 ظواهر اجتماعية:

من الظواهر الاجتماعية التي أشارت لها كتب الرحلة والجغرافيا، ظاهرة احترام طائفة الأولياء والصالحين التي حظيت بمكانة اجتماعية هامة، فكان العامة يطلبون الدعاء منهم أحياء، ويتبركون بزيارة قبورهم أمواتا؛ حيث ذكر الرحالة السراج أثناء رحلته، وعند نزوله في منطقة الدعامشة ببلاد توات أنه التقى رفقة الركب مع سيد صالح معروف بين الأوساط بالبركة والصالح، والدين والورع والفلاح، اسمه سيدي علي بودريالة، يبدو على وجهه الخير والصالح، وتظهر عليه سمات العبادة، والزهد والديانة، فالتمسوا الدعاء منه، راجين من الله تعالى الإجابة (السراج، 1968: 28-30)، وغير بعيد عن ذلك مكانا وزمانا يذكر الرحالة العياشي أنه خلال وصوله لمنطقة تسابت، زار رفقة المسافرين قبر الولي الصالح المتبرك به حيا وميتا سيدي محمد بن صالح المعروف بعريان الرأس (العياشي، 2006: 79).

ولا نغفل هنا عن ذكر ظاهرة خطيرة ظهرت بين طبقات المجتمع، ألا وهي ظاهرة التفاوت الطبقي بين الأغنياء والفقراء؛ حيث كان السكان في بعض المناطق يعانون الفقر المدقع، في حين البعض الآخر منهم في غنى فاحش، لا سيما ثراء طائفة اليهود الذين سيطروا على الاقتصاد واستحوذوا على الثروات، وهذا التفاوت ذكره الرحالة والجغرافيون أثناء وصفهم لتلك المناطق؛ إذ يصف الحسن الوزان سكان بلد تسبت بقوله: "سكانه فقراء جدا" (الوزان، 1983: 133)، كما يذكر مارمول كاربخال أن بلدة تيوت كان يقطنها أغنياء يمارسون حرفة الفلاحة والتجارة، ومدينة تيدكلت كان يستوطنها أغنياء يمتلكون ثروة مميزة (كاربخال، 1988: 29، 18).

3-3 الكرم والضيافة:

الكرم من الأخلاق العريقة، والقيم النبيلة، التي عرفها سكان الجنوب الغربي الجزائري منذ القدم، فجعلوها دليلا للرفعة والافتخار، وبرهاناً للجود والإيثار، ولم يقتصر كرمهم على الأقارب فقط، بل تعدى ذلك ليشمل الغرباء والأجانب، إذ يذكر لنا الرحالة مواقف مؤثرة

مشرفة خلدتها التاريخ، نكاد لا نراها في المجتمعات غير الإسلامية، ومن أمثلة ذلك حفاوة الترحيب ودفء الاستقبال للمسافرين والحجيج؛ حيث يصف الرحالة السراج استقبال سكان تديكلت لركبه بقوله: "أهلها سادات صلحاء أفاضل، تلقوننا بالرحب والقبول وبالميسور من الطعام"، ورغم إقامة الركبان بضواحي المنطقة لمدة تجاوزت سبعة عشر يوما، إلى أنهم لم يصيهم أذى يُذكر (السراج، 1968: 134).

كما تتجلى لنا مظاهر الكرم والضيافة كذلك بمدينة القنادة، التي خرج سكانها جملة واحدة على اختلاف أعمارهم، شيوخا وكهولا وصبياناً، فرحين مسرورين مستبشرين بقدوم وفد الحجيج الذي كان فيه الرحالة الناصري، في مظهر تقشعر منه الأبدان، تعلوه طلقات البارود وأهازيج الناس، الذين قاموا بإنزالهم بساحة ديارهم، وبالغوا في استضافتهم لمدة ثلاثة أيام (الناصرى، 2013: 184)، وفي تلك الأجواء نفسها من الفرح، نلمس طابع الكرم لدى سكان قصر بشار؛ إذ لما قدم عليهم وفد الدرعي في طريق عودته من البقاع المقدسة عام (1122هـ/1710م) جادو عليهم بالتمر الحسن، وناولوهم وجبة العشاء بطبق من كسكس، ولم يقتصر إكرامهم للضيوف على تقديم الطعام وتوفير الأمان فقط، بل تجاوزوا ذلك بتوزيع الهدايا على الركبان (بلاغ، ومقصودة، 2022: 103).

4.3 التضامن والتكافل الاجتماعي:

تظهر ملامح التضامن الاجتماعي بالجنوب الغربي الجزائري من خلال ممارسة حرفة القيافة، التي كان لها دور اجتماعي كبير داخل المجتمع القصورى، فقد ساهم القائف مساهمة كبيرة في المجتمع على الأصعدة جميعها، من خلال المساعدة عن كشف اللصوص والمعتدين داخل القصر، والبحث عن الأشخاص التائهين في الصحراء، وكذلك معرفة وتقفي الحيوانات الضالة كالجمال والحمير والخيول وحتى الغنم، إضافة للمساهمة في المحافظة على

الممتلكات والمنتوجات الزراعية، من خلال تحديد المعتدين على الواحات. لقد كان وجود القافي في القرية يعطي حصانة ومناعة، والسارق كان يدرك تماما أنه سيكشف أمره لا محالة، وهذا ما أسهم في تراجع السرقة (جعفري، 2018: 335-344)، لأنه حقيقة لولا معرفة الأثر لكثرت السرقات، ولتعطلت منافع الناس، ولوجد كل مُفسد مراده منها (الجباري، 2014: 128).

وفي المنحى نفسه، يعد نظام الفقارة بتنظيمه المحكم مؤسسة اقتصادية أدت دورا اجتماعيا هاما من خلال تعزيز الروابط الاجتماعية بين سكان القصور؛ حيث وفّرت هذه التقنية مناصب شغل للعاطلين عن العمل، فخلقت بذلك جوا يسوده التأخي والتآزر بين طبقات المجتمع، كما شجعت المبادرات الإنسانية التي تقوم على التعاون والتضامن الجماعي، المتمثل على وجه الخصوص في حفر الآبار وتنظيمها تبرعا، وتوفير المياه الصالحة للشرب صدقةً، إضافة للتضامن فيما بينهم عند الأفراح والشدائد (ساقني، 2017: 182). فكانوا بحق ممثلين لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (سورة المائدة، الآية: 02).

4. خاتمة:

يمكن أن نتبين في خاتمة هذا البحث؛ أن مظاهر الازدهار الاقتصادي للجنوب الغربي الجزائري اتضحت من خلال الإمكانيات المتنوعة، التي ساهمت في تنشيط القطاعات المنتجة، ومن بين تلك المقومات التي توصلت إليها الدراسة نجد النظرة الإسلامية للعمل، والتي تحث على السعي في طلب الرزق لكي يكون المسلم منتجا مساهما في قوة اقتصاد بلده، إضافة لتوفر المنطقة على أرباض كثيرة ورياض كبيرة صالحة لمختلف المزاروعات التي وقفت عليها الدراسة، ورغم إجماع الكثير على أن الصحراء منطقة حذاء تفتقر للماء، إلا أن الرحالة والجغرافيين

أكدوا على الوفرة المائية (أنهار، عيون، آبار) في الكثير من المدن الصحراوية، كما أشاروا كذلك لاتساع العمران ووفرة اليد العاملة.

واتضح من الدراسة أن الحواضر الواحية في المنطقة ساهمت في دفع العجلة الاقتصادية، من خلال وفرة ثرواتها الزراعية والحيوانية والتي صامت المصادر الجغرافية عن ذكر أنواعها في بعض المناطق، واستفاضت بذكرها في مناطق أخرى، ومن بين المنتجات الزراعية التي ذُكرت نجد الشعير وقصب السكر، أما بالنسبة للفواكه فساهمت المنطقة بالتمور، الخوخ، التين، الجوز، العنب والرمان، كما لم تخلو المنطقة كذلك من الحيوانات والتي كان من أبرزها الجمال، الخيول، الماعز، وبالتنقيب عن الأنشطة الحرفية والصناعية بين ثنايا المصادر الجغرافية، تبين أنها لم تتطرق لها بإسهاب، غير بعض الإشارات والنصوص التي وقفنا عليها، والتي تؤكد امتهان سكان المنطقة لحرفة البناء، القيافة، حفر الآبار وتنظيم الفقرات، إضافة لصناعة الحلي والصناعة الجلدية.

وتعتبر حرفة التجارة هي الأخرى من الحرف الممارسة بكثرة في المنطقة، فلا تكاد تخلو منطقة من الأسواق العامرة والتجارات المُرَبَّحة، ما جعل المنطقة ترتبط بشبكة من الطرق التجارية، بواسطة مراكز تجارية أعطت دفعا قويا للتجارة الصحراوية مثل بلاد توات، تسبت، تديكلت، تيكورارين، تندوف، القنادسة، والتي ارتبطت داخليا مع الحواضر الواحية للجنوب الشرقي كورجلان وبسكرة، والمدن الشمالية كتمهرت وتلمسان، إضافة للارتباط الوثيق على الصعيد الخارجي مع بلاد السودان الغربي، الذي عمل بدوره على تنشيط المبادلات التجارية، فكان من أهم صادراته للمنطقة الخيل والحريز والملابس، كما كان من أبرز صادرات الجنوب الغربي للجزائر التمر، الزرع بأنواعه، الجمال، الذهب والسكر.

وخلصت الدراسة إلى أن هناك أوضاعا اجتماعية عرفت بها المنطقة، تميزت بها عن باقي المناطق الأخرى، أبرزها تنوع التركيبة البشرية، من بربر أصليين، وعرب وافدين، وزنوج

مستقدمين، وحرّاثين أبناء هؤلاء السابقين، إضافة إلى اليهود الذين سيطروا على الوضع الاقتصادي والاجتماعي وحتى السياسي، ما جعل العلماء والفقهاء أمثال المغيلي يتدخلون بفتاويهم التي حثت على إجلائهم، ومن الظواهر الاجتماعية السائدة بالمنطقة كذلك ظاهرة التفاوت الطبقي بين أوساط المجتمع، المتمثلة في الغنى الفاحش لطبقة اليهود والتجار، والفقر المدقع لبعض الطبقات الأخرى، غير أن ذلك التفاوت الاقتصادي والتراجع المادي لم يمنع السكان من المحافظة على عاداتهم التضامنية التكافلية، المنبثقة أساسا من صلب الشريعة الإسلامية.

التعليقات:

التعليق رقم 1: عن الرحالة والجغرافيين ينظر: الدفاع، علي عبد الله. (1993). *رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية* (ط2). السعودية: مكتبة التوبة للنشر؛ حسن، زكي محمد. (2012). *الرحالة المسلمون في العصور الوسطى*. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

التعليق رقم 2: الرياض هي الأراضي ذات الخضرة، والبساتين الحسنة الكثيرة المياه، أما الأرباض فهي الأراضي المحيطة بالمدينة (ابن منظور، ج7، دت: 152، 162).

التعليق رقم 3: تيكورارين هي منطقة تميمون حاليا، عُرِفَت عند الكثير من المؤرخين باسم تيكورارين أو تينجورارين، والتي تعني التجمعات السكنية أو المعسكرات باللهجة المحلية البربرية، وقد عُرِبَت فصارت تيقورارين، وشيئا فشيئا أصبحت تعرف باسم القورارة، وموقعها شمال مدينة أدرار، وتبعد عنها بحوالي 200 كلم (بيدة، 2022: 706)، لها حدود جغرافية مع ولاية البيض وغرداية وبشار(طبي، 2017: 604).

التعليق رقم 4: تيوت حاليا بلدية تابعة لولاية النعامة، تبعد عن مقر الولاية ب 88 كلم، وعن مقر دائرة عين الصفراء ب 18 كلم (مبخوت، 2018: 103).

التعليق رقم 5: منطقة نوات هي ولاية أدرار حاليا، (هرباش، 2012: 03)

التعليق رقم 6: تديكلت هي ولاية عين صالح حاليا، أُشتق اسمها من اللفظ البربري الذي يعني بالعربية "كف اليد" (هرباش، 2012: 18).

التعليق رقم 7: تقع مدينة القنادسة غرب مدينة بشار، وتبعد عنها ب 20 كلم، كما تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 850 كلم، كان أول استقرار للسكان في المنطقة متزامنا مع سقوط دولة المرابطين على أيدي الموحددين (عياش، 2022: 36، 38).

التعليق رقم 8: القصور هي مجموعة من المساكن والمنازل الموحدة الشكل واللون، مبنية على هضبات مرتفعة عن سطح الأرض، محاطة بسور مزدوج ومرتفع، تتخلله أبواب فوقها بروج مستديرة على جانبي مدخل القصر (ميخوت، 2018: 99).

التعليق رقم 9: تسابيت حاليا هي بلدية من بلديات ولاية أدرار، تعرف قصورها إقبالا سياحيا من الأقطار جميعها.

التعليق رقم 10: تنتمي مدينة تمنطيط حاليا إلى إقليم توات ولاية أدرار، وهي تسمية أمازيغية مركبة من اسمين: "أتما" وتعني الحاجب، و"تيط" وتعني العين (شاطو، 2014: 292).

التعليق رقم 11: حاضرة تندوف حاليا هي مدينة تقع في أقصى الجنوب الغربي الجزائري على بعد 1800 كلم عن الجزائر العاصمة، اشتهرت خلال العصر الوسيط باسم تيندفوس (حامد، وحتوية، 2020: 1324-1325).

القائمة الببليوغرافية:

القرآن الكريم (جل من أنزله).

- (1) البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل. (2002). *صحيح البخاري* (ط1). بيروت، لبنان: دار ابن كثير للنشر.
- (2) بخدة، طاهر. (2014). "علاقة حواضر المغرب الأوسط - الجزائر - بممالك السودان الغربي"، *مجلة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف*، (العدد 12)، مدى الصفحات (25-47).
- (3) برشان، محمد. (2014). "اليهود في منطقة بشار من خلال المصادر المحلية". *المجلة الجزائرية للمخطوطات*، (العدد 11)، مدى الصفحات. (310-323).
- (4) بعثمان، عبد الرحمان. (2013). "حملة المغيلي على يهود توات واثرا على الواقع الحرفي في المنطقة". *مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية*، (العدد 04)، مدى الصفحات. (132-136).
- (5) بلأغ عبد الرحمان، ومقصودة محمد. (2022). "المشاهدات والحوارات في حوض الساورة من خلال أدب الرحلة - القرنين 11 و 12 الهجريين (18/17م) أنموذجا". *مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية*، (08/02)، مدى الصفحات. (88-112).
- (6) بن عربية محمد، و بوسالم أحلام. "دور مدينة ورجلان في تجارة الرقيق ببلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط". *مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا*، 04 (01)، مدى الصفحات. (80-98).
- (7) بوكرايلة، الزهراء. (2017). "إقليم توات بين التعريف والتأليف"، *مجلة القرطاس*، (العدد 03)، مدى الصفحات. (194-204).
- (8) بيده، عبد الرزاق. (2022). "الحركة العلمية والفكرية بإقليم قورارة - تيميمون -". *مجلة هيروبول للعلوم الإنسانية والاجتماعية*، 06 (02)، مدى الصفحات. (703-713).
- (9) تسكورث، يمينه. (2021). "العمارة والعمران بإقليم توات". *مجلة مدارات تاريخية*، 03 (01)، مدى الصفحات. (420-444).
- (10) التنيكتي، محمود كعت. (2014). *تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والحبوش، وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور، وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار* (ط1). بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة ناشرون.
- (11) الجباري، عثمان. (2014). "الفراسة كوسيلة للاستدلال على الشخصية في مجتمع وادي سوف" تتبع الأثر والقيافة أنموذجين"، *مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية*، (العدد 06)، مدى الصفحات (122-139).
- (12) جعفري، امحمد. (2021). "جوانب من الحياة الاقتصادية والعلمية بمنطقة توات خلال القرن 11/17م من خلال رحلة السراج". *مجلة الحوار الفكري*، 16 (02)، مدى الصفحات (23-34).

- (13) جعفري، مبارك. (2018). "القيافة ودورها في النظام القصورى الواحاتي بمنطقة توات في الجنوب الغربي الجزائري". *مجلة البحوث والدراسات*، 15(02)، مدى الصفحات. (333-348).
- (14) حامد لمين، وحاتية محمد. (2020). "دور قبيلة تيجكانت في ازدهار الحركة العلمية والتجارية بحاضرة تندوف خلال القرن 13هـ/19م". *مجلة الواحات للبحوث والدراسات*، 13(02)، مدى الصفحات. (1322-1339).
- (15) حامد، لمين إبراهيم. (2016). "أهمية الفقارة في النشاط الزراعي بإقليم توات في القرن 13هـ/19م"، *مجلة آفاق علمية*، (العدد 11)، مدى الصفحات (08-34).
- (16) حسن، زكي محمد. (2012). *الرحالة المسلمون في العصور الوسطى*، القاهرة، مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- (17) ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي. (1992). *صورة الأرض*، بيروت، لبنان: دار مكتبة الحياة للنشر.
- (18) ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد الحضرمي. (2000). *العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر*، تح: سهيل زكار، ج7، بيروت، لبنان: دار الفكر للنشر.
- (19) ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد الحضرمي. (2010). *مقدمة ابن خلدون* (ط2). القاهرة: دار الفجر للتراث.
- (20) دبوب، محمد. (د ت). "الدور الحضاري للمراكز الكبرى بمنطقة توات وأثره في جنوب غرب إفريقيا". *مجلة الحقيقة*، (العدد 23)، مدى الصفحات (444-472).
- (21) الدفاع، علي عبد الله. (1993). *رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية* (ط2). السعودية: مكتبة التوبة للنشر.
- (22) ذهبي إبراهيم، وعوادي محمد. (2022-12-14). *الحركة التجارية لليهود بتوات خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر ميلادي - النتائج والانكسارات*. ملتقى دولي بعنوان: الحواضر الواحية في المغرب الأوسط وإفريقية (التفاعل، الأدوار، الأهمية)، جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي، الجزائر.
- (23) ساقني، محمد. (2017). "الفقارة تراث أثري مندثر بقصور عين صالح بالتديكلت". *مجلة آفاق علمية*، 09(02)، مدى الصفحات. (173-190).
- (24) السراج، ابن مليح. (1968). *انس الساري والسارب من أقطار المغرب الى منتهى الأمال والمآرب سيد الأعاجم والأعرب*، تح محمد الفاسي، فاس، المغرب: مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية.
- (25) شاطو، محمد. (2014). "أهمية تخطيط ودورها في تجارة القوافل خلال الفترة الحديثة". *مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ*، (العدد 09)، مدى الصفحات. (291-303).
- (26) شترة، خير الدين يوسف. (2015). "القيم الاجتماعية بإقليم توات من خلال أدب النوازل" نوازل عبد الرحمان الجنتوري أنموذجا"، *مجلة التراث*، (العدد 17)، مدى الصفحات (61-85).
- (27) شرف الدين، لمياء محمد سالم. (1999). *بعض ملامح أزمة إفريقية الاقتصادية في القرن الخامس للإسلام* (ط1). بنغازي، ليبيا: دار الكتب الوطنية.
- (28) شمخي، إسماعيل موسى. (2018). "دراسة مونوغرافية الفقارة في المجتمع التيموني". *مجلة دراسات وأبحاث*، 10(04)، مدى الصفحات (947-955).
- (29) الشويري، ظاهر خير الله. (1904). "الحرفة وتوابعها". *مجلة المقطف*، مج 29، ج 1.
- (30) طيبي، عبد الله. (2017). "قورارة تراث وثقافة". *مجلة البربر*، 09(12)، مدى الصفحات. (604-615).
- (31) عباس، عبد الله. (2017). "دور إقليم توات في المبادلات التجارية بين بلدان المغرب الإسلامي والسودان الغربي". *مجلة الحكمة للدراسات التاريخية*، 05(12)، مدى الصفحات. (208-218).
- (32) العربي، إسماعيل. (1983). *الصحراء الكبرى وشواطئها*، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- (33) عياش، محمد. (2022). "القصور الصحراوية واستحكاماتها العسكرية بالجنوب الجزائري قصري تاغيت والقنادسة أنموذجا". *المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية*، 14(01)، مدى الصفحات. (34-64).
- (34) العياشي، أبو سالم عبد الله. (2006). *الرحلة العياشية*، ج 1، (ط1)، الإمارات: دار السويدي للنشر.
- (35) غيرستر، جورج. (1961). *الصحراء الكبرى*، ترجمة خيرى حماد، (ط1). بيروت، لبنان: المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر.
- (36) قادة، دين. (2017). "أنماط تواجد الماء في الصحراء الجزائرية وطرق استغلاله من خلال المصادر التاريخية". *مجلة قضايا تاريخية*، (العدد 07)، مدى الصفحات. (68-81).
- (37) كاربخال، مارمول. (1988). *إفريقيا*. ج 2، الرباط، المغرب: دار المعرفة للنشر.

- (38) كرزبكة، علي. (2017). "أثر القوافل التجارية على صناعة الكتاب المخطوط بإقليم توات". *مجلة آفاق علمية*، 09 (02)، مدى الصفحات. (154-172).
- (39) كعبوش، بومدين. (2020). "طريق الحج الصحراوي المغاربي من خلال رحلة ابن مليح السراج"، *مجلة دراسات وأبحاث*، 12 (01)، مدى الصفحات (224،236).
- (40) ميخوت، نصيرة. (2018). "قصور منطقة النعامة" دراسة تاريخية ومعمارية مغرار، تيوت، صفيصيفة - انموذجا-، *الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية*، (العدد 07)، مدى الصفحات. (95-109).
- (41) منصوري، امحمد. (2015). "عوامل وأسباب اندثار القصور الصحراوية وسبل المحافظة عليها" *قصور منطقة توات انموذجا*. *مجلة منبر التراث الأثري*، (العدد 04)، مدى الصفحات (159-176).
- (42) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (د.ت). *لسان العرب*، مج 07. بيروت: دار صادر للنشر.
- (43) الناصري، أبي عبد الله محمد بن عبد السلام. (2013). *الرحلة الناصرية الكبرى*، ج 1 (ط1). المغرب: دار أبي رقرق للطباعة والنشر.
- (44) هرياش، زاجية. (2012). *الوضع الإقتصادي في إقليم توات من خلال مخطوط الغنية في القرنين 12 و 13 الهجريين 18 و 19 الميلاديين*. أطروحة دكتوراه، جامعة وهران. الجزائر.
- (45) الوزان، الحسن. (1983). *وصف إفريقيا*، ج2، (ط2). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي للنشر.

الموروث الثقافي بحاضرة تندوف خزانة أهل العبد "أنموذجا"

The cultural heritage in the metropolis of Tindouf, the treasury of the people of the slave, "a model"

زويني زهراء: جامعة أحمد دراية - أدرار (الجزائر)، zhorhayo2014@gmail.com

بلغازي سعاد: جامعة طاهري محمد - بشار (الجزائر)، souad.belghazi@univ-bechar.dz

ملخص:

مما لاشك فيه أن حاضرة تندوف إحدى حواضر الجنوب الغربي الجزائري التي ساهمت فيها العوامل التاريخية الثقافية والحضرية، في جعلها منطقة استقطاب للعديد من الأجناس فشهدت قدوم خليط من السكان القادمين من المناطق المجاورة مثل المغرب الأقصى والسودان الغربي وانتقلت هذه العناصر عن طريق القوافل التجارية والهجرات الجماعية لبعض القبائل العربية، فتوافدت هجراتهم للحاضرة في شكل تجمعات وهجرات فردية طلبا للأمن والاستقرار فصارت حاضرة تندوف مصدراً للزخم الثقافي والحضاري في الجنوب الغربي الجزائري. ومن هنا تتجلى أهمية موضوع هذه الورقة العلمية. كلمات مفتاحية: الخزانة، المخطوطات، أهل العبد، الموروث الثقافي.

Abstract:

Undoubtedly, the city of Tindouf is one of the prominent centers in southwestern Algeria, shaped by historical, cultural, and civilizational factors that have made it a hub for various ethnicities. It has witnessed the arrival of a mix of populations from neighboring regions such as the Maghreb and West Sudan. These elements migrated through trade caravans and mass migrations of some Arab tribes, arriving in the city in the form of groups and individual migrations in search of security and stability. Thus, Tindouf has become a source of cultural and civilizational vitality in southwestern Algeria.

Keywords: The treasury, manuscripts, the servant's family, the cultural heritage.

1/ مقدمة:

تندوف هي اليوم ولاية حدودية تقع بأقصى غرب الصحراء الجزائرية، كما هي واحدة بها قصور وقصبات قديمة أثرية تعود إلى زمن تأسيس حاضرة تندوف الأخيرة من طرف المرباط

العلامة بَلْعَمَش¹ والعبد ابن الحرطاني جد أهل العبد² سنة 1270هـ/1853م وهذا لا يعني أنَّ تندوف لم تكن موجودة قبل هذا التاريخ حيث أكدت المنشورات والدراسات على قدمها.

¹ هو الشيخ الفاضل أبو عبد الله سيدي محمد المختار بن محمد الملقب بابن الأعمش بن محمد بن أحمد الملقب بجِبَّينِ اعمر بن أبي بكر الجكني الموساني. يكتب اسمه اختصارا هكذا: "ابن بلعشم" أو "ابن باللعشم"، وأحيانا يكتب في بـ "باللعشم" دون "ابن" وأما الأواخر من بنيه المعاصرين فصاروا يضبطون اللقب هكذا: "ابن بَلْعَمَش" ينتسب رحمه الله تعالى إلى بطن موساني أحد بطون قبيلة تجكانت الموريتانية النشأة والدار اللمتونية الصنهاجية النسبة ولد ببلاد زمور بموريتانيا الحالية وذلك في حدود سنة 1789 م وتوفي يوم الأربعاء 12 أكتوبر 1870 بعمر ناهز الثمانين سنة تاركا مجموعة من المؤلفات والمنسوخات والرسائل والفتاوي القيمة مثل شفاء الصدور في فتح مسألتي المشكور، ونصيحة قضاة البرية في تحريم الرشوة والهدية ومن المنسوخات التي نسخها بخط يده نجد كتاب المجموع الشافع في الطب النافع للفقهاء محمد ابن علي البوعقيلي وهو كتاب في الطب. لمزيد من التفاصيل حول المترجم له يرجى العودة إلى مؤلف عبد الله حمادي الإدريسي تندوف وتجكانت، المرجع السابق حيث خصص له فصلا كاملا يزيد عن 120 صفحة. كما وجدنا كتابة هذا الاسم في التراث المخطوط بخزنة آل بلعشم الموساني الجكني بتندوف حيث كانت لنا لها زيارة ميدانية في 2018/05/07م ومقابلة مع حفيده.

² لقد أشار بريك الله حبيب الجكاني من خلال دراسته الوثائق المحلية لخزنة أهلا لعبد وتحليلها أن التاجر عبد الله بن العبد بن محمد الحرطاني المسعودي الذليل منجد له ترجمة كافية هو أحد مواليد مدينة تندوف، وقد ولد في حدود عام 1850م لأنه استلم مهنة التجارة من أبيه العبد في حدود عام 1294هـ الموافق لسنة 1877م، وعلى ذلك يتضح أن الشاب عبد الله بن العبد كان في عقده الثاني بالتقريب وقتئذ على حسب أقدم وثيقة عثرنا عليها بالخزنة.

فعند زيارتنا لخزنة أهل العبد في 08/05/2018م بالمنطقة لم نثر على الوثيقة والعديد من الوثائق الأخرى التي فقدت بطريقة أو أخرى وهذا راجع حسب حفيد صاحب الخزنة الأستاذ تواقين عبد المنعم وهو مدير المركز الإسلامي بتندوف إلى انتقال الخزنة من مقرها بالدويرية أهلا لعبد إلى بيت جددها المشرف عليها الطاهر الحبيب يعود إلى عدم ترميمها، وكذا لتدهور الصعي لجده (إصابته بالشلل) مما جعل الوثائق والمخطوطات والمنسوخات القيمة عرضة للتلف وسوء الحفظ.

إضافة إلى غياب مسؤول مباشر جديد عن هذه الوثائق؛ أوتعد المسؤولين عن الخزنة فيظل هذا الطرف الصحي للقائم عليها إن صَحَّ التعبير من أبناء وأحفاد وأقارب ممن لهم صلة بالعائلة الجكنية الكبيرة. وفيما يخص مفردة الحرطاني المرتبطة باسمه فهي لا تمت بأي صلة لنسبه فهو جكني لا غبار على ذلك، وارتبطت باسمه لكيلا يموت هذا المولود الجديد كما توفي اخوانه من قبله عادة كانت منتشرة في المنطقة "وهي وهب المولود للعبيد من طرف والديه بمنحه كنية واسم خاص معروف للعبيد والحوالين مثلا لعبد، بلال، الحرطاني أو وهب أهله مدون منحه أسامي هم بآتياع معتقدات خاصة بذلك. وللإشارة فإن هذا المعتقد ليس قصيرا على تندوف وإنما ينتشر كذلك في توات. فلقد سمعت من أمها كثيرات ممارستن لهذا المعتقد بعد فقدهن لفلذات أكبادهن مرات عديدة. ومهما يكن من صحت زو اللعنة الموت للمواليد الجدد بآتياع هذا المعتقد فيبقى مجرد اعتقاد يتشبه به الوالدين خاصة الأم لبعث بصيص من الأمل حياة ابنها ف سبب موته جعل عدة عوامل أخرى كعدم الالتقيح والتطعيم وسوء المتابعة والمراقبة الصحية فيظل عزلة أغلب مناطق الجنوب الغربي وغياب ثقافة الطب

فالدراسات الجيولوجية التي قام بها كلا من ج. بوندون 1934م و إ.جيرمين 1937م وب.جيفين 1937 إلى 1957م. استكشفت بدقة أرض مدينة تندوف وأثبتت قدمها³.

وتسمية تندوف قديمة ورد ذكرها ب345 سنة قبل تجديد بنائها الأخير حيث ذكرها الشريف أحمد بن عبد الرحمان الملقب بالصقلي الحسني سنة (925هـ/1519م) عندما مر بها أثناء رحلته من بغداد إلى تنبكتو حيث أكرمهم أهلها بمبلغ 1000 دينار ليستعين به في سفره وذكر أنه وجد بالبلدة يومها قاضيها الطاهر البكاي و وجد بها إمام مسجدنا الشيخ قصي بن سليمان. وما ذكره يفيدنا أن البلدة كانت عامرة بها الديار والسوق والمسجد. هذا ويقول حمادي الإدريسي في كتابه تندوف وتجاننت: "لم نجد لتندوف ذكرا حسب البحث والتحري في كتب البلدان والتاريخ التي ألفت بعد البكري (ت487هـ/1094م) الذي ذكر موقعها في كتابه المسالك، باسم "تندفس" على ما ترجح عندنا والتي لم تكن زمن البكري حاضرة مبنية بل كانت بلاداً بها آبار ماء يستفيد منها المسافرون. فلم نجد لتندفس ذكرا عند غير البكري ولا لتندوف قبل بنائها الأخير على يد سيدي ابن بلعمش سنة 1270هـ/1853م"⁴

هذا وقد أشار الأستاذان الجكنيان خونا محمد⁵ وزين العابدين بن الطالب والمهتمان بالتاريخ المحلي لمنطقتهم تندوف أن تكون تسمية البلاد القديمة قبل عمارتها هي "تندفس" وتعني الآبار

الحديث خاصة بعد احتلال السلطات الفرنسية أراضي الجنوب مع مطلع القرن العشرين واستحداث المراكز الصحية فيها وكان النصيب الأكبر والعناية الخاصة لكولومب بشار لاعتبارات اقتصادية.

³ عبد الحق معروز، العمارة الصحراوية التقليدية بمدينة تندوف، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف تلمسان عاصمة الثقافة طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2001، ص 17.

⁴ عبد الله حمادي الإدريسي، تندوف وتجاننت تاريخاً ومناقب وبطولات، الجزائر، 2011م، ص 303.

⁵ هو الأستاذ أحمد محمود خونا الجكني التندوفي الجزائري من مواليد مدينة تندوف سنة 1969م خريج الجامعة الإفريقية بأردار شريعة وقانون، موظف بمديرية الشؤون الدينية والأوقاف بولاية تندوف، إمام أستاذ ومفتش، رئيس لمصلحة الثقافة الإسلامية والتعليم القرآني والتكوين، عضو المجلس الوطني لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عضو دائم في ملتقى حوار الأديان في أوروبا وأمريكا، يدعى سنوياً للمشاركة في ملتقى الوحدة الإسلامية بلندن، هو من دعاة الوسطية

المندفنة التي ذكرها الجغرافي الرحالة أبو عبيد البكري المتوفى عام (1094م/487هـ)، إذ أن البكري جاء لموضع ماء من خصائصه الآبار التي لا تلبث أن تهدم بفعل الحفر والردم لتجار القوافل، كما رجحت ذلك الاثنولوجية أوديت دو بويجاودياو (odette du puigaudeau) ويعتبران هذه أقوى الفرضيات إزاء ما قيل حول أصل التسمية كون تين: تعني الواد وطوف: الماء الذي يجري في الواد. وهي روايات لا تصمد أمام ما طرحته أوديت. ثم حُرِفَت التسمية بكثرة الاستعمال إلى تندوف الأخف والأسهل على اللسان والنطق بمرور الزمن⁶. ويرى البعض أن تندوف كلمة بربرية مركبة من كلمتين "تين" بمعنى الينبوع أو العين و"دوف" التي تعني غزارة التدفق، وبهذا يكون المعنى كاملا لتندوف هو العين الغزيرة التدفق⁷.

وحسب ما اطلعنا عليه من المصادر التاريخية وكتب البلدان لم نجد ما يفيدنا عن أصل كلمة "تندوف" وما تفيده من معاني، غير أنه يُرجح أن تكون التسمية مركبة من علمين هما: "تن" و "دوف". وعلى هذا يكون اسمها القديم هو "تندفس" ثم حُرِفَ بكثرة الاستعمال إلى تندوف أو تيندوف.

وبالتالي يكون الأصل مركبا من علمين كما استنتجه الأستاذ والمختص في كتابات الجنوب الغربي عبد الله الإدريسي هما: "تن" و "دفس". فكلمة "تن": معناها باللسان التارثي الصنهاجي: ذات أو صاحبة. وأما كلمة "دفس": قد يكون معناها بنفس اللسان موافقا لما وصفها

والإعتدال بنظرة واقعية وفكر عالمي، باحث ومهتم بالتاريخ الإسلامي، فقيه متضلّع حافظ للمتون. من مؤلفاته تحقيق مخطوطة شراب أهل الصفا لإبي عبد الله القندوسي، تحقيق مخطوطة فتح الشكور لابن الأعمش الجكني، دراسة عن كتاب الغياثي للجويني، دراسة عن الثورات والمواقف = الشرعية منها، رسالة منطق الطير، رسالة الحركة الواعية. مقابلة مع زويني حسين إمام أستاذ ومفتش صديق المترجم له بتاريخ 13/06/2018 على الساعة 22:30. وانظر كذلك صفحة التواصل الاجتماعي فايسبوك تجكانت الجزائر تواصل وعطاء مع نافذة تندوف، بتاريخ 11 نوفمبر 2018 على الساعة 15:55.

⁶مقابلة مع الأستاذين زين العابدين بن الطالب الجكني الحساني مهندس معماري وأستاذ الرياضيات والإعلام الآلي ب المركز الجامعي بتندوف وخونا محمد بتاريخ 2018/05/05م على الساعة 10:30 بالحاضرة الثقافية بولاية تندوف.

⁷ مبارك جعفري، منطقة تندوف في الجنوب الغربي الجزائري ودورها في الثورة التحريرية (1956-1962م)، مجلة الحقيقة، مجلد 17، ع 04 ديسمبر 2018، ص 473.

البكري: "الآبار التي لا تلبث أن تنهار وتندفن"، فيكون معنى الكلمة إجمالاً البلاد التي ما تلبث آبارها أن تندفن، ومما يرجح أنّ الكلمة أصلها صنهاجي بربري كون التوارف وهم شعب من صنهاجة اللثام كانوا هم البدو المنتجعة أسياذ هذه الصحاري المجاورة لتندوف كما ذكر ذلك سالفاً اليعقوبي والحسن الوزان وغيرهم⁸

وعلى العموم وبناءً عمّا سبق فقد اتفق المؤرخون والباحثين في تاريخ منطقة تندوف على أن أصل التسمية يعود إلى مكان الماء وهذا ما أشار إليه الأستاذ الدكتور جعفري مبارك: "أن هناك الكثير من الأسماء في الصحراء تبدأ بكلمة تين، مثل: تين زواتين، تينركوك، تين كرام، تينالن، تينورت، تينبكتو.

ومن هنا يمكن القول أن كلمة تين تعني البئر أو العين أو مكان به ماء، كون أغلب المراكز الصحراوية كانت في بدايتها عيون وآبار"⁹.

والذي يبدو أنّ تندوف الأولى التي ذكرها الشريف أحمد الصقلي على ما سيأتي لم تكن من تأسيس قبيلة تجكانت بدليل عدم ذكرها عند مؤرخيهم الذين ذكروا بناءهم لحاضرتهم تنيقي ولم يشيروا إلى غيرهما من الحواضر القديمة.

لكن من ضبط رسمها في العصور الأولى من تجديد تأسيسها على يد سيدي محمد المختار بن بلعش بزيادة ياء بعد تائها الأولى المكسورة هكذا: "تيندوف"، وما ذاك إلا ربما لمبالغة مد كسر أول الكلمة حتى أحدثت هذه الياء ومنه ما وجدناه بخزانة آل بلعش بتندوف بخط العلامة محمد محمود التركي عند إتمامه نسخ كتاب المنهج المنتخب ما صورته: "انتهى والحمد

⁸ عبد الله حمادي الإدريسي، تندوف وتجانك، المرجع السابق، ص 304.

⁹ مبارك جعفري، منطقة تندوف، المرجع السابق، ص 474.

لله رب العالمين على يد من أكمله لنفسه أو غيره على مَنَار تيندوف غُرّة جمادى الأخيرة عام (1281هـ/1864م) محمد محمود ابن أحمد بن محمد التركي لطف بهم¹⁰.

وقد وجدنا في كثير من العقود العرفية المخطوطة بخط آل بلعشم الموجودة بخزانهم بتندوف، ضبط التسمية كما ضبطها التركي، وفي غيرها بدون ياء بعد تاء¹¹. حسب ما عاينته من وثائق عقود وبيع وشراء في خزانة أهل العبد كذلك¹².

وصواب ضبط رسمها بدون ياء بعد تاء مبدئها لكون الكلمة صنهاجية الأصل وأنها تدرجت من تندفس التي ذكرها البكري إلى تندوف التي ذكرها صاحب تاريخ الفتاش نقلاً عن الشريف الصقلي، ثم لأنّ الحواضر والبلاد المجاورة لها تشترك في تسميتها معها في علمها الأول: "تن". فأبو عبيد البكري لم يضبط لنا شكل كلمة تندفس إلا أننا نرجح كسر أوله وتسكين ثانيه وضم ثالثه وسكون رابعه (تندُفس) موافقة لأسامي بعض حواضر الصحراء بالناحية باللسان الصنهاجي البربري كالتالي:

تنفُوشاي¹³، تنزرواطين¹⁴، وتنجوب¹⁵، وتنيقي، وتندا¹⁶، وتنبكتو¹⁷... الخ، وهذه البلدان يترجح بل يتأكد أن صنهاجة اللثام ومنهم لمتونة هم من سموها قديماً لكونهم الأسياد الأقدمون

¹⁰ عبد الله حمادي الإدريس، تندوف وتجكانت، المرجع السابق، ص 304-305.

¹¹ عبد الله حمادي الإدريس، تندوف وتجكانت، المرجع السابق، ص 304-305.

¹² وكان ذلك بتاريخ 2018/05/08 بمساعدة حفيد صاحب الخزانة الأستاذ عبد المنعم تواقين.

¹³ يسمى هذا الموضع اليوم بالعقيد لطفي أو برج لطفي والذي يبعد جنوب غرب بشار الجزائرية باتجاه تندوف بحوالي 500 كلم عبر الطريق الوطني رقم وموقعه شرق الطريق المذكور. ويبعد عن تندوف جوا ب 280 كلم من ناحيتها الشمالية الشرقية. ينظر Le grand Atlas du monde, p86- نقلاً عن حمادي الإدريسي تندوف وتجكانت، المرجع السابق، ص 308.

¹⁴ هو موضع بنواحي تندوف.

¹⁵ هو: موضع يقع شمال غرب تندوف بنحو 350 كلم متاخماً للحدود المغربية في منطقة رملية بنواحي حاسي الخبي.

¹⁶ بلاد بصحراء أزواد بجمهورية مالي.

¹⁷ تنبكتو حاضرة ذات دور علمي وسياسي وحضاري كبير، تأسست شمال نهر النيجر على بعد 12 ميلاً أسستها قبيلة التوارف في القرن 11م بجنوب جمهورية مالي حالياً. ينظر حول هذه المواقع: حمادي الإدريسي، تندوف وتجكانت، المرجع السابق، ص 308.

لربوع هذه البلاد قبل النزوح العربي الهلالي أو المعقلي إليها¹⁸، فتندوف لم يسمها ابن بلعمش بل جدد بناءها¹⁹.

التعريف بخزانة أهل العبد والمشرف عليها:

هي مجموعة من الوثائق والمخطوطات أشرف على جمعها المجاهد الطاهر الحبيب ولد مولود مند أوائل سبعينيات القرن الماضي حيث قام بجمع مخطوطات جده أولا بعد ذلك طرح الفكرة على شيوخ القبيلة حيث قال لهم: من أراد جمع تراثه وتاريخه فليحضر لي المخطوطات التي بحوزته ليتم حفظها، فكان الإقبال من الأهالي كبير وتم جمع الكتب المخطوطة والوثائق من العائلات الجاكانية بتندوف واستمر بالعناية بها وصيانتها وفهرستها وأشهارها منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا. بعد ذلك اتسع مجال الاهتمام وذلك بإنشاء جمعية الجوهرة لحفظ المخطوطات والوثائق في سنة 1927م وهذا من طرف أحد أبناء هذه العائلة وهو الأستاذ الطاهر عزيز، ولقد كان لهذه الجمعية الإسهام الكبير في كشف الستار ونفض الغبار عن هذا الموروث، وهذا بتنظيم عدة نشاطات وملتقيات تخص هذا المجال، فقطف هذا العمل ثمرة جهده وجاء الإهتمام الرسمي من الدولة لهذا الموروث حيث تم ترميم نماذج من هذا المخزون من طرف مكتبة الحامة بالجزائر العاصمة، هذا بالإضافة إلى فهرسة مجموعة كبيرة من المخطوطات من طرف فريق جمعة الماجد (فريق من دولة الامارات العربية تقوم على حفظ التراث الإسلامي) هذا وقد أعيدت فهرسة المكتبة من طرف الأستاذ أوقاص وهو أستاذ في علم المكتبات بجامعة الجزائر العاصمة وبالرغم من كل هذه المبادرات إلا أن هذه المخطوطات مازالت في حاجة إلى دراسة معمقة توفيقها حقها.

موقعها:

¹⁸ نفسه، ص 308.

¹⁹ نفسه، ص 315.

تقع الخزانة بحي الرماطين أحد أعرق وأقدم الأحياء المتواجدة بالمنطقة بالتحديد في الدويرية، وهو اسم محلي قديم لهذا البيت بالمنطقة وهو لصاحبه العبد ولد محمد الحرطاني كما أسلفنا الذكر سابقًا في دويرية أهل العبد قبل أن تؤثر على الدويرية عوامل الزمن مما اضطر الشيخ الحاج الطاهر الحبيب إلى تحويل الخزانة إلى بيته الخاص حيث أضفى عليها عناية خاصة. حيث تم رقمنة بعض مخطوطاتها من طرف مكتبة جمعة الماجد بدبي حيث كان للخزانة شرف أول رقمنة لهذه المكتبة سنة 2005م (أول عمل لهذه المكتبة كان لخزانة أهل العبد).

عرض حالة مخطوطات خزانة أهل العبد:

لم تلقى مخطوطات خزانة أهل العبد العناية الكافية نتيجة تظافر مجموعة من العوامل الطبيعية والبشرية، مما ساهم في ضياع واتلاف تراث هذه الخزانة أو بالأحرى الموروث الحضاري لمنطقة تندوف عامة وقبيلة أهل العبد خاصة—عن قصد أو دونه حيث عملت هذه الظروف على ضرورة نقل هذه المخطوطات والوثائق من مقرها الأصلي (دويرية أهل العبد)، إلى منزل المشرف على هذه المخطوطات، وهو الشيخ الطاهر الحبيب رحمه وذلك بعدما بات خطر انهيار الدويرية موشكًا، مما عجل في عملية نقلها إلى منزله وهناك تم تخزينها في صناديق من حديد ذات حجم كبير إلى يومنا هذا.

كل هذه الظروف والعوامل ساهمت على تهيئة المناخ المناسب لتواجد الحشرات وأعداء المخطوطات .

والكتب المخطوطة والوثائق في الخزانة متفاوتة ما بين جيّدة ومتوسطة الحال وسيئة وممزقة والتي فقدت أغلفتها والتي أصابها الإعوجاج ، وهذا ما وقفنا عليه خلال زيارتنا لهذه الخزانة إلا أن عدد المخطوطات الجيّدة قليلة فقد قدرت ب 50 مخطوط و 200 وثيقة .

ونقصد بالمخطوطات الجيدة التي لم يصيبها أي ضرر ، كما أنها حافظت على تجليدها ونجد أن أغلفتها ملتصقة بشكل سليم أما أوراقها فليست متضررة بأي عامل من عوامل التلف.

أما بالنسبة للمخطوطات المتوسطة الحال فقد قدرت 70٪ وهي التي أصيبت بأضرار بسيطة حيث لا تؤثر عليها مستقبلاً لو لقيت العناية التامة وتتمثل هذه الأضرار في بعض التشوهات ك انفصال كعوب المخطوطات عن أغلفتها وتأثر بعض أوراق هذه المخطوطات بشكل نسبي.

أما بالنسبة للمخطوطات الرديئة فقد قدرت ب230 مخطوط وهي التي أصيبت بتآكل على مستوى الأغلفة مما أدى إلى ضياع العديد من المعلومات ، وكذلك هشاشة وتحجر والتصاق هذه المخطوطات ، هذا ما ساعد على تفتت أجزاءها نتيجة لتأثير العوامل الأنفة الذكر.

لذلك فإن هذه المخطوطات في حاجة ماسة لصيانتها و حفظها ، وتوفير مناخ ملائم يُساعد هذا النوع من التراث للبقاء أطول مدة ممكنة.

احصاء مخزون خزانة أهل العبد :

من خلال زيارتنا لخزانة أهل العبد ومن خلال ما عرضه علينا القائمين على هذه الخزانة، تبين لنا أن المكتبة تحتوي على 350 مخطوط وأكثر من 700 وثيقة. هذا فيما يخص الموجود أما المفقود من المخطوطات والوثائق فبعضها في يد أفراد وبعضها خارج الوطن والبعض الآخر أهدى إلى شخصيات سياسية، بحيث يوجد مخطوطين كبيرين من خزانة أهل العبد في المتحف الوطني بالجزائر العاصمة قد أهديا للرئيس الراحل هواري بومدين عند زيارته للمنطقة سنة 1969م.

الخاتمة:

تُعتبر مسألة الحفاظ على الموروث الثقافي من أكثر القضايا المطروحة في أواخر القرن العشرين لعدة أسباب؛ منها ما يرتبط بهاجس الهوية ومنها ما يرتبط باستثمار عناصر التراث الثقافي لأهداف تنموية لعل أهمها تشجيع ما يُعرف بالسياحة البيئية الطبيعية والسياحة الثقافية في المنطقة.

فأهمية هذا الموروث الثقافي في عصرنا تدفعنا لمواجهة كل أشكال ضياعه وفقدانه، بسبب الإهمال الذي تتعرض له من طرف الساكنة. ولو كان بشكل غير مقصود، حيث الجهل بقيمة هذه الموروثات الثقافية يكون سيد الموقف في غالب الأحيان. إذا ما ستثنينا تحديات العصرنة لهذا العصر.

هذا وتعتبر الأمة التي تنطلق دون الاعتماد على تراثها، المادي والمعنوي أمة مُنقادة.

وبالتالي فمسألة الحفاظ على الموروث الثقافي تتطلب تنبيه الساكنة لقيمة تراثهم، وحثهم على استثماره لغايات تنموية، تعود بالفضل على المنطقة ككل كما أن تحقيق هذا الغرض يستلزم تظافر مجموعة من الجهود والشركاء والفاعلين، لأنه لا يمكن لجهة معينة أن تتكفل بهذه السيرورة المركبة في الحفاظ على الموروث الثقافي للمنطقة، وفي العمل على استثماره كدعامة لتحقيق التنمية المستدامة.

الملحق رقم: 01- دويرية أهل العبد موقع خزانة أهل العبد بولاية تندوف.



المصدر: تصوير الباحثة بولاية تندوف (2018)

قائمة المصادر والمراجع :

1. عبد الحق معزوز، العمارة الصحراوية التقليدية بمدينة تندوف، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف تلمسان عاصمة الثقافة طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2001.
2. عبد الله حمادي الإدريسي: تندوف وتجانن تاريخا ومناقب وبطولات، الجزائر، 2011م.
3. مبارك جعفري: منطقة تندوف في الجنوب الغربي الجزائري ودورها في الثورة التحريرية (1956-1962 م)، مجلة الحقيقة مجلد 17، ع 04 ديسمبر، 2018.
4. مقابلة مع الأستاذين زين العابدين بن الطالب الجكني الحساني مهندس معماري وأستاذ الرياضيات والإعلام الآلي ب المركز الجامعي بتندوف وخونا محمد بتاريخ 2018/05/05م على الساعة 10:30 بالحضيرة الثقافية بولاية تندوف .
5. مقابلة مع الأستاذ عبد المنعم تواقين بتاريخ 2018/05/08 حفيد صاحب الخزانة.

هذا الكتاب ...

يهدف هذا الكتاب لمعالجة ومناقشة الإشكاليات المتعلقة بمسارات التطور التاريخي لمنطقة الجنوب الغربي الجزائري، ومختلف العوامل والقوى الفاعلة والمتدخلة في تحديد وتوجيه تلك المسارات.

يضم الكتاب بين دفتيه مجموعة من الدراسات التي تعالج محاور متعددة، بدءًا من البُعد التاريخي الذي يوثّق للأحداث الكبرى التي عرفت المنطقة، مرورًا بالتحوّلات الاجتماعية التي شهدتها عبر العصور، وصولًا إلى التأثيرات الثقافية التي ساهمت في تشكيل هوية سكانها. وقد حرصنا على أن تكون هذه الدراسات مبنية على منهجيات علمية رصينة، تستند إلى المصادر الأولية والشهادات التاريخية، مع مراعاة التعدد في زوايا الطرح

ويبقى هذا العمل إضافة لحملة الأبحاث الأكاديمية المنجزة في هذا الإطار ، ومقدمة لأعمال مستقبلية من أجل تقديم صورة تاريخية واجتماعية متكاملة عن الجنوب الغربي الجزائري.

منشورات مخبر الدراسات الإنسانية والاجتماعية بالجزائر



جميع الحقوق محفوظة

رقم : 8-6-9980-9931-978-ISBN:

الطبعة الأولى مارس 2025

هذا الكتاب ...

يهدف هذا الكتاب لمعالجة ومناقشة الإشكاليات المتعلقة بمسارات التطور التاريخي لمنطقة الجنوب الغربي الجزائري، ومختلف العوامل والقوى الفاعلة والمتدخلة في تحديد وتوجيه تلك المسارات.

يضم الكتاب بين دفتيه مجموعة من الدراسات التي تعالج محاور متعددة بدءًا من البُعد التاريخي الذي يوثق للأحداث الكبرى التي عرفت المنطقة، مرورًا بالتحويلات الاجتماعية التي شهدتها عبر العصور، وصولًا إلى التأثيرات الثقافية التي ساهمت في تشكيل هوية سكانها. وقد حرصنا على أن تكون هذه الدراسات مبنية على منهجيات علمية رصينة، تستند إلى المصادر الأولية والشهادات التاريخية، مع مراعاة التعدد في زوايا الطرح.

ويبقى هذا العمل إضافة لجملة الأبحاث الأكاديمية المنجزة في هذا الإطار و مقدمة لأعمال مستقبلية من أجل تقديم صورة تاريخية واجتماعية متكاملة عن الجنوب الغربي الجزائري.